حيــاة إبراهيم

وطاعة الإيمان

ف.ب. ماير

ترجمة
القمص مرقس داود

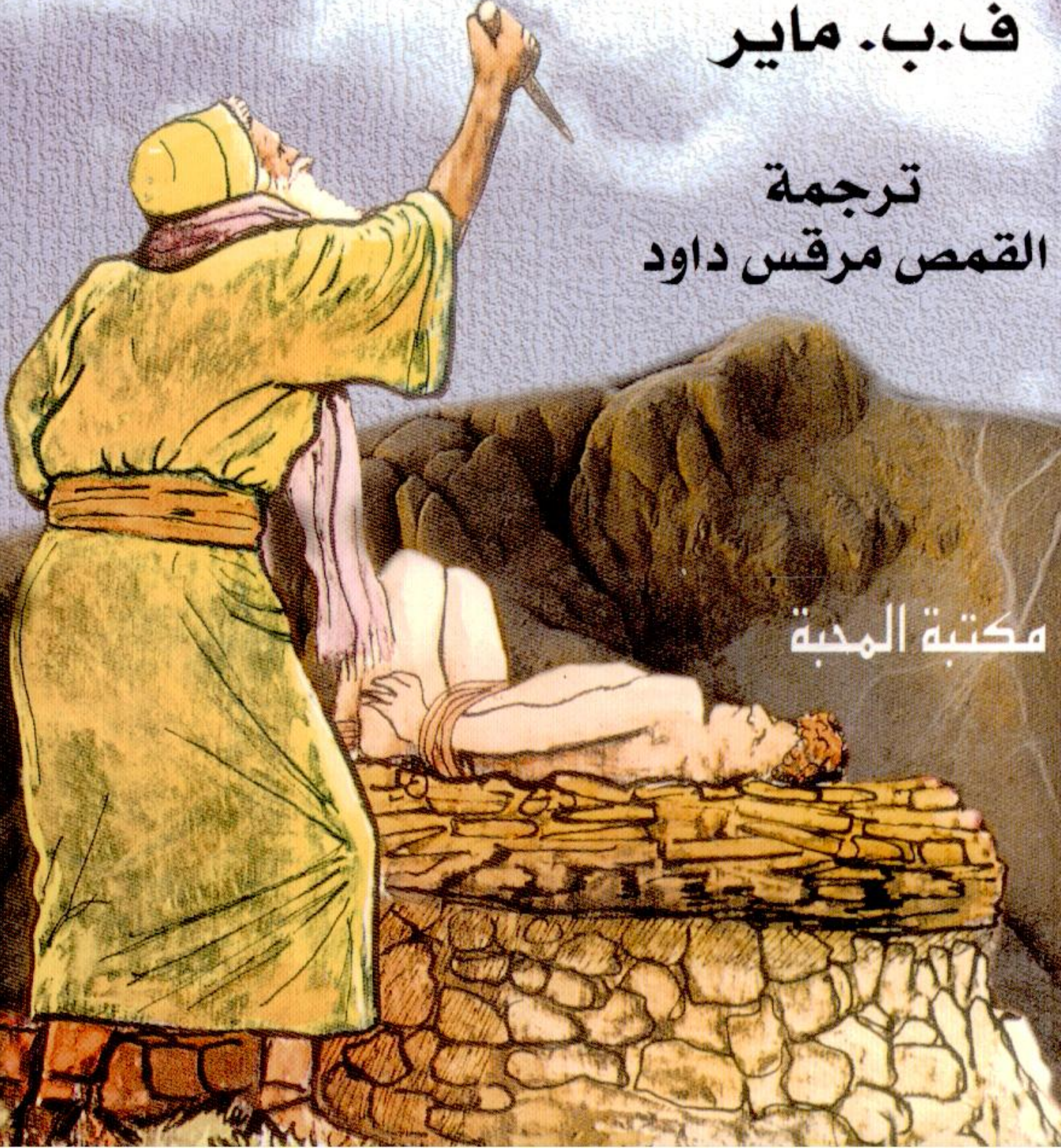

مكتبة المحبة

حياة إبراهيم

أو

طاعة الإيمان

تأليف

ف. ب. ماير

ترجمة

القمص مرقس داود

مكتبة المحبة

مقدمة المؤلف

إنى إذ أقدم للقراء، هذه الدراسات عن حياة إبراهيم، أشعر تماما بأننى عاجز كل العجز عن تفهم أو تصوير تلك الشخصية – وهى أعظم شخصيات التاريخ -- تصويرا حقيقيا. ومع كل، فهناك فكرة غالبة فى كل تلك الرواية، تجعل هذه الشخصية سهلة المنال لأقل مصور. تلك هى أن إبراهيم كان عظيما بإيمانه، وذلك الإيمان لم يكن فى بداية الأمر إلا خيطا فضيا رفيعا، شريطا دقيقا، وترا رقيقا، ليس أقوى من إيمان أضعف مسيحى يقرأ هذه السطور.

ولكن، حيثما وجد الإيمان، كان هو حلقة الاتصال بالقدير، المجرى الذى تنساب منه الينابيع، الإلهية، السلك الذى تنحدر بواسطته نار السماء، وإذا ما خضع ذلك الإيمان لإيحاءات الروح القدس، وإطاعة وصاياه، فلابد له من النمو، كما كان الحال مع إبراهيم. لابد له من النمو فى حياتنا نحن أيضا.

وقد كان القصد الأساسى من كتابة هذه السيرة، هو تتبع ناموس ذلك النمووتزايده المستمر، وذلك لتشجيع أولئك الذين هم أولاد إبراهيم، بالإيمان، والذين يشتاقون من كل قلوبهم، إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم، حتى يستطيعوا أن يزحزحوا جبال الصعوبات، ويتغلبوا على ما يبدو أمامهم مستحيلا.

ف. ب. ماير

مجدا للثالوث الأقدس
الآب والابن والروح القدس

مقدمة المعرب

كان للترحيب العظيم،الذى قوبل به كتاب «حياة يوسف» من جماعة المسيحيين فى مصر والأقطار الشرقية المجاورة، باعث قوى فى نفسى لموالاة تعريب هذه السلسلة على قدر ما تسمح به ظروفى وأوقاتى الضيقة. وكان هنالك ثمة باعث آخر، هو ما أشعر به دواما من تأثير بالغ فى حياتى الروحية كلما خلوت إلى نفسى، وتأملت، ولو قليلا، فى مؤلفات ذلك الرجل العظيم (ف. ب. ماير)، وخاصة فى هذه السلسلة من تاريخ حياة أبطال الكتاب المقدس، مما يملأنى رغبة ملحة فى إشراك الكثيرين فيما استمتع به من بركات روحية غزيرة.

وها أنذا، أقدم حلقة أخرى من هذه السلسلة، «حياة إبراهيم» ذلك البطل العظيم، الذى قد وصل إلى ذروة المجد فى الإيمان، حتى لقب بحق «أب المؤمنين».

كان – ولا يزال – أعظم ما يفتخر به اليهود، أن يدعوا أنفسهم «أولاد إبراهيم». وفى هذا السفر، تتكشف أمامنا، الطرق التى بها نصبح أولادا لإبراهيم، وورثة لإيمانه.

وكان من أعظم الامتيازات التى انفرد بها إبراهيم، دون سائر آباء وقديسى العهد القديم، أنه دعى «خليل الله» أو (صديق الله). وفى هذا السفر أيضا، نستطيع أن نتتبع الخطوات التى يجب أن نسلكها، حتى نصل إلى ذلك الامتياز الفريد.

لذلك، فإننى أضع بين يدى القدير، هذه السيرة المباركة، متوسلا إليه أن يجعلها بركة لحياة كل الذين يتصفحونها. ولإلهنا المجد والكرامة.. إلى أبد الدهور كلها ... آمين.

الطبعة الأولى { أبيب سنة ١٦٥٥
يوليو سنة ١٩٣٩

حافظ داود

باسم الآب والابن والروح القدس
إله واحد آمين

مقدمة الطبعة الثانية

عندما تم طبع هذا الكتاب للمرة الأولى عام ١٩٣٩، تخاطفته الأيدى فى الحال، ونفذت طبعته فى مدة وجيزة جدا. وبدأ الكثيرون يطلبون إعادة طبعه، فكنت بين عاملين: الأول، إعادة طبعه، تلبية لرغبة هؤلاء الأحباء الكثيرون. والثانى، طبع غيره من الكتب التى تنتظر الظهور إلى عالم المطبوعات، فتغلب العامل الثانى، وطبعت كتبا كثيرة بنعمة الله وإرشاده وتوفيقه.

ولكن، لما اشتد الضغط علىّ وعلى مكتبة المحبة القبطية بمصر، لم نر بدا من إعادة طبعه.

وإننى ابتهل إلى الله، مصدر كل خير وبركة، أن يستخدم هذا المجهود المتواضع، ليجعله بركة للكثيرين والكثيرات، ممن يطلعون على هذا الكتاب.

يناير سنة ١٩٦٠
طوبة سنة ١٦٧٦

القس مرقس داود

الفصل الأول

نُقرة الجُبّ

«ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وهو فيما بين النهرين قبلما سكن فى حاران. وقال له اخرج من أرضك ومن عشيرتك وهلم إلى الأرض التى أريك»

(أع ٧: ٢ و٣)

«انظروا إلى الصخر الذى منه قُطعتم وإلى نقرة الجب التى منها حُفرتم. انظروا إلى إبراهيم أبيكم»

(إش ٥١: ١ و٢)

إن أهم ما يسترعى التفاتنا فى شخصيات فجر التاريخ، هى شخصية إبراهيم. وأهم ما يسترعى التفاتنا فى شخصية هذا البطل العظيم، ماقيل عنه، من أنه «خليل الله» أو (صديق الله). وحقا، إنه لما يستحق تأملاتنا الروحية العميقة، أن ندرس عن الحياة الداخلية، لشخصية كهذه، وعن حياتها الخارجية أيضا، لكى نصبح نحن أيضا، لا عبيد الله فقط، بل أحباءه وأصدقاءه، وأمناء أسراره الأعزاء، الذين لا يخفى عنهم أسراره، بل يعلن لهم إرادته.

لقد صور لنا الكتاب المقدس، هذه الشخصية، بطريقة جذابة، جعلتها ماثلة أمامنا دواما، صورها بقوة رجائها، كما صورها بمخاوفها. صورها فى أوج مجدها، كما صورها فى إبان ضعفها، صورها فى كل العوامل الطبيعية، التى تؤثر عادة، على حياة كل منا.

ثم إن الكتاب المقدس أيضا، أكثر من الإشارات لهذه الشخصية، فى العهد القديم، والعهد الجديد، حتى يبدو لنا، كأن إدراكها إدراكا صحيحا، ضرورى لتفهم عبارات كثيرة، عسرة الفهم، وتفهم عقائد روحية كثيرة، وردت فى صحائف الكتاب المقدس التالية. وخليق بنا أيضا، أن نكشف السبب، لماذا نرى أن أعرابى الصحراء البسيط، والرجل المتحضر، الشرقى المحافظ، والغربى الوثاب، المسلم والمسيحى - لماذا نرى هؤلاء كلهم، يلتقون عند خيمة هذا العبرانى الأول، ويجدون فيه موضوعا عاما، يشتركون كلهم فيه.

ترجع بنا هذه القصة، إلى ألفى سنة قبل ميلاد المسيح، وتأتى بنا إلى مدينة أور القديمة. ولعله من المناسب أن نتأمل- بمساعدة الاكتشافات الأثرية الحديثة - فى طريقة المعيشة، التى كان يحياها هؤلاء القوم قديما. فنحن نميل إلى الوقوف فى تلك البقعة الموحشة، وسط تلالها، وغاباتها، وحشائشها، لنرى منبع ذلك النهر، الذى يفيض على أقطار عدة، ثم نتساءل عن تلك المناظر، التى نشأت وسطها، شخصية عظيمة كهذه؛ لعلنا نستطيع أن نزداد فهما، لبعض تفاصيل ودقائق حياتها. وشكرا لله، من أجل الاكتشافات الحديثة، التى سلطت أنوارها، على خرائب تلك المدينة العالمية، القديمة، التى كانت تشغل تفكير العالم، يوم كانت قطعان الغنم، تحتل سبع جبال روما، وقطعان الغزال، تحتل موطن القديس بولس، وشواطئ نهر التيمس.

كان الرأى السائد قديما، أن مدينة أور، فى أعالى ما بين النهرين، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت، أنها تقع فى الجنوب، فى أطلال «مغير»، بالقرب من مصب نهر الفرات، فى الخليج الفارسى.

قال الأستاذ راولنسون (Professor Rawlinson) «إن خرائب هذه المدينة، تتكون من مجموعة من التلال القليلة الارتفاع، ممتدة إلى مسافة ميلين، يتوسطها تل أعلى، لا يزيد ارتفاعه على سبعين قدما، كان قائما عليه هيكل عظيم، كُرِّس للقمر».

كانت هذه المدينة قديما، زاهرة، قوية، على البحر، تفخر بأسطولها ومراكبها، التى ملأت المحيط الهندى، محملة بخيرات هذه البلاد.

ربما يكون خارجا عن غرض هذا السفر، أن نحاول وصف أمجاد تلك الأرض الكلدانية، التى يرويها نهراها العظيمان، (الدجلة والفرات)، والتى اشتهرت بجودة، ووفرة قمحها، ونخيلها، والتى أغرقتها الفاكهة، كالرمان والتفاح، والعنب. وخلاصة القول؛ أن هذه البلاد، كانت شريطا طويلا ممتدا، لابسا حلة سندسية، تجذب أنظار الجميع إليها؛ وتكفى لسكن الجماهير العديدة من البشر، وتتلاءم بنوع أخص، لسكن جماعة الرعاة، الذين يحتاجون للأراضى المتسعة، لرعاية أغنامهم، ومواشيهم.

كان أولاد (حام)، قد أغرقوا فى العبادة الوثنية. ففى ذلك الجو الصافى، تلألأت كواكب

السماء، بلمعانها البهى، فخلبت عقول الكلدانيين، حتى اضطروا لعبادتها، وسرعان ما اقترنت عبادتهم، بمظاهر الدعارة، والفجور، الأمر الذى يقع فيه البشر عادة، عندما يرفضون أن يُبقوا الله فى معرفتهم، وعندما يستسلمون لشهواتهم الجسدية. وكان الجنس البشرى، مرة أخرى، سائرا بخطى واسعة، نحو الشرور، والجرائم، التى استلزمت من قبل، هلاك العالم بأسره. ولهذا، فقد كان ضروريا، اتخاذ إجراء سريع، لإيقاف تيار هذا الشر الجارف، وتخليص البشرية من سلطانه، ومن ويلاته. وهذا الإجراء، قام به ذاك الذى كان، ولا زال إلى الآن، كل مسرته فى بنى البشر، والذى استطاع أن يقول بعد ذلك بسنوات طويلة: «قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن» (يو ٨:٥٨). وقد تمم الرب قصده، بفرز رجل واحد، عن أهله وعشيرته، حتى يستطيع أن يقيم الجنس البشرى من سقوطه، إذ يقدس هذا الرجل وذريته، ويهيئهم، ليكونوا له شعبا مستعدا.

كان قد مر على حادثة الطوفان، أربعة أجيال. ولا شك فى أن حركة الهجرة والتنقل، قد بلغت فى أثنائها مبلغا عظيما، حيث كانت الأرض خالية أمام البشر، وكان التناسل ينمو نموا سريعا. فرحل أولاد (يافث) إلى الشمال، ليحتلوا أوربا وآسيا، ورحل أولاد (حام) إلى الجنوب، نحو سهول الكلدانيين، الخصبة، حيث استطاعوا، تحت قيادة نمرود العظيم، أن يبنوا المدن الحصينة، والهياكل المتسعة، التى لا زالت آثارها باقية إلى الآن، وأقاموا صرح المدينة، التى فاقت كل مدينة أخرى فى الوجود. فقد قيل عنهم؛ أنهم برعوا فى الرياضيات والفلك، وفى النسيج، وصناعة المعادن، والنقش، وإنهم خلدوا مدنيتهم، بتدوين كل أفكارهم، على القوالب الطينية.

فى وسط بنى حام، قامت عشيرته من بنى سام، واستقرت فى المراعى الغنية، خارج مدينة أور، تحت قيادة رئيسها تارح. ولأن أفراد هذه العشيرة كانوا من الرعاة، لم تأخذ ألبابهم، تلك المدينةُ ذات الأسوار العالية، بكل ما فيها من مظاهر وأمجاد المدنية؛ بل قنعوا بالسكن فى خيام، أو أكواخ صغيرة. وتمشيا مع نبوة نوح، [١] نستطيع القول؛ أن حياتهم الدينية، كانت أنقى من حياة أولئك القوم، الذين سكنوا فى وسطهم.

على أنه للأسف الشديد، سرعان ما دبت جرثومة الفساد، وسط هذه العشيرة، بسبب

[١] وهى الواردة فى تك ص ٩:٢٦ «مبارك الرب إله سام وليكن كنعان (ابن حام) عبدا لهم».

مجاورتها لبنى حام، الذين نفثوا فيهم سموم عباداتهم الوثنية، فأضاعت عليهم رونق، وجمال إيمانهم الأول، الذى اشتهر ببساطته، ونقائه.يخبرنا يشوع صراحة؛ أن الآباء الأولين لبنى إسرائيل، الذين سكنوا فى عبر النهر (نفس هذه البلاد التى نحن بصددها)، عبدوا آلهة أخرى (يش ١٥:٢٤). ونستطيع أن نجد آثار هذا الشر فى بيت لابان، الذى سرقت منه راحيل أصنامه، الأمر الذى أهاج سخط أبيها (تك ١٩:٣١-٣٥).

يا لها من مسئولية خطيرة، على أولاد الله الأتقياء، إذا ارتضوا أن يعيشوا فى الأوساط النجسة، الشريرة، فإنهم إن نجوا من فخاخ الشر، قد يقع فيها أولادهم. وكيف يسوغ لنا، أن نعرض أولادنا للشر الذى قد ينجس حياتهم إلى الأبد. ألا يليق بنا، إذا اضطرتنا واجباتنا وأعمالنا، للسكن فى الأجواء الفاسدة، أن نتوسل لله ليسيج حولنا قداسته، وليسكن أعزاؤنا فى ستر العلى.

وسط هذه المناظر، ولد إبراهيم، ودرج من سن الشباب إلى الرجولة. وإذا صحت الروايات التى تقال عنه؛ وهى بلا شك، تستند إلى شئ من الصحة، إن لم تكن كلها صحيحة؛ تبين لنا، أنه منذ البداية، كان يتصف بأخلاق غير عادية. تتضمن هذه الروايات؛ أن إبراهيم لما كان شابا، قاوم بعنف، تيار الشر الذى جرف إلى لججه، كل البلاد، بل غمر بيت أبيه أيضا. ثم إنه أشهر فى وجه تلك الممارسات الشريرة، سلاح الهزء والسخرية، الذى طالما استخدمه من بعده، الأنبياء المتعاقبون من نسله، ثم إنه كان كلما رأى تمثالا حطمه. وكان يأبى أن يجثو للنار، متحديا أوامر الملوك، ولو كان فى ذلك الموت الزؤام. وهكذا رأينا فى قديم الأيام، ذلك الرجل الفاضل، ينسلخ من وسط جماعة الوثنيين، كأنه قد حفر من «نقرة الجب»، استعدادا لبنيانه عمودا فى بيت الرب.

هذه الروايات، لا تستند إلى أية إشارة فى الكتاب المقدس. على أنه من الناحية الأخرى؛ لا توجد فيه أية إشارة تنفيها، بل بالعكس، نحن عندما نرى نجما يتحرك فى السماء، دل هذا على ضرورة وجود جرم سماوى، له حيز معين، ولو كان ذلك مخفى عن أعيننا. كذلك، كلما تأملنا فى صفات هذا الشخص الكاملة، وفى إيمانه، وطاعته، اللذين أبرزهما لنا الكتاب المقدس، عند بدء التحدث عنه، تحققنا أن وراء هذه الصفات، سنوات طويلة، فى الاختبارات

العميقة، وفى عشرة الله. وإن كانت حشائش الحقل، لا تستطيع أن تفاخر إلا بأيام عمرها القصير، فإن شجرة البلوط، الوارفة الظلال، التى تستطيع أن تصمد أمام العواصف والرياح، لها أن تفاخر بسنى العمر الطويل، التى تعرضت فيها للشمس، والهواء، والزوابع، والعواصف.

أخيرا .. «ظهر إله المجد لإبراهيم». كان النور يزداد له ضياء، وأخيرا .. بددت الشمس أستار السحاب، وبزغت إليه بنورها الوهاج. نحن لا نستطيع أن نحدد الطريقة التى ظهر بها الله بمجده لإبراهيم، ولكننا نعتقد أنه لابد أن يكون قد ظهر إليه بصورة محسوسة، وأن هذه الصورة، قد انطبعت فى ذهنه طول الحياة، ووطدت إيمانه فى كل أيام حياته التالية. ربما يكون ابن الله - الذى هو كلمة الله منذ الأزل - قد ظهر إليه فى شكل ملاك، كما ظهر إليه فى ممرا، أو ربما يكون قد تحدث إليه من وسط السرافيم، كما تحدث إلى إشعياء فيما بعد (إش ٦).

وعلى أى حال، فإن تلك الرؤيا السماوية، كانت مصحوبة بصوت كالأصوات العديدة، التى نادى، وينادى بها الله فى كل الأجيال، أولاده الأمناء، لينتبهوا إلى دعوتهم الحقيقية، ويأخذوا مكانهم فى تجديد العالم. كان مضمون هذا الصوت «اذهب (أواخرج) من أرضك، ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك، إلى الأرض التى أريك» (تك ١٢:١). إن عشنا بحسب ما لدينا من نور، زاد الرب لنا النور ضياء، وإن عشناء أمناء فى القليل، كانت لنا الفرصة، لنكون أمناء فى الكثير. وإن وقفنا ثابتين فى أرض كلدان، فقد تأتينا الدعوة، لنلعب دورا هاما فى تاريخ العالم؛ فإن اختيار الله ليس استبداديا، أو تعسفيا، بل يتوقف على أعمال وتصرفات سابقة، فى حياة أولئك الذين يدعوهم من وسط عشائرهم لخدمته «الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم».

من المستحيل أن يتكهن المرء، عن جميع الأفراد الذين ستقع أنظارهم على هذه الكلمات. فقد يقرأها بعض الشبان الملحدين، فى هذا المكان أو ذاك، قد يقرأها البحارة على ظهر السفينة، كما يقرأها الجندى فى ساحة الوغى. قد يطلع عليها بعض أولاد الله، الذين يعيشون فى هذا العالم، المملوء بالشرور، الذين يختلطون بطبيعة عملهم، بالأوساط الشريرة، التى تحاول أن تقتل فيهم كل عاطفة نبيلة، والتى لا يجدون فيها أى معونة لمقاومة شرورها. ولكن، ليتشجع كل هؤلاء وأولئك؛ فإنهم إنما يسلكون طريقا، سلكه من قبلهم، أقدس البشر، وكان أكثر وعورة، وأشد خطرا، فى تلك الأيام السحيقة، حيث لم يكن يسيرا، أن يجد فيها المرء رفيقا يتعاون معه، خصوصا، أيام إبراهيم، الذى عبد الرب وحده.

من ضمن العلامات، التى تؤكد لنا أننا سائرون فى هذا الطريق، هذه العلامة - الوحدة - «انظروا إلى إبراهيم أبيكم.. لأنى دعوته وهو واحد» (إش ٥١:٢). ومن أمرّ الآلام التى عاناها المسيح، «الوحدة»، على أنها وحدة، تنعم بالرفقة الإلهية (انظر يو ١٦:٨ و٢٩، ٣٢:١٦). ومع أنه قد يبدو، بأنه ليس من يرقب جهادنا، ونحن فى وحدتنا، إلا أن كل السماء ترقبه بعين العطف، والإشفاق، ولابد عندئذ من سماع الصوت ينادينا من السماء، كما نادى إبراهيم، وفتح أمامه الطريق للحياة الممتلئة بالبركات العجيبة.

أيها الأخ الحبيب! لا تيأس من مستقبل العالم، فلابد أن يخرج من وسطه، من يرفعونه إلى مستوى أرفع. لابد أن يكون هنالك أمثال شاول الطرسوسى، يتربون فى مجامع اليهود، بل، أمثال إبراهيم، يتربون تحت ظلال المعابد الوثنية. إن الله وحده، هو الذى يستطيع أن يراهم، ويعرف مكانهم. وعندما يشتد الظلام، يخرجهم الرب، ليقودوا الجماهير الغفيرة من المتغربين، مثل الرمل الذى على شاطئ البحر، ومثل النجوم فى الكثرة.

الفصل الثانى

دعوة الله

«وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك. فأجعلكم أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة»

(تك ١٢: ١ و٢)

بينما كان إبراهيم ساكنا هادئا فى أور، يحتج ضد العبادة الوثنية التى انتشرت فى عصره، وملأت البلاد بشرورها، متحملا الآلام المرة من أجل الضمير - كما تخبرنا الروايات القديمة - «ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وقال له اخرج من أرضك ومن عشيرتك وهلم إلى الأرض التى أريك» (أع ٧: ٢ و٣).

كانت هذه أول الظهورات العجيبة التى سبقت التجسد، وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى إعلان الله نفسه للبشر.

لا نستطيع أن نعرف الوقت الذى تم فيه هذا الظهور الإلهى تماما، فقد يكون فى هدوء الليل البهيم، أو فى ساعة التأمل فى المساء، أو فى النهار، وسط مشاغل الحياة. وسواء أكان هذا أم ذلك، فإن نورا قويا أبرق حوله من السماء بغتة، ورأى منظرا محسوسا، ثم سمع صوتا ينادى فى أذنه برسالة السماء.

صحيح أن الله لا يظهر اليوم بهذه الطريقة، ولكن من المؤكد أنه لا زال يتكلم فى مسامع كل النفوس التى تنتظره، معلنا لها إرادته، وقائلا لكل واحد «اخرج». أصغ إلى هذا الصوت فى مخدع قلبك الداخلى.

ولقد طالما دوى هذا الصوت فى بطون التاريخ منذ ذلك الحين. فقد دعا إيليا من تشبه، وعاموس من تقوع، وبطرس من بين شباك الصيد، ومتى من مكان الجباية، وهو لا يزال يدوى إلى الآن قائلا «اخرجوا منها يا شعبى لئلا تشتركوا فى خطاياهم ولئلا تأخذوا من ضرباتها» (رؤ ١٨: ٤) «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجسا فأقبلكم» (٢ كو ٦: ١٧).

أيها القارئ العزيز! ألم تسمع هذا الصوت بعد؟ إن كان الجواب سلبا، فإن ذلك أمر غريب، وإن كنت قد سمعته، فلا تتأخر عن تلبيته، ولا تتوان. منطقوا أحقاءكم، واتبعوا إله المجد حيث يرشدكم، واعلموا بأن هذه الكلمة «اخرجوا» تتضمن أنه يتقدمكم، وإن أردتم أن يكون رفيقا لكم، فعليكم أن تتبعوه.

(١) كان وراء هذه الدعوة بعض العقبات :

فإنه لم يكن له أولاد، وكانت موارده كافية لسد كل احتياجاته؛ ثم إنه كان مرتبطا بعشيرته بأقوى الروابط الطبيعية، وكان عسيرا عليه أن يقطع هذه الروابط، ويترك أعز الناس لديه، ويذهب إلى أرض لا يعرف عنها شيئا.

وهكذا الحال فى كل دعوة يوجهها الله إلى أولاده؛ فإنها تتضمن دواما تضحية أعز الأشياء، أو أعز الناس لديهم. فنحن إن أردنا أن نتبعه فى الطريق التى يرشدنا إليها، يجب أن نكون مستعدين لحمل الصليب كل يوم. وكل خطوة نخطوها فى سبيل التقدم الحقيقى فى الحياة الروحية، تتطلب تضحية جديدة وإنكارا للذات.

صحيح، إن البركات تنتظرنا أعظم من التضحيات التى تطلب منا، وإن الأمل فى الحصول على هذه البركات كثيرا ما يحفز أولاد الله للتقدم إلى الأمام. ولكن؛ عندما تأتى الساعة الفاصلة التى فيها يودع المرء أهله أو أصدقاءه، أو أحب شئ لديه الوداع الأخير، فقد يذكر سنوات المتعة واللذات والشهوات الماضية، فتعز عليه التضحية.

هذا هو رفش الله الذى يعزل القمح عن التبن، وكثيرون هم الذين لا يستطيعون أن يثبتوا أمام امتحان كهذا، قاس فى طلبات. إنهم يهربون من الموقف عن طريق أقرب مخرج يقابلهم كبيلاطس، ويتركون فى حزن ذاك الذى سبق أن أتوا إليه مسرعين كالشاب الغنى.

هل هذه هى الحال معك؟ هل إذا سمعت دعوة الله، ترتد إلى الوراء، لأن التضحية تعز عليك؟ احسب حساب النفقة جيدا جدا، ولكنك لا تقف عند هذا الحد، بل تقدم باسم وبقوة ذاك الذي فيه كل شئ مستطاع. وإذ تفعل ذلك، تبرهن على أنك أهل للوقوف أمام المسيح فى التجديد.

إن دعوة الله، فى هذه الأيام العصيبة، موجهة لكل الكنيسة، لتتقدم، لا فى المعرفة والاختبارات الروحية فحسب، بل فى تبشير كل العالم. فطوبى لمن ينالون شرف تلبية هذه الدعوة السامية.

(٢) وكان وراء هذه الدعوة بركات عظيمة :

(١) بركة لإبراهيم نفسه:

لا شئ يزيدنا قوة، بقدر العزلة والانتقال إلى جو جديد. أعط الشاب فرصة للهجرة، أو ضعه فى مركز ذى مسئوليات خطيرة، أو دعه يكافح عن نفسه ليعيش، تجد أن كل مواهبه قد نمت وتقوت، الأمر الذى ما كان ممكنا أن يتم لو ظل عائشا فى وطنه، أو معتمدا على غيره، أو محاطا بكل أسباب العز والترف.

وما يحصل فى المواهب الطبيعية، ينطبق على المواهب الروحية، وأخصها الإيمان. فطالما كنا نعيش فى حياة هادئة، وفى أوساط هادئة، فإن الإيمان يركد وينام. ولكننا بمجرد الخروج من هذه الأوساط الهادئة، وليس أمامنا إلا الله لنعتمد عليه، فإن الإيمان يقوى ويشتد.

طالما كانت فراخ العصافير فى عشها، فإنها لن تنعم بنعمة الطيران، وطالما كان الولد الخائف ملازما الشاطئ، فلن تتاح له الفرصة لملاطمة أمواج البحار. وطالما كان البشر منهمكين فى الماديات، فلن يقدروا قيمة مواعيد الله. لم يكن ممكنا لأبرام أن يصير إبراهيم - أب المؤمنين وأعظم مثال فى الإيمان - لو كان قد ظل فى أور. نعم، كان لابد أن يترك وطنه المحبوب، بل بيته العزيز، ويرحل إلى الأرض التى لا يعرف عنها شيئا، لكى يشتد الإيمان، ويتفتق إلى أقصى حدوده فى نفسه.

قد لا يكون ضروريا، أن نطلق الأهل، ونخرج على الأصدقاء، على أنه من الضرورى، أن نخلى قلوبنا من كل الارتباكات، والمشاغل العالمية، ومن التعلق بالمادة، إن أردنا أن نتعلم الاتكال الكلى، والثقة الكاملة، فى الله القدير. ربما يكون الله قد سمح الآن، بأن يفك سفينة الحياة عن الشاطئ الذى كنا نعتمد عليه، ويطوح بها فى أحضان البحار أو المحيطات.

(٢) وبركات للعالم:

فعلى هذا الشخص الواحد، كان يتوقف رجاء المستقبل للعالم. فلو كان قد بقى فى أور ربما كان قد سرت إليه عدوى العبادة الوثنية، وحتى لو ظل أمينا فى مقاومة هذا الشر المستطير، لكانت قد سقطت فى هوته السحيقة، أسرته، بل أولاده بنوع أخص. ألم يكن بركة للعالم حينئذ، أن يؤخذ إبراهيم من بيته ومن عشيرته، لكى يبدأ بعبادة جديدة للجنس البشرى، على أرض جديدة، وتحت ظروف جديدة.

ألم يكن بركة للعالم، أن يخرج الكثيرون من أولاد الله من أوطانهم، فى كل العصور

والأجيال السابقة، ليذهبوا إلى بلاد لا يعرفون عنها شيئا. من المستحيل أن نؤثر على شعوبنا، طالما كنا نعيش تحت مؤثراتهم. ولكن، عندما نقوم ونخرج من أوساطهم، بناء على دعوة الله، فإننا نستطيع أن نؤثر عليهم بقوة. قال أرشميدس؛ إنه يستطيع أن يحرك العالم، لو أنه أعطى محورا خارجا عنه، لترتكز عليه رافعته. إذن؛ فلا تتعجب إن كان الرب يدعوك للخروج، لكى تكون له شعبا، ولكى يجعلك بركة للعالم.

على أنه فى بعض الأحيان، يأمرنا الرب أن نبقى حيث نحن، لكى نمجده فى المكان الذى نعيش فيه، ولكنه فى غالب الأحيان، يأمرنا بترك العشرة الرديئة، والأوساط الشريرة، والأصدقاء فاسدى السيرة، ونخرج إلى الأرض التى يعدنا بإعلان ذاته لنا فيها، مما كانت التضحية.

(٣) وكانت هذه الدعوة مقترنة بوعد :

ليس ضروريا أن تكون كل وصايا الله مصحوبة دواما بمبررات، ولكنها دواما مصحوبة بوعود؛ سواء كانت صريحة أو ضمنية، لأن إعطاء المبررات يثير المناقشات، أما إعطاء الوعد، فإنه يبين أن المبررات كافية، وإن كانت مخفاة. الوعود يمكن فهمها دواما؛ أما الأسباب، فقد تسبب اضطرابا فى الأفكار. الوعود أمور عملية، أما الأسباب، فهى أمور نظرية عقلية. وكما تخفى القشور اللب داخلها، كذلك تخفى وصايا الله الوعود فى طياتها. فإن سمعنا تلك الوصية «آمن بالرب يسوع المسيح»، رأينا وراءها ذلك الوعد «فتخلص» (أع ١٦:٣١). وإن سمعنا تلك الوصية «اذهب وبع أملاكك واعط الفقراء»، رأينا ذلك الوعد يتبعها «فيكون لك كنز فى السماء» (مت ١٩:٢١). وإن سمعنا تلك الوصية، «كل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى»، وجدنا هذا الوعد فى أثرها «يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية» (مت ١٩:٢٩). وإذا رأينا تلك الوصية «اعتزلوا»، وجدنا ذلك الوعد يتلوها «فأقبلكم وأكون لكم أبا» (٢ كو ٦:١٧ و١٨).

كذلك كان الحال مع إبراهيم، فإن الله يقول له: ولو لم يكن لك أولاد، ولكنى أجعلك أمة عظيمة، ولو كنت الابن الأصغر، ولكنى أباركك وأعظم اسمك، ولو كنت ستنزع من عائلتك، ولكن فيك تتبارك جميع قبائل الأرض. وقد تم كل من هذه الوعود حرفيا.

قد يبدو أن الصعوبات التى تتطلبها هذه الدعوة للخروج، أعظم من أن تحتمل، ولكن تأمل مليا فى الوعد المقترن بها، فإن أور، التى تقنع بالحياة فيها طويلا، لا تقاس بجانب تلك

«المدينة التى لها الأساسات» التى تنتظرك (عب ١١:١٠). لهذا، فإننا نجد راحة عظمى، فى التطلع إلى مواعيد الله الثمينة، بدلا من التفكير فى التضحيات التى تتطلبها. وعندما يجد المرء ماء الحياة فى المسيح، فإنه يرتضى بأن يترك جرته كما فعلت المرأة السامرية، وعندما تمتلئ قلوب الشبان من جمال وبركة خدمة المسيح، لا يجدون صعوبة فى ترك شباكهم، وسفنهم، وأصدقائهم، وكل شئ، ليتبعوه. «لما سر الله أن يعلن ابنه فى .. للوقت لم استشر لحما ودما» (غل ١:١٥ و١٦).

تعود القديس فرنسيس، الذى من سال، أن يقول «عندما تشب النيران فى البيت، لا يتردد أهله فى طرح كل شئ من النوافذ، وعندما يلتهب القلب من محبة الله الحقيقية، يحسب المرء كل شئ نفاية».

(٤) وهذه الدعوة تعلمنا معنى الاختيار :

فى كل مكان، تلاحظ بعض الكائنات، أو بعض الأشياء، تمتاز عن نظائرها فى بعض الصفات امتيازا ظاهرا، وهذا ما نلاحظه بصفة خاصة، فى الحياة الروحية. ونحن، لأول وهلة، نميل إلى الاعتراض على هذا التمييز الظاهر، ولكننا بعد التأمل الدقيق، ندرك أن القصد من تلك المواهب الممتازة، التى تودع فى الأشخاص القلائل، هو لتمكينهم من مساعدة الباقين وبركتهم.أصغ إلى ما قاله له الله «وأباركك، وتكون بركة» (تك ١٢:٢).

ظن أحد كبار المفكرين، أن نهايته قد اقتربت، ولما لم يكن قد قدم اختراعاته الكثيرة إلى العالم، اختار واحدا من أفضل تلاميذه، وسلمه هذه الاختراعات، لكى يقدمها للعالم، وإذ كان يسلمه إياها، كان يراعى منتهى الحرص والدقة، لكى يفهم كل تفاصيلها ودقائقها. لم يكن ذلك لمجرد منفعة تلميذه، بل لفائدة العالم، لكى يستطيع ذلك التلميذ بعدئذ، أن يسلمها كاملة للعالم، ولا شك فى أنه، إذ يتبارك التلميذ الصغير، ينقل البركة إلى غيره.

ألا يعطينا كل ذلك، فكرة عن قصد الله، فى انتخاب إبراهيم، وفى انتخاب شعب إسرائيل، فى شخصه. فإنه لم ينتخبهم لمجرد الرغبة فى خلاصهم هم شخصيا – ولو أن ذلك كان أيضا من ضمن مقاصده – بل لكى يسلموا تعاليمه المقدسة، وأقواله الحية، التى اؤتمنوا عليها، لأنه لم يكن ممكنا للعالم، أن يقدر هذه الجواهر الثمينة، لو أنها سلمت إليه مباشرة، فإنك لو قدمت وليمة فاخرة لطفل جائع، لعبث بها. وأقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد، أنه لم تكن هنالك لغة تستطيع أن تعبر عن أفكار الله، كما أنه كان يجب إعداد عقول البشر، لإدراك هذه التعاليم، لهذا؛ كان ضروريا أن يتدرب الشعب فى فهم هذه التعاليم،حتى

يستطيعوا أن يعلموها للبشرية، بعد أن يكونوا قد أدركوها تمام الإدراك.

ألا يقصد بالاختيار، خدمتنا للبشرية، أكثر مما يقصد به خلاصنا الشخصى؟ إنه يبعث نصيبا من الراحة، والسلام، والفرح، أقل من النصيب الذى يبعثه من الآلام، والمرارة، ووجع القلب. فلا داعى لحسد مختارى الله، لأنهم هم المنبوذون، وحاملو الصليب، والشهداء، بين البشر. إنهم يقضون كل الوقت، فى تعلم أعمق دروس الله، منكرين لذواتهم، ودون أن يعيشوا حياة البشر العادية، لكنهم بعد ذلك، يعودون إليهم باكتشافات، تفوق كل إدراك بشرى، وبركات لا تقدر قيمتها.

(٥) وهذه الدعوة تكشف لنا عن سر حياة إبراهيم :

لقد كان سر حياته، يتضمن فى هذه الكلمة، «العزلة»، فقد كان من بداية الحياة إلى نهايتها، معتزلا - معتزلا عن أهله وعشيرته، وبيت أبيه، معتزلا عن لوط، معتزلا عن شعب الأرض التى سكنها، معتزلا عن أفكاره، وآرائه الشخصية، فيما يختص بإتمام مواعيد الله، معتزلا عن سائر البشر، بآلامه، وأحزانه الخاصة، التى زادته اقترابا من إلهه، بدرجة لم يصل إليها أى شخص من البشر سواه، معتزلا، لكى يتصل بأفكار وخطط، لم يكن ممكنا أن يحجبها الله عنه.

(٦) على أن العزلة كانت عزلة الإيمان :

هنالك نوع من العزلة يعرفه البشر، حيث ينتحى المرء، ليضمن هدوءا، لا يعطله عن العبادة، ويقضى الساعات الطويلة، فى السهر، والصوم، والصلاة؛ راجيا أن يجد الخلاص، مكافأة له على تقشفه، وإنكاره لذاته، ولكن؛ ليست هذه هى العزلة التى دعى لها إبراهيم، أو التى ندعى إليها نحن. فإبراهيم لم يعتزل، لأنه رغب فى الخلاص، بل لأنه نال الخلاص، ورغب فى زيادة الاقتراب من الله. إنه لم يعتزل لكى يطالب الله بشئ يستحقه، بل لأنه قد رأى الرب، وتاقت نفسه فى زيادة الالتصاق به، لعدم اكتفائه بما قد حصل. وهكذا؛ رأيناه يتدرج فى الخروج من العالم المنظور، إلى غير المنظور، ومن الأمور الوقتية إلى الأبدية.

ليت تلك العزلة، تكون من نصيبنا، ليتنا نصغى إلى دعوة الله، بما تقترن به من مواعيد إلهية. وإذ قد نسمع عن تلك الأرض الجديدة، وتلك المدينة المجيدة، وتلك السعادة الأكيدة، التى تنتظرنا، ليتنا نترك تلك الأمور التافهة، بل الضارة، التى قد عطلتنا فى أيام حياتنا الماضية، وأفقدت سلامنا، وأضعفت قوانا. ليتنا نفك خيمتنا، إطاعة لدعوة الله، ولو تطلبت منا الخروج، إلى حيث لا نعلم.

الفصل الثالث

أطـــــاع

«بالإيمان لما دعى إبراهيم أطاع أن يـخرج إلى المكان الذى كـان عتيدا أن يأخذه ميراثا»

(عب ١١:٨)

إن بركة الرب فى القلب، وفى البيت، وفى كل الحياة. وإن إتمام كل مواعيد الله، وإن الفرص العظيمة لعمل الخير - هذه كلها يؤدى إليها ذلك الطريق الضيق المحفوف بالأشواك - طريق الطاعة لكلمة الله، وإرادة الله. فلو كان إبراهيم، قد رفض نهائيا إطاعة ذلك الصوت الذى ناداه للخروج إلى حياة العزلة والغربة، لكان قد رقد فى ظلام أحد قبور مدينة أور، دون أن يعلم عنه التاريخ شيئا، شأن الكثيرين من أترابه السابقين واللاحقين؛ ولكن، شكرا لله، لأن إبراهيم «أطاع»، وعلى هذا الأساس وضع حجر الزاوية لحياته النبيلة.

ربما يطلع على هذه الكلمات، بعض ممن قد فشلوا فى الحياة، ولم يستطيعوا أن يتمموا ما كانوا يصبون إليه، أو يحققوا أحلام صباهم. ألا يمكن أن يكون السبب راجعا، إلى أنك فى حياتك الماضية، قد أتتك الدعوة مرة لتقديم إحدى التضحيات، ولكن، لم يكن نصيبها منك إلا عدم الطاعة، وهذه كانت علة الداء. كانت الدودة فى جذع اليقطينة، وكانت السوسة الصغيرة فى الخشب، وكانت الخطوة الخاطئة، التى جعلت قدمك تنحرف عن الطريق الملكية إلى عطفة مقفلة؟

ألا يحسن أن تراجع نفسك، لتتأكد إن كان هذا هو السبب، فتسرع لتلبية تلك الدعوة، ولو متأخرا؟ ويجب أن لا تظن أن الفرصة قد مضت لإصلاح الخطأ، ولا تتوهم بأن القدير يرفض طاعتك الآن بسبب التأخير. كلا، فإن «الرب رحيم ورؤوف، طويل الروح وكثير الرحمة» (مز ١٠٣:٨)، ولا يكن تأخيرك الطويل، حجة لتأخير أطول، بل بالحرى، سببا فى إجراء سريع «لماذا تتوانى» (أع ٢٢:١٦).

يصور لنا الكتاب المقدس، إبراهيم بأنه فى بداية الأمر، أطاع الدعوة التى أتته طاعة جزئية، وبعد ذلك أغفلها كلية سنوات طويلة. على أن الباب ظل مفتوحا فى وجهه للدخول، وتلك اليد الرحيمة، ظلت تشير إليه بالقبول، حتى أجاب الدعوة، وقام من فوره وسار فى الصحراء؛ ولنا فى هذا الفشل الجزئى، دروس ثمينة لأنفسنا.

(١) كانت طاعة إبراهيم فى بداية الأمر طاعة جزئية :

فقد أخذ أباه تارح معه. صحيح أنه قيل: «وأخذ تارح أخذ أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراى كنته امرأة أبرام ابنه. فخرجوا معا من أور الكلدانيين» (تك١١:٣١). نحن لا ندرى، كيف ارتضى تارح، أن يترك وطنه العزيز، ومقابر موتاه، حيث رقد هاران ابنه. هل كان ذلك لأنه لم يطق البعد عن ابنه إبراهيم، أو لأنه لم يقنع بما وجده من نصيب، فى أرض إقامته، أو لأنه انتهز تلك الفرصة ليطلق أوثانه، ويبدأ حياة جديدة فى وسط جديد؟ هذا ما لا نعلمه. على أنه واضح على الأقل، أنه لم يكن جادا فى السير، ولا كانت البواعث التى دفعته للمسير صافية. ولهذا، كانت مرافقته لإبراهيم،سببا فى تعطيله فى مسيره، كما عطلت طاعته بعض السنوات، مع أنها كانت قد بدأت بداية حسنة.

إن النهار الذى يبدأ صحوا، قد لا يستمر كذلك، بل يرتفع الضباب المتصاعد من الأرض، ويعتم الجو. ولكن؛ سرعان ما تقوى الشمس، فتبدد الغيوم، ويصفو الجو ثانية. هكذا كان الحال مع إبراهيم.

سار الركب بتؤدة فيما بين النهرين، حتى وصل حاران، حيث حط فيها رحاله، واستقر فيها إلى أن مات تارح. هل مات لأنه كان قد شاخ وعجز عن التقدم فى المسير، أو لأنه أحب حاران كثيرا، فلم يستطع أن يغادرها، أو لأنه قد سقط قلبه، عندما تطلع إلى وعورة الطريق التى كان عليهم أن يقطعوها لإكمال رحلتهم؟ على أى حال، إنه لم يرد أن يكمل المسير، وقد أعاق ابنه نحو خمسة عشر عاما. فكانت تلك المدة، فترة ركود فى طاعة إبراهيم، فلم يتلق فيها أمرا جديدا من إلهه، أو مواعيد جديدة، ولم تحصل مناجاة بين الله وبين عبده الأمين.

خليق بنا نحرص كل الحرص، فى انتقاء الأشخاص الذين يرافقوننا فى غربتنا. فإننا قد نبدأ بداية حسنة فى الخروج من أور، ولكننا إن أخذنا تارح معنا، فلا نتقدم إلى الأمام. احرص كل الحرص، أيها الشاب المسافر إلى الأبدية، فى انتقاء شريكة حياتك. واحرص كل

الحرص، أيها التاجر أو الصانع، فى انتقاء شريكك، لئلا تختار تارح. ولنحذر جميعا كل الحذر، من روح المهادنة التى تجربنا بالبقاء، حيث يريدنا الأحباء أن نبقى. ألم نسمعهم مرارا يهمسون فى آذاننا قائلين: «لماذا التطرف؟ نحن مستعدون للمسير معكم إلى حاران فقط. لماذا تفكرون فى المسير إلى أبعد من ذلك، كجهلاء، وأنتم لا تعلمون إلى أين تسيرون». هذه تجربة أشد من المقاومة المكشوفة. إن عواطفنا تستجيب إلى عوامل الضعف، رغم المنطق السليم. ونحن؛ إذ ننخدع بإغراءات العالم التى تحاول أن تعطل مسيرنا، قد نعتزم بأن لا نخطو خطوة واحدة إلى الأمام نحو هدفنا البعيد.

«فخرج حينئذ من أرض الكلدانيين، وسكن فى حاران، ومن هناك، نقله بعد ما مات أبوه، إلى الأرض التى أنتم الآن ساكنون فيها» (أع ٧:٤). كان الموت سببا فى فك عقاله. كان لابد أن يموت تارح، لكى يستأنف إبراهيم مسيره فى الطريق التى تركها قديما. وهنا؛ قد نجد حلا لبعض ما غمض علينا، من أعمال الله معنا، التى أربكتنا، وحيرت عقولنا كثيرا فى الماضى، فنفهم لماذا خابت آمالنا، أو لماذا لحقت بنا الخسائر، أو لماذا تمرد علينا البنون. ربما كانت كل تلك الأمور، سببا فى تعطيل تقدمنا الحقيقى، فاضطر الله – رحمة بنا – أن يمسك السكين بيمينه، ويفك عقالنا، ويطلق أسرنا، لنتمتع بالحرية. إن محبته العظمى لنا، هى التى تكلفه بأن يتألم، إذ يوقع علينا الآلام. وهكذا نرى الموت يفتح باب الحياة. ونحن عندما نجوز القبر، نخرج إلى العالم السعيد، عالم الرجاء والمواعيد التى تنتظرنا.

مـــجــــدا لـلـه، لإلـه الأنـام
فـــإن المعـــرفـــة تدخل عن طريق الآلام
والحـــيـــاة تتكمل عن طريق الموت الزؤام

(٢) وطاعة إبراهيم صارت ممكنة بسبب إيمانه :

«فذهب (فارتحل) إبراهيم كما قال له الرب. فأخذ ساراى امرأته ولوطا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التى اقتنيا، والنفوس التى امتلكا فى حاران، وخرجوا» (تك ١٢:٤ و٥). لم يكن ذلك بالأمر اليسير، فقد كان مؤلما لنفسه أن يترك أهله الذين التفوا حوله، لأنه يظهر أن ناحور كان قد سبق، فتبع أباه وأخاه إلى حاران؛ إذ أننا نجد أن ذريته كانت لا تزال موجودة بها فيما بعد (قارن تك ١١:٢٩، ٢٢:٢٠-٢٣، ٢٤:١٠، ٢٧:٤٣). والمراعى كانت متسعة، ولم تكن قد ضاقت بهم. وفوق ذلك، فإن الأشخاص الذين رافقوه، لم يكونوا يعلمون

وجهة نظره. ولعل ناحور حمل عليه حملة شعواء، إذ دار بينهما مثل هذا الحوار:

- أى شئ آخر تبتغيه ولا نجده هنا يا أخى؟

- لا أبغى إلا أن أتمم إرادة الله مهما أدت بى إلى أى مكان.

- تأمل قليلا فيما ينتظرك من أخطار. فإنك لا تستطيع عبور الصحراء أو دخول بلاد جديدة، دون أن تستجلب سخط البعض، وغيرة الآخرين، أو تعرض نفسك لأخطار اللصوص.

- ولكن الذى أمرنى بالخروج هو الكفيل بأن يحفظنى من كل الأخطار.

- أريد أن أعرف منك فقط وجهة النظر فى المسير، وأى مكان تفكر فى أن تستقر فيه.

- هذا سؤال لا أستطيع الإجابة عليه، وصدقنى أنه لا يزيد علمى عن علمك بالمكان الذى أقصده، ولكننى واثق أننى إن سرت يوما فيوما، سينتهى بى الرحيل إلى الاستقرار فى البلاد التى اختارها الرب لى.

يقينا، أن هذا هو روح المناقشات الكثيرة، التى لابد أن تكون قد جرت فى ليلة الرحيل. وأمام التعنيف الشديد، والتوبيخات القاسية التى وجهت لإبراهيم، لا نظنه إلا أنه كان يجيب بهدوء «الرب قد تكلم، الرب قد وعد، ليس لدى أقل شك فى أن الله سيجزينى خيرا أكثر مما وعد».

ولعله عندما خلا إلى نفسه فى الليل، قد خارت قواه، وساورته عوامل اليأس« بين آونة وأخرى. ولكن ذلك الوعد الأكيد، عاد إلى ذاكرته، فانتعشت طاعته بالإيمان.« إبراهيم لما دعى أطاع أن يخرج إلى المكان الذى كان عتيدا أن يأخذه ميراثا» (عب ١١:٨). لم يكن يعلم إلى أين هو ذاهب، ولكن، كان يكفيه أن يعلم أنه سائر مع الله. لم يتطلع إلى الوعد نفسه، أكثر مما تطلع إلى صاحب الوعد، ولم يفكر فى الصعوبات التى تنتظره، بل فى الله الأزلى الأبدى الحكيم وحده، الذى رسم له الطريق التى يسلكها، والذى لا شك فى أنه يعلن ذاته له.

وهكذا، بدأ الركب فى المسير. سارت الجمال فى الطليعة، محملة بأحمالها الثقيلة، ووراءها سائقوها، ثم تبعتها قطعان المواشى، الوفيرة العدد، وقد اختلطت أصواتها بصراخ قائديها. وإذ بدأت تتحرك، اختلط صراخ النسوة، بتحيات الرجال المودعين. أما الركب نفسه، فقد دبت عوامل الخوف والفزع فى قلوب جميع أفراده، ولعل سارة أيضا، قد خارت قواه

ووهنت عزيمتها، أما إبراهيم؛ فلم يتردد ولم يضعف«ولا بعدم إيمان ارتاب فى وعد الله»، لأنه كان «عالما بمن آمن وموقنا أنه قادر أن يحفظ وديعته إلى ذلك اليوم»(٢ تى ١٢:١) ولأنه «تيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضا» (رو ٤: ٢٠ و٢١).

وفوق ذلك، فإن الوحى يقرر لنا، أنه كان يرى فى الأفق، شبح تلك المدينة التى لها الأساسات، وذلك الوطن السماوى الأفضل (عب ١١: ١٠ و١٦). وهذه الرؤيا الجميلة، هى التى قطعت تعلقه، بكل ما كان ممكنا أن يغريه ويربطه لولاها.

إيه أيها الإيمان المجيد! هذا هو عملك، وهذه هى إمكانياتك. أيها الإيمان الذى يرتضى بأن يبحر بالسفينة، وهو لا يعلم إلى أين، لثقته الكاملة فى محبة، وحكمة الرب القدير، الذى يرتضى بأن يقوم ويترك كل شئ، ويتبع المسيح، لثقته بأن أفخر ما فى الأرض لا يوازى فتيلا، بجانب أقل ما فى السماء.

(٣) وأخيرا نرى طاعة إبراهيم تصبح كاملة :

«وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى أرض كنعان» (تك ١٢:٥)، تركوا حاران، وظلوا سائرين فى الصحراء أياما طويلة، لايجدون حولهم إلا الصحراء من كل ناحية، ولا يعثرون إلا على الحشائش الدنيئة قوتا للقطعان.

لم يتوقف الركب فى مسيره، إلا فى مكان واحد، هو الواحة التى تقع عليها مدينة دمشق الحالية، هنا؛ استراحت القوافل من عناء السفر، ولا زالت هنالك قرية بجوار دمشق، يطلق عليها اسم ذلك البطل العظيم، ويخبرنا يوسيفوس، أنه كانت فى أيامه ضاحية لدمشق تسمى «مسكن إبراهيم»، ونحن نستطيع أن نجد آثارا، لإقامته القصيرة فى ذلك المكان، فى اسم عبده الأمين «اليعازر الدمشقى» الذى ستقرأ عنه فيما بعد.

على أن إبراهيم لم يقبل البقاء فيه. لقد توفرت فيه الراحة التامة، مع جمال المنظر، ولكنه لم يشعر أن هذا هو المكان الذى اختاره له الله. لهذا، لم يلبث طويلا، حتى حل رحاله، وسار إلى الجنوب، إلى كنعان، حتى يدركها بأوفر سرعة.

يجب أن يكون قصدنا الوحيد فى الحياة، اتباع إرادة الله، والسير فى الطريق التى رسمها لنا. كم من واحة - كواحة دمشق - توفرت فيها الراحة، وجمال المنظر، أغرتنا للبقاء

فيها وعدم متابعة المسير. كم من شخص قال لنا بحسن نية – ولكنه مخطئ فى قوله – كما قال بطرس للمسيح «حاشاك يارب، لا يكون لك هذا»، كم من ميول شريرة، قامت داخل النفس، ضد الإرادة! على كل شخص يعتقد فى نفسه أنه متغرب نحو الأبدية، أن لا يطيع أى شئ من هذه المغريات، مهما كانت طفيفة، وأن يكون أمينا لكل أوامر الله، ووصاياه، بحذافيرها. فعندما تخرج للذهاب إلى أرض كنعان، لا تهدأ حتى تصل إلى أرض كنعان. وما لم تكن طاعتك كاملة، فكل مساعيك ذاهبة أدراج الرياح. والمسيح، إن لم يتملك على كل القلب، بل على كل الحياة، فليس له فيها مكان، ووصاياه؛ يجب أن تتم بألفها ويائها؛ وهى ليست ثقيلة.

يا لها من شهادة مجيدة، نطق بها السيد عندما قال «لم يتركنى الآب وحدى لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه » (يو ٨:٢٩). ليت كلامنا يستطيع أن ينطق بهذه الشهادة. فلنقدم للمسيح من هذه اللحظة، الطاعة الكاملة، واثقين أنه حتى لو قادنا إلى وادى ظل الموت، فهو لن يخطئ قط، بل يفعل ذلك لضرورة قصوى سيبينها لنا فيما بعد.

ليس لنا أن نتساءل
ليس لنا أن نتحاجج
بل لنا أن نتمم ما أمرنا به ثم نموت

الفصل الرابع

أول الآباء المتغربين (تك ١٢ : ٣-٩)

«فذهب (ارتحل أبرام» (ع٤)
«فأخذ أبرام ساراى امرأته وخرج» (ع ٥)
«واجتاز أبرام» (ع ٦)
«ثم نقل (أبرام) من هنالك» (ع ٩)
«فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتى» (عب ١١:٨)

هنالك فى كل تاريخ البشرية، جماعة من البشر، متعاقبة على التوالى، «أقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١:١٣). قد تجد قوما من هذه الجماعة، فى البرارى والقفار، ساكنين فى المغاير وشقوق الأرض، إما لأنهم قد طوردوا من أهل العالم، أو لأنهم قد زهدوا فى حطام الدنيا. وقد تجد أقواما فى العالم، مختلطين بعامة الناس، ولكنهم يتميزون ببساطة ملبسهم، وأحقائهم المنطقة، وتقشفهم فى المأكل والمشرب، وزهدهم فى المال والثروة، وترفعهم عن كل مديح وثناء، وبعد نظرهم - كل هذه الصفات، تدل على أنهم قد ألقوا رجاءهم، لا على الأمور المنظورة؛ بل على غير المنظورة، التى لا يراها إلا الإيمان.

هؤلاء هم المتغربون. هؤلاء هم الذين لا تؤثر فيهم التجارب، أو الضيقات، ولا تزعزعهم، لأنها لن تستطيع أن تمس كنزهم الحقيقى، أو تؤثر على مصالحهم الحقيقية. هؤلاء هم الذين لا تستطيع أن تغريهم أمجاد العالم، ومسراته، لأنهم أبناء مملكة أسمى، وأرفع، وأعضاء فى هيئة أرقى، وأنبل، وسكان مدينة أسمى من أية مدينة أشرقت عليها الشمس.

إن المتغرب لا يبغى شيئا، أكثر من أن يعبر الطريق التى يسلكها، ليصل إلى وطنه سريعا، متمما واجباته على أتم وجه، متذكرا دواما، أنه ليست له هنا مدينة باقية، بل ينتظر وطنا أفضل.

عندما كتب الحالم عن المتغربين ثلاث علامات عن مظهرهم.

(أولا) كانت ملابسهم تختلف عن ملابس كل التجار فى ذلك السوق، لهذا تطلع إليهم كل من فى السوق باهتمام، فقال البعض، إنهم حمقى، وقال آخرون، إنهم مجانين، وقال غيرهم إنهم غرباء.

(ثانيا) قليلون هم الذين فهموا كلامهم، وطبيعى أنهم كانوا يتكلمون بلغة كنعان، لكن حفظة السوق كانوا من أهل هذا العالم، لهذا، كان يبدو فى كل السوق أنهم برابرة (يتكلمون بلغة غريبة).

(ثالثا) لكن الذى لم يعجب به التجار قط، هو أن هؤلاء المتغربين، استخفوا جدا بكل بضاعتهم، ولم يبالوا بها. وإذا ناداهم التجار، وضعوا أصابعهم فى آذانهم، وصرخوا قائلين «حول عينى عن النظر إلى الباطل» (مز ١١٩:٣٧).وتطلعوا إلى فوق، مشيرين بذلك إلى أن تجارتهم وبضاعتهم هى فى السماء.

واضح أن هذا الصنف من الناس، كان معروفا عندما كتب الحالم روايته، بل قبل ذلك بوقت طويل؛ لأن الرسول بطرس كتب إلى «المتغربين فى الشتات» (١ بط ١:١)، وذكرهم بأنهم «كغرباء ونزلاء يجب أن يمتنعوا عن الشهوات الجسدية» (ص ٢:١١)، وقبل ذلك بوقت طويل، اعترف داود باسم شعبه – وقد كانت الأمة اليهودية فى أوج عزها – قائلا «نحن غرباء ونزلاء مثل كل آبائنا» (١ أى ٢٩:١٥)، كما اعترف بأن أيامهم على الأرض كظل لا يلبث طويلا حتى يزول (مز ١٠٢:١١).

ارتحل إبراهيم نحو الجنوب، وهكذا، استمر مرتحلا فى أرض الموعد، حتى وصل إلى مكان شكيم فى قلب الأرض، المكان الذى استراح فيه مخلصنا فيما بعد بجوار البئر. فى هذا المكان، لم تكن هنالك مدن بنيت، لأن معظم الأرض كانت قاحلة جرداء، لم يكن فيه سوى بلوطة تأصلت تحت ظلالها العبادة الوثنية فيما بعد. (انظر قض ٩:٢٧-٤٦، ١ مل ١٢:٢٥).

تحت تلك البلوطة، فى سهل شكيم، حط الركب رحاله، واستقر فيه أخيرا، بعد تلك الرحلة الطويلة «وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض. فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له» (تك ١٢:٧).

على أنه لم يستقر هناك بصفة دائمة، بل انتقل نحو الجنوب قليلا، إلى مكان بين بيت إيل وعاى.

وهنا، نرى ثلاثة أمور تسترعى اهتمامنا: الخيمة، والمذبح، والوعد.

(١) الخيمة :

كان عمر إبراهيم وقت أن ترك حاران ٧٥ عاما، ولما مات كان عمره ١٧٥ سنة. وقد قضى كل المائة عام الأخيرة، متنقلا هنا وهنالك، فى خيمة بسيطة ، ربما من وبر الإبل، كخيام العرب الرحل، الذين نراهم اليوم. وقد كانت تلك الخيمة، أحسن رمز يشير إلى وجهة نظره فى الحياة.

لقد عاش بمعزل عن سكان الأرض، صحيح أنه عاش بينهم، ولكنه لم يعش كواحد منهم. فلم يتعود ارتياد مجالسهم، كما اتخذ كل الحيطة، لعدم التزاوج من نسلهم، إذ نراه يبعث رسولا لوطنه، لكى يبحث عن امرأة لابنه، ولم يقبل من الكنعانيين «لا خيطا ولا شراك نعل» (تك ١٤:٢٣)، بل أصر على دفع الثمن كاملا، عن كل ما يأخذ منهم. ثم إنه لم يستقر فى أى مكان بصفة دائمة، بل نراه ينتقل من مكان إلى مكان، وإذ نراه متنقلا بخيمته، التى بسهولة يشدها، وبسهولة يطويها، نستطيع أن ندرك أن الخيمة كانت رمزا لحياته – حياة الغربة.

ولعل التجربة قد داهمته مرارا للرجوع إلى حاران، حيث يستطيع أن يجد مقراً ثابتا، وأن يكون محاطا بأهله وعشيرته، خصوصا؛ وقد كانت لديهم فرص للرجوع (عب ١١:١٥). ولكنه بصفة قاطعة، فضل حياة الغربة فى كنعان، عن وطنه الثابت فى حاران، ولهذا السبب، استمر عائشا فى خيمة. من الخيمة، حمل على الأعناق فى مغارة المكفيلة بجوار سارة. ولماذا؟ نجد الجواب على هذا السؤال، فى ذلك الإصحاح الذى يذكر لنا أبطال الإيمان «بالإيمان تغرب (إبراهيم) ساكنا فى خيام لأنه كان ينتظر المدينة التى لها الأساسات» (عب ١١:٩). هذا حق، فحياة الخيمة، هى الحياة الطبيعية للذين يشعرون بأن وطنهم فى السماء.

إنها لضرورة قصوى، أن يعيش أولاد الله حياة العزلة، شهادة للعالم. لأنه؛ كيف يستطيع الناس أن يصدقوا كلامنا، عندما نتحدث إليهم عن رجائنا، إن كان لا يفطمنا عن الإفراط فى الاهتمام بالأشياء التى حولنا؟ وإن كانوا يرون أننا لا نقل عنهم فى الانهماك فى الأمور العالمية الزائلة، والتلذذ بالمسرات والشهوات الجسدية السافلة، فهلا يعطيهم ذلك فرصة التساؤل، عما إذا كان ادعاؤنا التدين صحيحا؛ أو عما إذا كانت هنالك حقيقة، مدينة

باقية فى العالم الآتى؟

نقول مع الألم الشديد؛ إن معظم الذين يدعون بأنهم مسيحيون، ينهمكون فى الجسد، وإرضاء شهواتهم، والانغماس فى المسرات العالمية. وقد لا يجد المتأمل إلا فرقا ضئيلا، بل؛ قد لا يجد فرقا على الإطلاق، بين أبناء الملكوت، وبين أبناء هذا الجيل، فى بيوتهم وعائلاتهم، فى تربية أبنائهم، فى ملبسهم، فى طريقة تأدية أعمالهم اليومية. فإنهم يأكلون ويشربون، يشترون ويبيعون، يغرسون ويبنون، يزوجون ويتزوجون، ولو كان الطوفان قادما ليكتسح الجميع.

وكيف السبيل لتغيير هذه الحال؟ هل نشهر بالتصرفات الحالية؟ هل نهاجم بكلمات قاسية، انغماس البشر فى مشاغل العالم؟ هذا لن يأتى بعلاج دائم، بل الأحرى، لنصور تلك المدينة التى رآها يوحنا، بألوان زاهية، لنكشف عن أمجاد ذلك العالم الآخر، الذى نحن مرتبطون به، لنعلم بأننا، حتى ونحن فى هذا العالم، نستطيع أن نعيش كأننا فى السماء، بل، نستطيع أن نستمع إلى الموسيقى الملائكية، وذلك، إن كنا نعيش حياة إنكار الذات، والتضحية، والإيمان. وعندئذ؛ تستطيع حياتنا أن تؤثر فى قلوب الآخرين، وتخلق فيها روح العزلة، أكثر مما تؤثر فيها أبلغ العظات، وأكثرها فصاحة.

(٢) المذبح :

حيثما شد إبراهيم خيمته، أقام مذبحا، كذلك نرى أن الآباء المتغربين، قد أقاموا مذابح العبادة، قبل إقامة بيوتهم. وعندما كان إبراهيم يحل خيمته، كان يترك المذبح مكانه، دليلا على المكان الذى استقر فيه رجل الله.

إنه لدليل قوى على غيرتنا الدينية، لو أننا أقمنا مذبحا فى كل بيت نقضى فيه ليلة، وفى كل جماعة نعيش بينها، لنقدم للآخرين، مثالا للصلاة الانفرادية، والصلاة العائلية. عندما يأتى الكنعانيون أنفسهم، ويحترمون المكان الذى جئونا فيه، ويدعون باسم الرب، هم وذريتهم.

لنذكر أيضا، بأن المذبح يحمل معنى الذبيحة، التضحية، إنكار الذات، التسليم الكامل. بهذا المعنى يجب أن يتمشى، المذبح والخيمة، جنبا إلى جنب. فنحن لا نستطيع أن نعيش حياة الغربة، دون تحمل بعض من المتاعب والآلام. ولا شك فى أن حياة كهذه، لا يمكن إلا أن

تنبعث منها أعمق عبادة، ولا يمكن إلا أن تكون حياة الصلة الدائمة، والشركة السعيدة.

إن كانت صلواتك قد تعطلت، فقد يكون لأنك لم تعش فى الخيمة، الوقت الكافى، لأن حياة الخيمة، حياة العزلة، لابد أن تبنى مذبح التضحية، والشركة السماوية. اعترف بأنك إنما هنا غريب، ونزيل على الأرض، وعندئذ؛ تجده أمرا طبيعيا، بل أمرا مبهجا، أن تدعو باسم الرب. لم نقرأ عن إبراهيم، أنه بنى مذبحا عندما كان مقيما فى حاران، لأنه لم يكن ممكنا، أن تكون هنالك شركة بينه وبين إلهه، طالما كان يعيش حياة العصيان، وعدم الطاعة، أو طالما كان متواريا، فى حياة مستقرة. ولكن، عندما عاش حياة الغربة، انبعثت من هذه الحياة، أشواق ورغبات مقدسة لا ترضى إلا بالمذابح التى لازمته فى ارتحاله من مكان لآخر.

على أن مذبح إبراهيم، لم يكن قاصرا على شخصه فقط، ففى أوقات معينة، كانت كل الجماعة تجتمع عند المذبح للعبادة، كانت تلك الجماعة، التى تحج إلى المذبح، جماعة جامعة، فكان فيها العبد المشترى من مصر، والمشترى من أور، كما كان فيها وليد المحلة، كان فيها الأبناء مع الآباء، كان فيها الكبير مع الصغير - هؤلاء جميعا كانوا يقفون حول المذبح، بخوف ورعدة، إذ كان يقدم إبراهيم عنهم الذبيحة والعبادة. قال الله عن إبراهيم «لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده» (تك ١٨:١٩).

وهكذا، رأينا ذلك الذى فيه، كان يجب أن تتبارك كل قبائل الأرض، يمارس العبادة العائلية، وهو بذلك يقدم مثالا حيا، للكثيرين من المسيحيين، الذين قد تهدمت فى بيوتهم مذابح العبادة. ألا ليت المسيحيين يقتدون بذلك البطل العظيم، فيرممون مذبح الصلاة العائلية، الذى يجتمعون يوميا حوله، هم وأولادهم وأتباعهم، لإسعاد الحياة العائلية، والسمو بها. أمام أصوات التسبيح، والأناشيد، أمام تأثير وقوة الصلاة، يهرب الكثير من الشرور.

(٣) الوعد :

«لنسلك أعطى هذه الأرض» (تك ١٢:٧). حالما أصبحت طاعة إبراهيم كاملة، رن صوت ذلك الوعد الجديد فى أذنيه. وهكذا الحال دواما فى كل العصور، فإنك إن عصيت أوامر الله، أصبحت طرقك مظلمة، لا تجد فيها بريق نجم واحد، ولكنك إن عشت أمينا لله، مطيعا لوصاياه، تتابعت المواعيد من السماء، منيرة لك الطريق - كل وعد، أغنى وأخصب من سابقه. كان وعد الله لإبراهيم قبل الآن، أن يريه تلك الأرض، أما وعده الآن، فهو أن يعطيه

إياها، إن حياة العزلة والغربة تنال المواعيد دواما.

كانت كل العوامل الطبيعية، لا تساعد على تحقيق ذلك الوعد. فقد «كان الكنعانيون حينئذ فى الأرض» (ع ٦). كان هنالك القواد العظماء، مثل ممرا أو أشكول، والمدن الحصينة، مثل سدوم، وساليم، وحبرون، وكل عناصر المدينة المزدهرة. وفضلا عن ذلك؛ فإن الكنعانيين، لم يكونوا قبائل مرتحلة، بل كانوا قد تأصلوا وتأسسوا فى الأرض، بنوا المدن وحرثوا الأرض، سكوا العملة، وعرفوا القراءة والكتابة، أجروا الحق والعدل فى القضاء، وفى كل يوم كانت تزداد قوتهم وعظمتهم. لذلك، لم يكن معقولا أن يستأصلهم من الأرض، نسل راع بسيط، ليس له أولاد.

ولكن الله أعطى الوعد، فلابد أن يتم. «مؤامرة (مشورة) الرب إلى الأبد تثبت، أفكار قلبه إلى دور فدور» (مز ٣٣:١١).

لا أستطيع أن أعرف الوعد الذى تعلقت به نفسك أيها العزيز.. ولكننى أعرف شيئا واحدا، هو أنك إن أتممت كل مطاليبه، وعشت أمينا لكل شروطه، فلابد أن يتم حرفيا. لا تنظر إلى الصعوبات التى تعترض السبيل، بل، إلى قدرة الذى وعد، وأمانته. «السماء والأرض تزولان ولكن كلامه لا يزول»، لا يزول منه حرف واحد، أو نقطة واحدة، (مر ١٣:٣١، مت ٥:١٨، لو ١٦:١٧).

ثم اذكر أن هذه المواعيد، تضئ حياتك، الواحد تلو الآخر، كالفنار الذى يضئ فى الليل، كى لا ترتطم السفينة بالصخور، حتى تنبلج أشعة الشمس المشرقة، فتصل السفينة إلى المرفأ الأمين.

الفصل الخامس

إبراهيم فى مصر

«وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك. لأن الجوع فى الأرض كان شديدا»

(تك ١٢ : ١٠)

إن طريق المتغرب المعتزل لن يمكن أن يكون هينا. فإنه ينبغى أن يكون مستعدا للوقوف وحده، وللخروج خارج المحلة، وللتنحى عن الكثير من الوسائط التى يستند إليها الآخرون. لذلك، فإن هذه الحياة ممكنة، بالإيمان فقط. فعندما يكون الإيمان قويا، نجرؤ بأن نفك السلاسل التى ربطتنا بالشاطئ إلى العمق، متكلين على قوة وكلمة القدير، الذى صدر إلينا منه الأمر. ولكن، عندما يكون الإيمان ضعيفا، لا نجرؤ على اتخاذ تلك الخطوة، بل نترك الطريق السلطانية، ونسير مع أهل العالم، الذين ينالون نصيبهم فى هذه الحياة فقط، ويقتنعون به وحده. وأنى لنا أن نصف رحمة الله، الذى يتأنى علينا بمحبته، فى مثل هذه الظروف، منتظرا أن يمسك بنا، حتى يرفعنا ويعيدنا إلى الحياة القديمة، حياة الأبطال، والعظماء.

(١) «وحدث جوع فى الأرض»:

جوع؟ جوع فى أرض الموعد؟! هذا ما حصل فى ذلك الحين، كما حصل مرارا فيما بعد. فقد امتنع المطر، الذى كان يتساقط عادة فى النصف الثانى من السنة، واحترقت المحاصيل من حرارة الشمس، قبل وقت الحصاد. وندر، أو انعدم، وجود العشب الذى ترعاه المواشى. ولو أن هذه المصيبة، حلت بأحد البلاد فى أيامنا الحاضرة، لاستطاع الناس بسهولة نقل احتياجاتهم من البلاد الأخرى. أما إبراهيم، فلم يكن ذلك فى مقدوره، فقد كان غريبا فى أرض غريبة، محاطا بشعوب، يتشككون فى أية حركة من حركاته، وقد ناصبوه العداء.وإذ كان مثقلا بمسئولية إعالة قطعان الغنم والمواشى الكثيرة، لم يكن أمرا هينا أن يواجه خطر هذه المجاعة الفجائية.

وهل كانت تلك المجاعة، دليلا على أنه قد أخطأ فى المجئ إلى كنعان؟ وشكرا لله، لأن الوعد الذى أعطى إليه أخيرا، حال دون دخول هذه الفكرة إلى ذهنه. ولعل هذا كان السبب الرئيسى لإعطائه ذلك الوعد، فى ذلك الحين. فالرب؛ لم يعطه الوعد، مكافأة له عن الماضى فحسب، بل إعدادا للمستقبل أيضا، لكى لا يجرب إنسان الله فوق ما يستطيع. إن مخلصنا يتطلع دواما إلى مستقبلنا، ومن بعيد، ينظر العدو وهو يجمع كل قواه لمهاجمتنا، أو ينظم خططه ومؤامراته، لإغوائنا، واصطياد نفوسنا. ثم إن قلبه لا يمكن أن يتركنا، بل هو دائم التفكر فينا، والاهتمام بنا، كما فعل مع بطرس، فى ساعة التجربة المظلمة، عندما صلى من أجله، لكى لا يفنى. إن تحل بنا التجربة، فطوبى لمن يمنطقون أحقاءهم بهذه الاستعدادات الإلهية، فيجوزون سالمين من تلك الظروف، التى كانت كافية بأن تسحقهم لولاها.

أليس مؤلما أن نرى من يدعون بأنهم مسيحيون، يتحدثون عن أعمال الله معهم، بلهجة التذمر والانتقاد؟ فإنهم إذ يتأملون فى أيامهم السابقة، يشكون ويبكون قائلين؛ إنها كانت أفضل مما هم فيه الآن، منذ دخلوا من الباب الضيق، ومنذ بدأوا يسلكون الطريق الكرب. منذ تلك اللحظة، لم يلقوا إلا المتاعب والضيقات. لم يروا من قبل، مجاعة فى أور، أو فى حاران، أما الآن، فإن المجاعة تكتسحهم، وهم فى أرض الموعد. لقد حلت بهم الضيقات الشديدة. التاجر، أصابته الخسائر الفادحة، وصاحب الأعمال، فشل فى أعماله ومشاريعه، والزارع لحقه البوار، وسوء المحصول. وكلهم يشكون من أن عبادة الله، جلبت عليهم اللعنة، بدل البركة.

ولكن، لنتذكر من الناحية الأخرى، أن هذه المصائب، كان يمكن أن تحل بأى حال. فكيف كان ممكنا للنفس أن تحتملها، لو لم تكن قد اتخذت الرب لها ملجأ؟ وفضلا عن ذلك، فإن الله أبانا، لا يسمح بأن يكون جزاء أولاده، محصورا فى أمور هذا العالم، ولكنه يمنحهم نعمه، وبركاته الروحية، كأفضل جزاء. فالطهارة، والحق، واللطف، والتواضع، والوداعة، لا توازيها كل كنوز الدنيا.

لو كان الرب قد وعد عبيده بسلسلة غير منقطعة من الرخاء، لرأينا العدد الوفير من المسيحيين المزيفين. ولكن، شكرا لله، لأنه لم يعطنا مثل هذا الوعد، ولو أنه مؤكد إن «التقوى لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة».

أيها القارئ العزيز! لا تتعجب إن صادفتك مجاعة فى حياتك؛ فإنه ليس ضروريا أن

تكون هذه المجاعة، علامة غضب الآب السماوى، ولكن، لعله قد سمح بها لامتحانك، أو لكى تزيدك تعمقا فى الشركة معه، كما تفعل العواصف بالشجرة، إذ تزيدها تأصلا فى الأرض.

(٢) «فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك»:

يا له من تاريخ مجيد، تعتز به مصر فى كل الدهور، تاريخ ملئ بالأسرار، والمدهشات، والحوادث، التى كان لها تأثير بالغ فى حياة البشرية. مصر؛ بلاد الأهرام، وأبى الهول، والأسر العريقة فى المجد، بلاد النيل السعيد. عندما نذكر فيضان نهر النيل العجيب السنوي، الذى يجعل واديه جنة خضراء، وسط رمال مترامية الأطراف، لا نعجب إن رأينا أن مصر، كانت دواما مصدر المؤونة للعالم.

ففى كل العصور، رأينا كل الممالك تأتى إلى مصر، لتشترى قمحا، كما فعل إخوة يوسف.. ولعلنا نذكر أن السفينة التى سافر عليها بولس إلى رومية، كانت سفينة إسكندرية تحمل قمحا إلى رومية.

وفى لغة الكتاب المقدس الاستعارية، تمثل مصر التحالف مع العالم، والاعتماد على الذراع البشرى «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة، ويستندون إلى الخيل، ويتوكلون على المركبات، لأنها كثيرة، وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جدا، ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب» (إش ٣١:١).

مرت ظروف فى تاريخ شعب الله، رأيت فيها الله نفسه يأمر عبيده بالالتجاء إلى مصر، مؤقتا. فعندما كان يعقوب مترددا فى الذهاب إلى مصر، ومتحيرا بين عاملين - عامل الرغبة فى رؤية يوسف، وعامل الخوف من تكرار أخطاء الماضى - قال له الرب «أنا آ.الله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر، لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك. أنا أنزل معك إلى مصر» (تك ٤٦:٣ و٤). وفى العهد الجديد، نرى ملاك الرب يظهر ليوسف فى حلم ويقول له «قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر» (مت ٢:١٣).

قد يأتى الوقت فى حياتنا أجمعين، الذى فيه يعلن لنا الرب إرادته صراحة، بأن نخرج إلى العالم لتتميم بعض أغراضه الإلهية. كأن يقول لكل منا «اخرج إلى العالم وأضئ فيه كالنور الساطع، قف سدا منيعا أمام تيار الفساد الجارف، اشهد لى حينما يجدف على اسمى كل يوم». ولا شك فى أن الرب عندما يرسلنا بأية رسالة كهذه، يحفظنا، وينجينا من كل الأخطار، كما فعل بيعقوب ونسله، وكما فعل بالصبى يسوع.

على أن إبراهيم لم يتلق رسالة صريحة من الله بالنزول إلى مصر، بل تصرف بمجرد تفكيره الشخصي، لقد نظر إلى الشدة التي واجهته، فاستبد به الخوف، ولبى نداء أول هاتف للنجاة خطر بباله كما يتعلق الغريق بقشة. وهكذا نراه ينزل إلى مصر دون استشارة أبيه السماوي، الذي تعهد بأن يحميه.

يا لها من غلطة شنيعة، ولكن، ألا يزال الكثيرون يرتكبونها؟ قد يكونون أولادا لله بالحق، ولكنهم في ساعة الشدة يسلكون بعض السبل ليخلصوا أنفسهم، وأقل ما يمكن أن يقال عن هذه السبل، إنه مشكوك في سلامتها، وبعد ذلك يحصدون ثمار الحزن والنكبات الشديدة في مستقبل الأيام، نتيجة محاولتهم تخليص أنفسهم بأنفسهم، من بعض الشدائد اليسيرة في ذلك الحين. تتزوج الفتيات المسيحيات بغير المسيحيين، ليتخلصن من بعض المشاكل المالية، ويقبل التجار المسيحيون شركاء غير مسحيين، لكي ينموا رؤوس أموالهم، ويرحب المسيحيون من كل الطبقات، بمعونة العالم، لكي يُنقَذوا من ضغط الصعوبات ويحتفظوا بكرامتهم، ألا يعد ذلك نزولا إلى مصر للمعونة؟

ألم يكن خيرا لإبراهيم أن يلقي كل المسئولية على الله، ويقول له: «لقد أتيت بي إلى هذا المكان، وإنني أترك لك تدبير المؤونة لي، ولمن معي، سأبقى هنا إلى أن تعلن لي ما تريدني أن أفعله؟»

إن كان هنالك شخص ممن يقرأون هذه الكلمات، يشعر أن طاعته الكاملة قد جرّت عليه قليلا أو كثيرا من المتاعب والضيقات، فلا ينظرن إلى الله في ضوء هذه الضيقات، بل لينظر إلى الضيقات في ضوء الله، ليضع الله بينه وبين ما يتهدده أو ينتابه من مصائب وأحزان؛ ليرم بأثقاله تحت قدمي القدير. ألم يحصل في ماض حياتك أن سمح لك الله ببعض الضيقات، لتكون له الفرصة ليشدد إيمانك بإعطاء دليل رائع على قدرته؟ انتظر الرب، واتكل أيضا عليه، إن اسمه «يهوه يرأه» (أي الرب يدبر).

(٣) انظر كيف أن خطية واحدة تجر الأخرى وراءها:

عندما فقد إبراهيم إيمانه، ونزل إلى مصر، فقد أيضا شجاعته، وأقنع زوجته بأن تقول عن نفسها إنها أخته. فإنه كان قد سمع عن فساد أخلاق المصريين، وخشي أن يقتلوه، ليتمكنوا من أخذ سارة التي كانت على شئ عظيم من الجمال، رغم تقدمها في السن.

لقد كان هنالك بعض الصدق فيما قرره، من أن سارة أخته، ولكن كان القصد من ذلك إخفاء الحق، أو بعبارة أخرى، كان الكلام كذبا. وقد ضلل هذا الكلام المصريين فعلا، لأن سارة «أخذت إلى بيت فرعون». كان هذا الموقف الذى وقفه إبراهيم، دليلا على ضعفه وجبنه، ولم يستطع أن يجد له مبررا يدافع به عن نفسه، وكانت غلطة شنيعة من شخص، عاش بالإيمان كل تلك المدة الماضية، وكادت هذه الغلطة، تعرض النسل الموعود للخطر. وهذا ما يحصل دواما. فإننا عندما نفقد إيماننا، ونمتلئ خوفا من أجل أنفسنا، ننسى كل الارتباطات والالتزامات، ويهون علينا أن نضحى بأثمن شئ عندنا، وأعز عزيز لدينا، فى سبيل نجاتنا.

وعندما أخذ فرعون سارة، صنع إلى إبراهيم خيرا جزيلا بسببها (تك ١٢:١٦). وهذا ما قد يفعله العالم أحيانا لمن يستسلمون له، ولكن، ما يأخذونه منه، لا يوازى شيئا بجانب ما يخسرونه. فلن يوجد مذبح فى مصر، ولا مجال للشركة مع الله، ولا مواعيد جديدة، بل عائلة متهدمة، وبيت مقفر، وشعور مؤلم بالخطية. عندما يترك الابن الضال بيت أبيه، يخسر كل ما يعطى الحياة قيمة حقيقية، وينحط إلى مستوى الخنازير، ولو شعر فى بداءة الأمر، بنشوة السرور الوقتى، للحصول على الشهوة المشتهاة. وفى حالة كهذه، لا يوجد إلا الرجوع إلى الطريق التى منها أتينا، أن «نعمل الأعمال الأولى» أن نخرج من مصر، ونعود إلى مكان المذبح، كما فعل إبراهيم (ص ١٣:٤).

إن سقطة إبراهيم فى مصر، تعطينا صورة عن طبيعته الأصلية، التى لم تكن نبيلة بأى حال من الأحوال، كما تكشف لنا عن أثر الرياء والخداع، اللذين طالما ظهرا أيضا فى أيام رخائه.

كم نحن مدينون بالشكر للكتاب المقدس، الذى لم يتردد عن ذكر خطايا أقدس القديسين. ولا شك أن هذا دليل على صحة الكتاب. ونحن فى نفس الوقت، نجد فيه تشجيعا لنا، لأنه إن كان الله قد استطاع أن يتخذ لنفسه «خليلا» (أو صديقا) من طينة كهذه، فهلا تتوق أنفسنا للوصول إلى هذا الامتياز، مهما كنا قد عصينا بواعث الإيمان. إن أهم ما يطلبه الرب من قديسيه، هو الطاعة الكاملة والتسليم الكامل. فأينما حلت هاتان الفضيلتان، استطاع الرب أن يخلق منا أولادا لإبراهيم، حتى وإن كانت تربة تكويننا، تميل بالطبيعة إلى أن تكون مقفرة، مجدبة، ممتلئة أعشابا ضارة.

الفصل السادس

الاعتزال عن لوط

«أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عنى إن ذهبت شمالا فأنا يمينا. وإن يمينا فأنا شمالا»

(تك ١٣: ٩)

رأينا فى الفصل السابق، الطبقة التى يختار الرب منها قديسيه. فإبراهيم بطبيعته الأصلية، لم يكن يسمو كثيرا عن غيره من بنى البشر الذين لا يترددون عن الكذب لكسب خير أو لدفع ضرر. وذلك الإيمان، الذى استطاع أن يلاطم الأمواج الهائجة، والرياح والعواصف يوما ما، لم يستطع الآن أن يعبر قناة صغيرة. لذلك، يصعب على العقل البشرى، أن يدرك كيف أن شخصا كهذا، استطاع أن يصل إلى المثل الأعلى، فى الأخلاق النبيلة، فاق فيها كل معاصريه، وسما بها، حتى أتيح له أن يرى يوم المسيح، ولكن هذا ما حصل، وهذا ما يشجعنا نحن الضعفاء.

إن إلهنا لا يشترط توفر الأخلاق النبيلة، حتى يتمم أجل أعماله، فهو قادر أن يخلق من الحجارة، أولادا لإبراهيم، وهو قادر أن يخلق من الشوك، الحرير، ومن الحسك، أشهى الأزاهير. وهو قادر أن يأخذ الصيادين من شباكهم، والعشارين من أماكن الجباية، ويصيّرهم مبشرين ورسلا وشهداء. نحن بالطبيعة لا شئ، بل نحن نجسون، وفاسدون، ولكن، إن كان الله يستطيع أن يخلق من هذه الحجارة، أولادا لإبراهيم، أفلا يكون ذلك داعيا لازدياد مجده وعظمته. وإن معجزات نعمته وقدرته، لتزيد اسمه المقدس مجدا، بنسبة ازدياد مظاهر ضعف المادة التى يجرى فيها هذه المعجزات.

«فصعد إبراهيم من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب» (تك ١٣: ١).

عجيب هذا جدا، فنحن كبشر، نميل إلى الاعتقاد، أنه ما كان ينتظر أن يقوم إبراهيم من سقطته هذه، وإنه لابد أن يحصد ما زرع، فإما أن لا يعود ويرى امرأته الأمينة بعد، وفى هذه الحالة يبقى معذب الضمير إلى الأبد، فى شعوره بالجبن والخيانة، أو إن عادت إليه

امرأته، فلن يستطيع التخلص من الشباك التى ألقى بنفسه فيها، ففرعون لابد أن ينتقم لنفسه من ذلك الشخص الغريب الذى كذب عليه وخدعه وكافأ ضيافته الكريمة له شرا.

ولكن؛ كلا، فإن الرب يظهر لطفه لأشر الخطاة، بعكس ما يتوقعه البشر. فى السنوات التالية، نقل إلينا داود الملك والمرنم، نفس الكلمات التى تكلم بها الرب إلى قلبه «لا تمسوا مسحائى ولا تسيئوا إلى أنبيائى» (مز ١٠٥:١٥). يا لرحمة الله العجيبة، فإنه لا يسمح بأن ينبذنا لمجرد خطية واحدة «لم يصنع معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا. لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه» (مز ١٠٣:١٠ و١١). وهكذا نراه، بالرغم من سقوط النفس المتكرر، وتقصيراتها المتعددة، يتابع نعمته فيها، حتى يحررها مما علق بها من شرور، ويرفعها إلى حياة الإيمان، والقوة، والشركة معه. «لا تشمتى بى يا عدوتى. إذا سقطت أقوم. إذا جلست فى الظلمة فالرب نور لى» (مى ٧:٨).

وإذ حذر الرب فرعون بصوته الإلهى، وأمسكه عن أن يسئ إلى عبده، نراه يوصى به رجاله «فشيعوه وامرأته وكل ما كان له». ومن ثم، نرى إبراهيم ومن معه، يعبرون مرتفعات جنوب فلسطين، فى طريقهم إلى «بيت إيل» التى كانوا قد حطوا فيها رحالهم، حال دخولهم فلسطين سابقا. كانت قوة الله المخلصة، كاملة، حتى أن فرعون لم يستطع أن يمد يده إليه، بل لم يجسر أن يسترد الهدايا التى خلعها عليه، كصداق لسارة، وهى «الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والإتن والجمال» وعاد بها إبراهيم. ومن هذا نعلم، أنه «كان غنيا جدا فى المواشى والفضة والذهب» (تك ١٣:٢).

كانت هذه الزيارة لمصر أساسا للثروة الطائلة التى تمتعت بها ذريته فيما بعد. ومن هنا نشأ التعب الذى سنتأمل فيه. يبدو لنا لأول وهلة، أنه تعب، ولكن الواقع، إن الله سمح به، لكى يزيد عبده الأمين التصاقا به، ولكى يفصله عن مصدر الشر، الذى لصق به طويلا. كنا قبل الآن، نقرأ مرارا هذه العبارة «وذهب معه لوط» أو ما يماثلها، ولكننا لم نعد نراها فيما بعد.

(١) ومن هو لوط هذا؟

هو ابن هاران أخى إبراهيم، الذى مات منذ بضع سنوات. والأرجح أنه كان قد ورث عن أبيه كل ثروته، أو ربما يكون قد خرج مع عمه، لأنه كان يمنى نفسه بتحسين مركزه

المالى. لكننا نرجو أن يكون الدافع له أشرف من ذلك. يبدو أنه كان أحد أولئك الذين يتخذون خطوات قويمة، لا لأنهم مدفوعون بطاعة الله، بل لأن أصدقاءهم يأخذونهم معهم. لقد كان لوط محاطا بهالة من إيمان ذلك البطل العظيم، فاكتسحه ذلك التيار الجارف، وعندما ارتحل إبراهيم سار فى ركابه.

فى كل نهضة روحية، تستطيع أن تعثر على أشخاص كثيرين يؤخذون بتيارها الجارف، وهم لا يدرون التزاماتها ومطاليبها. احذر من هؤلاء، فإنهم لا يحتملون أن يعيشوا حياة العزلة، لأن التأثير السريع الذى بدا عليهم سرعان ما يزول، وعندئذ، يصبحون سببا فى تكدير السلام، وتعطيل الآخرين، وتعطيل عمل الله، طالما كانوا مختبئين فى المحلة، أو طالما كانت مبادئهم مختبئة، فإنهم سيعملون على إضعاف مستوى الحياة الروحية، ويجرون غيرهم إلى طرق العالم، ويقترحون خططا لم تخطر لنا ببال، ويجروننا إلى مصر.

لا شئ سوى المبادئ السامية، والمثل العليا، تستطيع أن توصل المرء إلى حياة أولاد الله الحقيقية، حياة العزلة، والتسليم التام.أما إذا كنت مدفوعا بشئ أقل مثل التأثير الوقتى، أو الغيرة العالمية، أو التأديب الاجتماعى، أو التقليد الأعمى، صرت أولا معطلا، وانتهى بك الأمر إلى الفشل. لذلك، «جربوا أنفسكم؛ هل أنتم فى الإيمان، امتحنوا أنفسكم» (٢ كو ١٣:٥). وإذا ظهر لكم أنكم محمولون بمحبة الذات، أو بعاطفة لا تتفق والمثل الأعلى، فاطلبوا من الله أن ينفث فيكم محبته الطاهرة. خير لكم أن تكونوا مدفوعين بباعث أدنى، على شرط، أن تكونوا فى الاتجاه السليم. ولكن جدوا لما هو أفضل (١ كو ١٢:٣١).

(٢) ضرورة الاعتزال:

إن ذلك الفشل الذى منى به إبراهيم، فى نزوله إلى مصر، قد يعزى إلى مدى أبعد مما نعرفه، فقد يعزى إلى تأثير لوط السئ عليه. فمن يدرى، لعل إبراهيم لم يكن يخطر بباله أن ينزل إلى مصر، لو أنه ترك لنفسه، وفى هذه الحالة، ربما كنا نجد فصلا جديدا فى الكتاب المقدس، عن بطولة الإيمان الذى استند على مواعيد الله، وثبت أمام هذه المجاعة المخيفة، منتظرا إلى أن يأمره الله بالتحرك، أو يجعل له البقاء فى مكانه ممكنا.

وعلى أىّ حال، فإن الوقت الذى رتبه الله قد جاء، حينما رحل ذلك الشخص العالمى، تاركا إبراهيم وحده، بعيدا عن إيحاءاته وإغراءاته، متكلا على مشورة الله، وعنايته وحده.

على أن الاعتزال بالجسد عن عالم الأشرار، يعتبر ناقصا، إلا إذا كان مصحوبا بالعزلة الروحية الداخلية. إنه لا يكفى أن نترك أور، وحاران، ومصر، بل يجب أن نتخلص من لوط أيضا. وإننا، حتى لو أقمنا فى صومعة، أو فى أحد الأديرة، بعيدين عن العالم، بضوضائه ومشاغله، لا يقرع أسماعنا إلا أجراس الصلاة، ولا يشغل وقتنا إلا فرائض العبادة، فإننا لا نصل إلى حياة العزلة مع الله، التى هى الشرط الأساسى لنمو الإيمان ولكل صفات الحياة الحقيقية، التى تجعل الأرض كالسماء، طالما كانت هناك مبادئ غريبة فى قلوبنا، وطالما كان هنالك لوط فى حياتنا. لهذا، فيجب أن يبعد لوط «اعلموا أن الرب قد ميز (أو أفرز) تقيّه» (مز ٤:٣). إذن، يجب أن لا يتطفل متطفل، فيدخل إلى ملك الله الخاص.

أيتها النفوس التى تشتاق إلى القداسة، كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه، هل حسبت حساب النفقة، هل تستطيعين احتمال نيران التجارب. إن عملية تدريب القديسين، وصياغتهم، ليست ألعوبة طفل، وإن الذهب يجب أن يجوز النار المحماة، قبل أن يصنع زينة للملك.

وكما حرم إبراهيم من كل معونة بشرية.. واحدة فواحدة، كذلك، يجب أن نكون مستعدين أن نموت عن العالم، بكل ما فيه من ثناء أو هجاء، وعن الجسد، بكل مطامعه وتدابيره، وعن كل الأصدقاء، الذين تسبب لنا صداقتهم، إضعافا للحياة الروحية، وعن حياة الأثرة والأنانية، بكل سمومها، وحتى عن الأفراح، والتعزيات الروحية، إن اقتضت ذلك إرادة الرب.

على أنه يستحيل علينا أن نفعل كل ذلك من أنفسنا. أما إن سلمنا ذواتنا لله، تاركين له أن يتمم فينا وبنا، ما نعجز عن إتمامه من أنفسنا، وجدنا أنه بدأ يقربنا إلى شخصه، حتى يتحدنا به اتحادا كاملا.

لعل إبراهيم قد أحس بالتأثير السئ الذى أحدثته فيه عشرة لوط، ولعله تاق للتخلص منه، دون أن يدرى كيف يمكن أن يتم هذا. وقد يكون هذا هو الحال معك أيها القارئ الكريم، فربما ورطت نفسك فى صداقة، أو عشرة، أو شركة أحد الأصدقاء، وأصبحت ترى نفسك، أضعف من أن تتخلص من عشرته. إن الأمل الوحيد الذى أمامك، هو أن تتحمل الأمر بصبر، حتى يحررك الرب. وفى نفس الوقت، احرص كل الحرص، لكى تكون ثابتا، متمسكا بكمالك، لئلا تصبح كريشة فى مهب الريح. أعلن إرادتك لله دواما، لكى يحررك من كل قيد.

وبالصلاة والإيمان، خذ لنفسك عسلا من جثة الأسد. انتظر صابرا، حتى يحين الوقت الذى حدده لك الله، وينطق بكلمة الحرية، إذ لا شك فى أن هذا الوقت آت أخيرا. فإن لله قصدا عظيما لك، لا يمكن أن تخسره من أجل عقبة بسيطة، تافهة.

(٣) كيف تم الاعتزال:

كانت المراعى التى تحيط ببيت إيل، كافية لسد كل احتياجاتهم فى بداية الأمر، أما الآن؛ فلم تعد كافية؛ إذ أصبح الرعاة فى نزاع مستمر حول الآبار، وحول المراعى، كما كانت القطعان تختلط دواما بالبعض «ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا» (تك ١٣:٦).

كثيرا ما اتصلت نيران منازعات الخدم، بأسيادهم أنفسهم. وإذ كان كل من إبراهيم ولوط، تصل إليه أخبار رعاته، كانت التجربة تهاجمه، لكى يتهيج من نحو الآخر.

أما إبراهيم، فقد رأى فى الحال، أنه لا يليق أن تستمر الحال على هذا المنوال، خصوصا، وقد «كان الكنعانيون والفَرِزيّون حينئذ ساكنين فى الأرض» (ع٧)، لأنه لو بلغت إلى أسماعهم أخبار منازعات جيرانهم، لهجموا عليهم، ففى الاتحاد القوة، وفى الانقسام الضعف.

وفضلا عن ذلك، فإن إبراهيم أدرك الانقسام والخصام، من الأعمال الذميمة التى تهين اسم الله، وتحقر شأن عبادته. ليت جميع أولاد الله، يتجنبون كل عوامل المنازعات، والانقسامات، ويعلمون أنهم جميعا أولاد أب واحد.

وهكذا دعا إبراهيم لوطاً وقال له «لا تكن مخاصمة بينى وبينك، وبين رعاتى ورعاتك. لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض أمامك. اعتزل عنى، إن ذهبت شمالا، فأنا يمينا، وإن يمينا فأنا شمالا» (تك ١٣: ٨ و٩).

لقد دل هذا الاقتراح على منتهى الحكمة، فإنه إذ وجد أن هنالك مصدرا مستمرا للتعب والمشاكل، وإنه إن تكلم مع لوط بشدة، فقد يرد عليه بنفس الروح، وقد يؤدى هذا إلى عداوة مستحكمة. لهذا، رأى أنه من الحكمة أن يستأصل أصل الشر من جذوره؛ واقترح أن يعتزل الواحد عن الآخر.

كذلك، دل على النبل والشرف، مع التواضع وإنكار النفس. فإنه بلا مراء، كان له حق

الاختيار باعتباره أكبر سنا، وباعتباره رئيس الجماعة، ولكنه تنازل عن هذا الحق، حبا في الصلح والسلام.

وفوق ذلك، فقد كان مركزا على الإيمان. فإن إيمانه كان قد بدأ يأخذ مركزه اللائق به، وبدأ يتزايد قوة وعظمة. إن كان الرب قد وعده بأن يظلله بعنايته، ويعطيه ميراثا، فلم يكن هنالك مبرر للخوف من أن يسلبه لوط، ما ضمنه له الرب الأمين. لهذا، فضل ألف مرة أن يختار له الرب من أن يختار هو لنفسه.

إن الإنسان الذى ركز كل ثقته فى الله، لا يبالى كثيرا بأمور هذا العالم، لأنه يرى الرب ميراثا ثابتا له، وإن كان له الرب، فإن له كل شئ. وسيتضح مما سنراه فيما بعد، أن من يختار لنفسه، ليس بأفضل ممن يسلم الأمر لله، ولو كانت له حرية الاختيار وهو يقول «ليختر الآخرون لأنفسهم إن أرادوا، أما أنا فقد تركت أمرى لك ربى لتختار لى نصيبى » (مز ٤٧:٤).

ربى! ليس لى أن أختار
فى الأمور الكبار أو الصغار
فكن أنت لى مرشدا وحارسا وقوة
وكن لى حكمة وكل شئ.

الفصل السابع

الطـــريقـــان

«أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عنى»
(تك ١٣: ٩)

وقف إبراهيم ولوط معا على مرتفعات بيت إيل، وانبسطت أمام أنظارهما أرض الموعد. وإذ تطلعا يمينا ويسارا، وشمالا وجنوبا، لم يجدا أمامهما إلا مرتفعات ومنخفضات من أرض قاحلة، إلا فى ناحية الجنوب الشرقى، حيث تقع العين على واد متسع، يشقه نهر الأردن.

وإذ أبصركل منهما هذا الوادى الغنى، بمناظره الخلابة، تذكر تلك الجنة التى غرسها الرب فى عدن، كما تذكر المناظر التى أبصرها فى وادى النيل، منذ زمن وجيز. وقد خلبت هذه المناظر لب لوط، بنوع خاص، إذ كان متلهفا لتحسين مركزه، وانتهاز هذه الفرصة التى قدمها له عمه، بتنازله له عن حقه فى الاختيار. ولعله قد حكم على عمه بالغباوة، لتنازله عن هذا الحق. ولعله صمم على أن لا يدع مجالا لتدخل عواطفه فى هذا الشأن، حتى ينتفع من هذا الظرف بأقصى ما يستطيع، ولعله شعر شعورا قويا، بأنه كان ثاقب الفكر، بعيد النظر فى اختياره، ذلك لأنه لم يبال قليلا أو كثيرا، بالاحتفاظ بروح الغربة.

على أنه سيأتى الوقت، الذى فيه يندب سوء اختياره بحرقة، ويعزو كل شئ لعمه إبراهيم، الذى كان يفكر وقتئذ أن يستغله، ويستغل تساهله معه.

«فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن إن جميعها سقى .. كجنة الرب كأرض مصر.. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن» (تك ١٣: ١٠ و١١). لم يسأل الرب عما يختار له، ولم يبال بالتأثير السئ الذى قد يحدث فى أخلاقه وأخلاق نسله بسبب فساد أخلاق أهل البلاد. ذلك لأن اختياره كان منصبا على شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة. فأهل سدوم كانوا «أشرارا وخطاة لدى الرب جدا» (ع ١٣).

كم من أشخاص صعدوا فوق مرتفعات بيت إيل، لنفس الغرض الذى من أجله صعد لوط. فى كل العصور، صعدت فوق جبل عال جدا، جماهير غفيرة من البشر، حيث تمثل أمام أنظارهم، كل مجد العالم، وهمس المجرب فى أذن كل واحد منهم قائلا: «لك أعطى كل هذا إن أطعتنى ولو مرة واحدة». وكم منهم من لم يختر إلا سدوم، لشدة التعلق بالعالم، وعدم الميل للتمسك بالفضيلة، إذا كانت تحول دون الاستمتاع بأمور العالم، التى ينظرون إليها كالغاية الأولى فى الحياة، وهم بذلك يبرهنون أنهم – مثل لوط – قد حاولوا أن يحولوا الحجارة خبزا، وألقوا بأنفسهم من فوق الهيكل، لكى تحملهم الملائكة على الأيدى، وخروا ساجدين أمام المجرب. وأخيرا، يجدون أن تلك الوعود الخلابة، قد ذهبت أدراج الرياح، وإن المجرب قد تخلى عنهم، ساخرا بهم، واختفى، تاركا فريسته وسط برية قاحلة.

يجب ألا نشدد النكير على دينونة لوط، لاختياره هذا، دون مراعاة ما تحتمه عليه الفضيلة، والواجبات الدينية، لئلا ندين أنفسنا نحن أيضا، فإن ما أتاه لوط، لا يزيد عما يفعله عشرات، بل مئات المسيحيين كل يوم. ألسنا نرى الكثير من المسيحيين، رجالا ونساء، يكسرون كل يوم، أقدس مبادئ الفضيلة، فى سبيل إتمام أعمالهم العالمية! وفى سبيل ربح بعض أمور زائلة، مثل لوط، الذى استعاض عن مذبح إبراهيم، بسهول سدوم، لأنه رآها أرضا خصبة غنية.

ألم تدفع أمهات كثيرات بناتهن فى زيجات، انتهت بالفشل الذريع، لأن نظرتهن فى اختيار الزوج، كانت نظرة عالمية؟ آه، إن العالم ملئ بقلوب محطمة، وبيوت تعسة، لأن هناك كثيرين، يصرون على أن يرفعوا أعينهم ليختاروا لأنفسهم، وهم لا يراعون إلا اعتبارات دنيئة.

ولو كان إبراهيم قد وبخ لوطاً بسبب سوء اختياره، ألا تظن بأنه كان يجيبه على الفور، بأنه ليس أقل غيرة منه فى عبادة الرب، وإنه إنما اختار سدوم، لكى يشهد فيها لله، ولكى ينير وسط ظلامها الدامس. ولعل إبراهيم لم يكن قادرا أن يدحض هذه الحجة، ولو كان مقتنعا فى قرارة نفسه، إنها لم تكن هى الباعث فى اختيار ذلك المكان. لا شك فى أن الله إن أرسل أى إنسان إلى سدوم، حفظه فيها – كما حفظ دانيال فى بابل – فلا يمسه سوء، هو يحفظ أولاده مثل حدقة العين. ولكن، إن كان أمر الله لا يصدر لك صراحة بالذهاب إلى سدوم، فإنه من الخطأ، ومن الإجرام، ومن الخطر، أن تذهب إليها.

لاحظ كيف جُرف لوط فى التيار سريعا، وكيف حصد سريعا، ما قد زرع، فإنه فى بداية الأمر نظر، فاختار، فاعتزل عن إبراهيم، فارتحل شرقا، فأقام خيمته مقابل سدوم، فسكن فيها، فصار من أهل البلاد، «فجلس فى باب سدوم». بعد ذلك، تزوجت ابنتاه رجلين من أهل سدوم، من ثم؛ ضعفت قوته المعنوية، بل كادت أن تتلاشى قوته الروحية، فلم يعد قادرا على الشهادة لإلهه. ولعله كان يهزأ به، أو يقاوم بعنف، كلما رفع صوته احتجاجا على أعمال الرذيلة، التى تفشت بين أهل البلاد، ثم إن نفسه البارة، كانت تعذب يوما فيوما، دون أن تجد من يعطف عليها. بعد ذلك، حمله كَدَرْلَعَوْمَرَ أسيرا. ثم تلاشت ثروته بانقلاب المدينتين، وتحولت زوجته إلى عمود ملح. ولا شك فى أن أواخر أيام هذا الرجل الشقى، كانت تعسة، إذ جرد من كل شئ، ووقف وجها لوجه أمام نتائج خطيته المشينة.

حقا، إن هذه صورة بشعة، على أنه لا يزال هذا القصاص، هو نصيب كل من يسئ اختيار زوجته، أو زوجه، أو أصدقائه، أو الوسط الذى يعيش فيه، مدفوعا فى كل ذلك، بعامل شهوة العالم، أو الربح المادى، أو المدنية الكاذبة، أو المسرات العالمية، بدلا من أن يكون الدافع، إتمام إرادة الله. إن كان هناك خلاص يرجى، لأشخاص كهؤلاء، فإنهم سيخلصون، ولكن، كما بنار مثل لوط.

والآن؛ لننتقل إلى صورة أخرى، لنتأمل فى طريقة معاملة القدير لإبراهيم، الذى تدرب على أن يظل فى صلة مستمرة مع الله، كخليل الله.

(١) إن الله يقترب دواما ممن يعيشون حياة العزلة:

«وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه» (تك ١٣:١٤).

كان لوط رفيقا ملازما لإبراهيم، أما الآن، وقد فارقه، فربما يكون قد اعترته رجة عصبية، عندما شعر بالوحدة، عندئذ تكلم معه الرب.

كلنا نخشى الاعتزال عن رفقائنا، وأصدقائنا، لأنه يعز على النفس، أن تقف فى ساعة الوداع، تودع صديقا حميما، أو راحلا عزيزا، ولكن، إن أردنا أن نعيش لله فقط، فلابد من التخلى عن بعض الأصدقاء، أو التنحى عن بعض العادات، أو الخصال.

على أنه لا يكفي أن نتأمل فيما تستلزمه العزلة من الآلام، بل لنتأمل فى نفس الوقت، فى مواعيد الله المبهجة للنفس، المشجعة للعزائم. ليكن معلوما، بأنه عندما تعيش النفس حياة

التكريس والتسليم الكامل لإرادة الله، تشع عليها أنوار رؤى جديدة، وكلمات معزية، لم تكن لتخطر على القلب من قبل. عندئذ، يتم القول «عوضا عن النحاس آتى بالذهب. وعوضا عن الحديد آتى بالفضة. وعوضا عن الخشب بالنحاس. وعوضا عن الحجارة بالحديد.. لا يسمع بعد ظلم ولا خراب أو سحق». عندئذ، لا نرى أثرا لظلم، أو سحق، أو خراب، لا تكون الشمس بعد نورا فى النهار، ولا القمر (فى الليل) لأن الرب يصير نورا أبديا للقلب المعتزل، ولأن أيام النوح قد مضت إلى الأبد (إش ٦٠:١٧-٢٠).

لذلك، اخرجوا من وسطهم، واعتزلوا، يقول الرب،ولا تمسوا نجسا فأقبلكم وأكون لكم أبا، وأنتم تكونون لى بنين وبنات، يقول الرب القادر على كل شئ. فإذ لنا هذه المواعيد أيها الأحباء، لنطهر ذواتنا من كل دنس الجسد، والروح، مكملين القداسة فى خوف الله» (٢ كو ٦:١٧، ١٨، ٧:١).

(٢) إن الذين يثقون فى الله ويتكلون عليه يعطيهم أفضل مما يستطيعون أن يفعلوه لأنفسهم:

فى هذا الإصحاح، نقرأ أن لوطاً «رفع عينيه»، ثم نقرأ إن الله أمر إبراهيم قائلا «ارفع عينيك». ويا له من فرق عظيم بين الحالتين. فإن لوطاً رفع عينيه، بدافع الحكمة العالمية، لكى يختار نصيبه، أما إبراهيم، فرفع عينيه، لا ليختار أفضل نصيب لنفسه من متاع الدنيا، بل لكى ينظر ما أعده له الله. أليس من الأفضل جدا، أن نثبت أعيننا نحو الله، إلى أن يقول لنا «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (تك ١٣:١٤ و١٥)؟

الله يكرم الذين يكرمونه (١ صم ٢:٣٠)، «ولا يمنع خيرا عن السالكين بالكمال» (مز ٨٤:١١)، «ويلاقى الفرح الصانع البر» (إش ٦٤:٥). إن سرنا فى طريقنا فاعلين ما هو مستقيم، مقدمين الآخرين فى الكرامة، لتجنب الشقاق والخصام، بل مقدمين مصلحة الله أولا، ثم مصلحتنا أخيرا، منفقين أنفسنا، لامتداد واتساع ملكوت الله، وجدنا أن الله يهتم بمصالحنا الشخصية. ولا شك فى أنه يصنع معنا أحسن جدا مما نستطيع أن نفعله نحن لأنفسنا. فلوط كان لابد أن يستأذن أهل سدوم لكى يحل بينهم، لأنه لم يكن يملك شيئا من الأرض، أما إبراهيم، فقد أعطيت له كل الأرض، دون أن يطلب شيئا، بما فى ذلك تلك الأرض النضرة، التى وضع لوط قلبه عليها. «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض».

لا يمكن أن نقرأ تلك الكلمات «شمالا وجنوبا وشرقا وغربا» دون أن نتذكر «العرض والطول والعمق والعلو لمحبة المسيح الفائقة المعرفة» (أف ٣:١٨ و١٩). كانت معظم أرض كنعان، متوارية وراء أعالي الجبال، على أن تلك الأرض التى كان ممكنا رؤيتها، كانت كافية لإنعاش روح ذلك البطل الأمين. وعلى هذا المنوال، نحن لا نستطيع أن نرى محبة الله فى المسيح، طالما كنا فى مستوى منحط، ولكن، كلما سمت أرواحنا، استطعنا أن نرى الكثير من هذه المحبة. إن قمم الجبال العالية، التى تسمو إليها النفس المنعزلة، تسمح برؤية أكبر مساحة من الاتساع اللانهائى. كلما ازددنا ارتفاعا فوق بعض الجبال، رأينا مناظر أجمل. وهكذا، نحن أيضا، كلما ازددنا سموا وعزلة، تجلت أمامنا أفكار أجمل، عن محبة المسيح، وكمالات المسيح.

إن مواعيد الله دائما، فى الارتفاع إلى فوق. فالوعد الواحد، يقود المؤمن إلى وعد أسمى، أكثر وضوحا، بل أغزر بركة. قال الله لإبراهيم فيما بين النهرين «الأرض التى أريك»، وفى بيت إيل، يقول له «هذه هى الأرض»، وهنا يقول له «جميع الأرض لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد، وأجعل نسلك كتراب الأرض». وسنرى فيما بعد، أنه حتى هذا الموعد، يتضاءل أمام المواعيد الأخرى التالية. إن الله لا يعطينا شيئا، إلا إذا وجد أننا قد تجاسرنا على العمل، وذلك لكى يختبرنا. وهو لا يعطى كل شئ، وذلك لكى لا يخبل عقولنا. وهو دائما يحتفظ باحتياطى وفير من البركات. ويا لها من بركات مدخرة. من ذا الذى يستطيع أن يراها كلها؟!

(٣) الله يأمرنا بأن نقبل منه عطاياه:

«قم امش فى الأرض طولها وعرضها» (ع ١٧). لا شك فى أن هذا معناه، أن الله أراد أن يشعر إبراهيم، بأن الأرض قد أصبحت ملكا له، وأن له الآن أن يتمتع بها، ويتنقل فيها، حيثما أراد، وكيفما شاء.وبالإيمان، كان عليه أن يتصرف فى الأرض، كما لو كان مالكا لها من قبل.

وهنا، نجد درسا عميقا فيما يختص بالإيمان. قال الله ليشوع ست مرات مختلفة «تشدد وتشجع»، وهذا معناه أن يكون الإيمان قويا، وثابتا، ومتينا. إن الفرق بين المسيحيين ينحصر فى هذا: إننا جميعا مدّخرة لنا البركات الروحية عند الرب بقدر متساو. على أن

البعض قد تعلموا أن يغترفوا يوما فيوما من منهل هذه البركات، وأن يمشوا فى الأرض طولها وعرضها، وأن يمتلئوا دواما من ملء نعمة المسيح، وأن يقتنعوا بما هم فيه، بل يقتربون منه على الدوام.

«فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون. وبنى هناك مذبحا للرب» (ع ١٨).

يجب أن لا نعجب إن رأينا إبراهيم ينتقل إلى حبرون (ومعناها الشركة)، ويبنى هناك مذبحا للرب. فإن البركات الجديدة، تدعونا للتعمق فى شركة القدير، الذى لا يمكن أن يتخلى عن أتقيائه. فلنبن مذابح جديدة، كنتيجة لمعاملات الرب معنا، ولنجدد عهودنا معه، لتكريس أنفسنا، وكل من لنا، لخدمته المباركة.

الفصل الثامن

قوة بين الموقعتين

«أربعة ملوك مع خمسة»
(تك ١٤:٩)

لم يكن النزاع الوارد ذكره فى الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين، مجرد مشاجرات أو مناورات بسيطة، قامت على الحدود، بل كان حملة منظمة، بقصد الغزو والتأديب. قبل أن يدخل إبراهيم كنعان ببضع سنوات كمتغرب وديع مسالم، كان كدرلعومر، ملك عيلام، قد اكتسح كل ممالك الجنوب، وأخضع لسلطانه كل بلاد وادى الأردن، وبسط حمايته على كل الطريق بين دمشق ومصر. وعندما دخل لوط مدينة سدوم، كانت مدن السهل تدفع الجزية لذلك الملك العاتى.

أخيرا؛ تضايقت مدن سدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوييم، وعصت كدرلعومر. فاضطر أن يقوم بحملة ثانية، لتأديبها، بسبب تمردها، ولاسترداد نفوذه وسلطانه. وإذ اتحد معه ثلاثة ملوك من حلفائه، استطاع أن يكتسح كل من وجده فى طريقه. وكانت خطته أن يخرب كل المنطقة المجاورة لمدن الأردن هذه، قبل أن يهجم عليها هى نفسها.

أخيرا؛ تركزت قوات الحلفاء بجوار سدوم، حيث لقيت مقاومة عنيفة. ورغما عن المناعة الطبيعية التى تتمتع بها سدوم، وما جاورها، ورغما عن مرارة نفوس شعبها، فقد غلبوا على أمرهم أمام العدو. ولعل السوسة التى نخرت عظامهم، كانت هى فسادهم الخلقى، الذى طالما كان سببا فى تقهقر الشعوب، وانخذال الجيوش. أما جيوش الأعداء، فدخلت تلك المدن الغنية على أثر انتصارها، ونهبتها نهبا، وأسرت البقية الباقية من شعبها الذين لم يستطيعوا الفرار.

وبعد أن حملوا ما استطاعوا من الأسلاب والغنائم، بدأوا يعودون ومن معهم من المسبيين إلى بلادهم «وأخذوا لوطا ابن أخى أبرام وأملاكه ومضوا» (ع ١٢). ولكن واحدا

ممن نجوا، أسرع وسار فى طريقه حتى وصل إلى محلة إبراهيم، وأخبره بالأمر «فلما سمع أبرام أن أخاه سبى جر غلمانه المتمرنين.. وتبعهم إلى دان. وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده» (ع ١٤ و١٥).

(١) وهنا نرى روح إنكار الذات في ذلك الراعى البسيط ونجاح توسطه لإنقاذه غيره.

كان إبراهيم يرقب الأمر عن بعد، ويتبع حركات الجيش المهاجم «إليك لا يقرب. إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار» (مز ٩١:٧ و٨). لعل الحكمة البشرية قد حاولت أن تحثه على أن لا يحشر نفسه فى هذا القتال، لئلا يعرض نفسه لعداوة أولئك الملوك الأقوياء، بعد أن تخلص من شرورهم.

أما روح العزلة الحقيقية، فلا تتلمس مثل هذه المعاذير، لأنه إن كان المفرز قد أفرز لله، فقد أفرز لكى يعمل بقوة العالم العظيم، الذى يشفق عليه الله، والذى أظهر رحمته نحوه، باختيار الفئة القليلة التى اختارها من أجله. إن روح العزلة الحقيقية – وهى الانعزال عن المنظور الوقتى، بسبب الغيرة المشتعلة نحو غير المنظور الأبدى – هى نتيجة الإيمان العامل بالمحبة، وهذه المحبة، تعطف على من وقعوا فى شباك العالم والخطية. الإيمان يجعلنا مستقلين عن الناس، ولكنه لا يجعلنا غير مكترثين بهم. يكفيه أن يسمع بأن أخا قد أسر، ليتخذ العدة فى الحال، ويقتفى أثره.

أه، أيها الإخوة والأخوات، ألم يأتكم نبأ، بأن إخوتكم سباهم العدو سبيا؟ فلماذا لم تتحركوا كل تلك المدة الطويلة الماضية، لخلاصهم؟ هل ترونه من الشرف والأمانة، أن تقفوا بإزائهم مكتوفى الأيدى، كأن الأمر لا يعنيكم، مع أنهم فى أشد الحاجة إليكم؟

وكما كان تدخل إبراهيم سريعا، ينم عن روح إنكار الذات، فقد كان موفقا، ومكللا بالنجاح. كانت القوة التى جردها لمهاجمة العدو، هزيلة جدا، وغير متمرنة على الحرب؛ لكنها تحركت سريعا. وفى ظرف أربعة أو خمسة أيام، أدركوا الجيش المعتد بذاته، وسط الجبال التى يبدأ منها نهر الأردن، وإذ هجم إبراهيم وجيشه على العدو ليلا، طاردوه حتى وصل إلى مدينة دمشق القديمة، وقد انخذلت قلوب العدو خوفا، «واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب» (ع ١٦).

أليس هذا هو ما يحصل دواما؟ إن الذين يعيشون حياة العزلة، والتكريس الكامل لله، هم أول من يتقدم للعمل بنجاح، عندما يحين الوقت للعمل. فإن بقاء لوط فى سدوم، لم يمكنه

من رفع مستوى أخلاقها، ولا من تخليصها من الهجوم. أما إبراهيم، الذى كان يعيش وسط الجبال، فكان هو الشخص الوحيد، الذى يستطيع أن يقف قبالة ذلك الملك العاتى.

أيها القارئ العزيز.. لا تصغ لمن يقولون لك، يجب أن تعيش فى مستوى البشر الذين يحيون حياة العالم، وفى وسطهم، لكى تستطيع أن ترفع مستواهم، وتعمل على تخليصهم، والذين ينصحونك قائلين، إنك لهذا، يجب أن تسايرهم إلى دور السينما، والملاهى، والمراقص، لكى تحببهم إليك، ولكى تتمكن من إعطائهم المثل الأعلى. هذه كلها سفسطة كاذبة. فهل خلص لوط سدوم؟ ولن يجد نصيبا أفضل مَنْ يعيش وسط العالم، بمحض رغبته واختياره، دون أن يأمره الله. إن أردت أن ترفعنى، وجب أن تكون بعيدا عنى. وإن أراد أرشميدس أن يحرك الأرض، وجب أن ترتكز رافعته على نقطة بعيدة عن الأرض، بعدا كافيا.

(٢) إن وقت النجاح العظيم طالما كان علامة على قرب مجئ تجربة عظيمة:ط

لم يكن ملك سدوم بين المسبيين، إذ ربما يكون قد هرب من ساحة القتال، إلى أحد الجبال، ونجى نفسه. وعندما أتاه نبأ بنجاح إبراهيم، فى مهمته الخطيرة الموفقة، وثب لكى يقابله ويرحب به، وظل يقفز على الجبال، حتى وصل إلى الطريق السلطانى، الذى سلكه إبراهيم فى عودته إلى حبرون.

وأخيرا، تقابل الاثنان فى عمق شَوَى، الذى هو عمق الملك» (ع ١٧)، أو وادى الملك (٢ صم ١٨:١٨)، وهو مكان كانت له شهرته على مر السنين، ثم استقر الجميع بجوار مدنية شاليم، التى لقبت فيما بعد «أورشليم»، ويا له من لقاء خطير، ذلك الذى تم بين ممثلى جنسين: الجنس الأول يتزايد ضعفا وانحلالا، إلى أن يحتل بلاده، أبناء نفس ذلك الرجل الذى أنقذه بسيفه من الفناء التام.

ومما يسترعى الالتفات بأكثر اهتمام، هو تلك المفاجأة الروحية التى حصلت فى ذلك المكان. فإن ملك سدوم، لكى يعبر عن تقديره للخدمة الجليلة التى قام بها إبراهيم، عرض عليه بأن لا يأخذ سوى نفوس الأسرى. أما الغنائم، فيأخذها إبراهيم لنفسه وخلفائه.

ولا شك فى أن هذا العرض كان مغريا جدا، لأنه لم يكن أمرا تافها، أن يعطى راع بسيط فرصة اختيار كل تلك الأسلاب النفيسة لنفسه، خصوصا وقد كان له بعض الحق فى ملكيتها.

ولكنه لم يتردد لحظة فى رفض ذلك العرض. ولا شك فى أنه سبق أن درب إرادته قبل هذه المفاجأة، إذ نراه يتحدث بصيغة الماضى، ويرد قائلا «رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السماء والأرض لآخذن خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك. فلا تقول أنا أغنيت أبرام» (ع ٢٢، ٢٣). فيا له من روح كريم ذاك الذى احتقر بإباء وشمم، هذا العرض العظيم، ويا له من إيمان ثابت وطيد، ذاك الذى وقف هذا الموقف المشرف.

وهنا، نرى تشبيها قريبا بين ذلك الاقتراح الذى قدمه ملك سدوم، وبين تجربة المسيح فى البرية عندما عرض عليه الشيطان كل ممالك الدنيا نظير طاعة أمر واحد. ألا تهاجمنا جميعا هذه التجربة؟ ألسنا جميعا مجربين، بأن يقدم لنا العالم أمجاده نظير خضوعنا لسلطانه واستسلامنا لأوامره؟ إن العالم يوقن تماما بأننا فى اليوم الذى نخضع لمطالبه، نفقد استقلالنا، وننحط إلى مستواه، ولا نعود نجرأ على الشهادة ضده، ونفقد كل قوة معنوية، ونصبح ضعفاء كسائر البشر.

قد يستطيع بعض أصدقائك إقناعك نظريا بأن ما تحصله من الثروة بطرق غير شريفة يمكنك أن تصرفه فى الأعمال النافعة. على أنك عندما تختبر ذلك عمليا تجده أمرا يكاد يكون مستحيلا، فإن ثروة سدوم لابد أن تحرق الأيدى التى تلمسها، وتعطل كل مشروع أو عمل تتدخل فيه. وفضلا عن ذلك، فبأى حق نتكل على ثروة العالم نحن الذين قد وهب لنا أن نكون ورثة مالك السموات والأرض وأبناء ملك الملوك، الذين، إذ أعطانا ابنه، فقد ضمن لنا كل شئ. خير لنا ألف مرة أن نبقى فقراء إلى أن يغنينا هو بالثروة التى قد طهرها. وطوبى لمن يفضلون أن يعتمدوا على عنايته كل يوم عن أن يعتمدوا على ثروة سدوم وأجرة الاثم.

(٣) نعمة الله الحافظة:

ربما لم يكن ممكنا لإبراهيم أن يحوز ذلك الانتصار الباهر فى الموقعة الثانية، ما لم يكن قد استعد لها بملاقاته لملك آخر أعظم من الملوك الذين ذكرناهم، فإنه بعد انتصاره على الملك كدرلعومر، وقبل مجئ ملك سدوم، قابل ملكى صادق ملك شاليم وكاهن الله العلى (ع ١٧-٢١).

لا داعى للإفاضة الآن فى البحث عن هذه الشخصية المقدسة، التى كانت رمزا لربنا ومخلصنا يسوع المسيح، والتحدث عنها طويلا، فهذا سيأتى دوره قريبا؛ وإنما يكفى هنا أن

نلاحظ أنه قدم خبزا وخمرا، وبارك ذلك البطل الظافر، المنهك القوى، وطبع فى أسماعه اسما جديدا لله. كما نلاحظ أنه لأول مرة يدعى الله «مالك السموات والأرض»(ع ١٩)، ويبدو أن هذه التسمية انطبعت فى مخيلته، لأننا نراه يكررها لدى التقائه بملك سدوم (ع٢٢). وكانت هذه سر نصرته. فإنه لماذا يأخذ أى شئ من إنسان وقد أعلنت له هذه الرؤيا الجديدة عن إلهه، فأغنت قلبه إلى الأبد؟

ألا يزال هذا هو عمل الرب يسوع؟ فإنه يلتقى بنا عندما نعود منهوكى القوى من الحرب. إنه يأتينا عندما يرانا مشرفين على تجربة عظمى. هو لا يكتفى بأن يصلى من أجلنا كما صلى من أجل بطرس، بل هو يعدنا للحرب. قد يعلن لنا رؤيا جديدة، أو يبرق لنا نورا جديدا عن بعض صفاته، أو يسمح بأن تنساب إلى عقولنا فكرة مقدسة. وذلك لكى يجهزنا لملاقاة العدو. يا لها من رحمة عظيمة من الله لا تقدر، إنه يسبق فيحذرنا كما يسبق فيسلحنا، إنه يحفظنا ببركات صلاحه.

إذا هاجمتنا بعد الآن تجربة الرشوة من هذا العالم الشرير، فلنذكر هذه التسمية التى أعطيت لله، والتى كانت سر نصرة إبراهيم، لنذكر بأنه هو «مالك السموات والأرض». لماذا ندنس أيدينا بالمال غير الشريف، حتى ولو ظهر لنا بأنه ضرورى جدا لحياتنا، بينما أبونا السماوى هو مالك كل ما يطير فى السماء، وكل ما يدب على الأرض، وكل ما تغمره المياه، بل كل ما يختبئ فى الصخر.

إن كل ما نناله من قوة وبأس، وكل ما نجوزه من الاختبارات الروحية، ليس الغرض منه إلا أن يعدنا للتجربة القادمة. فلننتفع من كل هذه الظروف كلما مرت بنا، ولنكن شاكرين لله دواما من أجل تحصينه لقلاعه قبل مهاجمة العدو، ومن أجل إعطائنا هذه التسمية الجديدة التى بها نستطيع أن نغلب كل حيل البشر والشيطان.

أيها الملك العظيم، ملك كل النفوس الأمينة، ليتك تسمح لنا بالالتقاء بك دواما، سيما عندما يكون أحد الأعداء يحيك لنا حبائل الشر، ليتك تعدنا بنعمتك لملاقاة كل ما ينتظرنا فى المستقبل المجهول.

الفصل التاسع

ملكى صادق

«ملكى صدق هذا ملك ساليم كاهن الله العلى»
(عب ٧ : ١)

المسيح هنا والكلمات تنبعث منها رائحته الزكية. الأيدى تقطر مرا، والأصابع مر قاطر على مقبض القفل (نش ٥:٥). لنبتعد الآن عن مشاغل الحياة، ولندخل أنفسنا، ولنتأمل طويلا فى ذاك الذى هو الألف والياء فى الكتاب المقدس، والكل فى الكل لنفوس القديسين. ولنقترب الآن من شخصه المبارك، بالتأمل فى تلك الشخصية الرمزية - ملكى صادق، ملك ساليم.

إن فى جعل كهنوت المسيح، على طقس ملكى صادق، معنى ساميا، على أن فى جعل ملكى صادق، على طقس ابن الله، معنى أسمى. يخبرنا كاتب رسالة العبرانيين؛ أن ملكى صادق «مشبه بابن الله» (عب ٣:٧). إن المسيح هو المثل الأعلى لكل شئ، وهو منذ الأزل، يحمل كل الصفات التى تجعله لنا مثلا أعلى. وكأن تلك الصفات، لم تحتمل أن تبقى مستورة، إلى أن تستعلن فى ملء الزمان، ولذلك، برزت إلى الظهور، إذ كانت مسيرة الله مع بنى البشر، منذ القديم.

وهكذا، قام ذلك الكاهن الملكى، الرمزى، وحكم فى مدينته الهادئة، المسالمة، الأمينة، وسط الزوابع والاضطرابات، التى سادت العالم فى عصره، لكى يعطى البشر فكرة سابقة، عن تلك الحياة المجيدة، التى كانت تعيش فى السماء، نائية عن البشر، والتى كانت سوف تظهر فى ملء الزمان، فى عالمنا، فى نفس ذلك الموقع، الذى عاش فيه ملكى صادق، المشبه بالمسيح. آه، ليتنا نكون نحن أيضا كهنة، على طقس ملكى صادق، من هذه الناحية، وهى أن نتشبه بابن الله.

(١) كان ملكى صادق كاهنا:

لقد دل هذا الكوكب الساطع، فى تلك البرية المظلمة، على أنه كان هنالك قلب واحد على الأقل صادق فى ولائه وإخلاصه لله العلى، وعلى أنه سبق المسيح، فى حمل خطايا وأحزان الشعب الذى التف حوله. ويظهر أنه كان يرثى لضعفات جيله - وهذه هى العلامة الصادقة للروح الكهنوتى (عب ٤:١٥). وبذلك، اكتسب نفوذا قويا بين جيرانه، حتى إنهم اعترفوا دواما بمركزه الممتاز. يجب أن يكون للإنسان كاهن، لأن طبيعته تنفر من الاتصال بالله، الكلى القداسة. فأى اتفاق بين النجاسة والقداسة، بين الظلام والنور، بين الجهل والمعرفة؟

لقد رأينا البشر فى كل العصور، ينتخبون من بينهم، من يمثلهم أمام الله، ويمثل الله أمامهم. هذه غريزة طبيعية فى كل البشر، وفى كل العصور.

(٢) وذلك الكهنوت أتاه من الله ثم تأيد بقسم:

كان كهنة اللاويين، يمارسون وظيفتهم «بحسب ناموس وصية جسدية» (عب ٧:١٦). إنهم لم يمارسوها بسبب أى استحقاق، أو جدارة شخصية، ولا لأن الدعوى أتتهم من السماء، بل لأنهم ولدوا فى ذلك السبط المقدس. أما كهنوت المسيح، فإنه أسمى عطية للبشر، ولولاه، لكانت نفوسنا قد ظلت تائهة، فى برية جرداء. إن المسيح «لم يمجد نفسه ليصير رئيس كهنة» (عب ٥:٥) ولكنه «صار مدعوا منا لله رئيس كهنة على رتبة ملكى صادق» (عب ٥:١٠).

ومما يدل على خطورة ذلك الكهنوت، أنه تأيد بقسم «أقسم الرب ولن يندم أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكى صادق» (عب ٧:٢١). وهنا، نجد تعزية قوية حقا. فإنه، لا عدم أمانة البشر، ولا جحودهم، ولا أية قوة فى الوجود، تستطيع أن تغير ذلك الكهنوت. وإلهنا الأبدى الحق، لا يمكن أن يرجع عن ذلك القسم. ومن أجل هذا، يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول» (ع ٢٤). لهذا، يتهلل القلب ويفرح، لأنه، وإن كان يعيش فى هذا العالم المتقلب، المتغير، إلا أنه يستطيع أن يتصل أخيرا بصخر الدهور، ذلك الذى أقيم كاهنا إلى الأبد (عب ٧:٢٨).

(٣) كان هذا الكهنوت أيضا عاما:

لم يكن إبراهيم إلى ذلك الوقت، قد ختن. ولم يكن بعد يهوديا، بل كان لا يزال أمميا. وهو إذ وقف أمام ملكى صادق، ونال البركة من يديه الطاهرتين، وقف أمامه كأب، لأمم كثيرة. أما الكهنوت الذى على رتبة هرون، فلم يكن كذلك: فإنه لم يكن مصرحا لأحد بالدخول فيه، إلا إذا كان يهوديا، ولم تكن صدرة القضاء تحمل إلا أسماء اليهود. ولم يكن الكهنة يصلّون إلا عن حاجات اليهود، وخطايا اليهود. أما المسيح، فإنه كاهن للبشرية جمعاء. هو يجذب إليه «الجميع». ويكفى أن يكون لك ذلك الحق أمامه، وهو أنه أخذ طبيعتك. إن تقدمت إليه كخاطئ، محتاج إلى خلاصه، عندئذ؛ لا يمكن أن يردك خائبا. تقدم إليه، فهو كاهنك الأعظم، هو لك، وأنت له. قص عليه روايتك، لا تخبئ شيئا ولا تلطف أى شئ، ولا تتلمس المعاذير فى أى شئ. كل الأجناس، والشعوب، والأمم، والألسنة، تتجه نحوه، وهو يرحب بها، وفيه تجد سدا لكل احتياجاتها، مهما تعددت، وكانت لا حصر لها.

(٤) وهذا الكهنوت فاق رتبة أى كهنوت بشرى:

إن كان هنالك كهنوت، فاق كل كهنوت فى هذا العالم، فذلك هو الكهنوت الذى على رتبة هرون، قد لا يفوق كهنوت نينوى، فى القدم، وقد لا يفوق كهنوت المصريين، فى العلم والحكمة، ولكنه يمتاز بهذا الشرف الرفيع؛ إنه مؤسس بوجه عام، على كلمة الله. على أنه، حتى هذا الكهنوت - كهنوت هرون - يجب أن يقدم خضوعا لكهنوت ملكى صادق. وهذا ما حصل بالفعل، لأن لاوى، كان فى صلب إبراهيم عندما التقى به ملكى صادق، وهو (أى لاوى) أيضا، قدم العشور (فى شخص إبراهيم) إلى ملكى صادق، وسجد أمامه (فى شخص إبراهيم) - علامة على خضوعه له - لينال البركة ممن هو أعظم منه (عب ٧:٤-١٠).

(٥) وهذا الكهنوت امتزج بسر الأبدية:

لا داعى مطلقا، لتفسير ما جاء عن تلك الشخصية الرمزية، تفسيرا حرفيا، من أنه «بلا أب بلا أم. لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة» (عب ٧:٣). لأن الحقيقة التى أراد أن يوضحها الكاتب فى هذا المقام، هى أنه لم تصل إلينا معلومات عن هذه الأمور. إن سكت الكتاب فى أى موضوع، كان سكوته من ذهب، لقصد سام، وإن تكلم، كان كلامه من ذهب،

لقصد سام. ولا شك فى أن هذه المعلومات قد أخفيت عنا، لكى تزداد المشابهة بين الرمز وبين أمجاد المرموز إليه، الباقى معنا إلى الأبد. هو «القديم الأيام» (دا ٧:٩). وهو «ملك كل الدهور» (مز ١٤٥:١٣)، وهو «الكائن » (رؤ ١:٨). إن شمس البر، لا يعرف شيئا عن الفجر، أو الغروب، وهكذا أيضا كهنوته، وهو قد صار «بحسب قوة حيوة لا تزول» (عب ٧:١٦)، «هو حى كل حين ليشفع فيهم» (عب ٧:٢٥). وإن كان رائى جزيرة بطمس، قد رأى شعره أبيض كالثلج، فليس ذلك بياض الشيخوخة، بل بياض النار المتوهجة، وهو «يبقى إلى الأبد» (عب ٧:٢٤)، له كهنوت لا يزول، «هو هو أمسا واليوم إلى الأبد» (عب ١٣:٨)، هو يعمل معنا نفس ما عمله مع أقدم الآباء؛ ونفس ما سيعمله مع آخر، خاطئ على الأرض، يلتمس رحمته.

(٦) وكان هذا الكهنوت ملكيا:

يقول الكتاب عن ملكى صادق؛ إنه كان «ملك شاليم.. وكان كاهنا لله العلى» (تك ١٤:١٨). وهنا أيضا، تنتفى المشابهة بين هذا الكهنوت، وبين الكهنوت اللاوى. فقد كان الملوك بعيدين كل البعد عن الكهنوت، إذ نقرأ عن عزيا، أنه ضرب بالبرص، لأنه أراد أن يجمع بين الوظيفتين (٢ أى ٢٦:١٦-٢١). أما فى حياة المسيح على الأرض، فقد أمكن أن تتحدا فيه، بكيفية عجيبة. فإنه ككاهن، كان يرثى للبشر، ويعين ضعفهم، ويشبع نفوسهم. وكملك، كان يأمر الأمواج فتسكت، والرياح فتهدأ. ككاهن، صلى تلك الصلاة الحارة، العميقة، الشفاعية. كملك، كان يتكلم كمن له سلطان. ككاهن، لمس أذن ملْخُسَ [١]. وكملك، وعد اللص بالفردوس. ككاهن، نطق بالسلام لتلاميذه. وكملك، صعد إلى السماء، ليجلس على عرشه.

كان ملكى صادق (أو المسيح) أولا، «ملك البر»، وبعد ذلك، «ملك شاليم»، أى: «ملك السلام» (عب ٧:٢). لاحظ الترتيب، فإنه لم يقل بأنه كان أولا «ملك السلام»، بل كان أولا «ملك البر»، بر صفاته الشخصية. وهو ملك البر، البر الذى وفّى مطالب الناموس الإلهى المقدس. وعلى هذا الأساس، بنى «هيكل السلام» الذى إليه تلجأ نفوس البشر، وقت الزوابع والعواصف. «ويكون صنع العدل (البر)، سلاما، وعمل العدل، سكونا وطمأنينة إلى الأبد. ويسكن شعبى فى مسكن السلام، وفى مساكن مطمئنة، وفى محلات أمينة» (إش ٣٢:١٧

[١] راجع مت ٢٦:٥١؛ مر ١٤:٤٧؛ لو ٢٢:٥٠ و٥١؛ يو١٨:١٠ (مكتبة المحبة).

و١٨).

إيه أيتـهـا النفس! مـا هو مـوقـفك بإزائه؟ هنالك كـثـيرون يرحـبـون به كـاهنا، ولكنهم يرفضـونه ملكا. لا يكفى أن يكون كاهنا فقط. فـهـو إمـا أن يكون ملكا، وإلا رفض أن يكون كاهنا. وهو يجب أن يكون ملكا، بهذا الترتيب، أى يمنحك بره أولا، ثم سلامه الذى يفوق كل عقل. لا تضيع وقتك الثمين، فى المهاترة، أو المجادلة معه؛ بل اقبل الموقف كما هو، ودع قلبك أن يكون «سـاليم»، أى مـدينة السـلام، لكى يملك فـيـه إلى الأبد، كـملك وكـاهن. إنك لن تجـد أجدر منه، بأن يملك على قلبك، فـهـو الذى اتضـع، لكى يموت، «ورأيت فـإذا فى وسط العرش خروف قائم كأنه مذبوح» (رؤ ٥:٦). حقا، إن العرش هو المكان اللائق بذلك الذى أحبنا، حتى الموت.

(٧) وهذا الكهنوت يقبل العشور من الجميع:

«مـا أعظم هذا الذى أعطاه إبراهيم رئيس الآباء عشرا أيضـا من رأس الغنائم» (عب ٧:٤). وهذه العادة القديمة، تخجلنا نحن المسيحيين. فإن إبراهيم، رئيس الآباء، قدم لمثل المسيح، أكثر مما يقدمه الكثيرون منا للمسيح نفسه. إن كنت لم تفعل كذلك فى الماضى، فتعال الآن، واعزم أن تعطى ربك، عشر وقتك، وإيرادك، وكل مـا تمتلكه «هاتوا العشور إلى الخزنة» نعم أيها الرب المجد، إننا لا نريد أن نقنع بهذا؛ خذ الكل، لأن لك الكل «لك العظمة والقوة والمجد والغلبة والجلال، لأن كل مـا فى السماء والأرض هو لك. لك الملك أيها الرب،لأنك قد ارتفعت ملكا على الكل. لهذا فإننا الآن نشكرك ونسبح اسمك المجد».

الفصل العاشر

ثبات إيمان إبراهيم

«ولا بعدم إيمان ارتاب فى وعد الله
بل تقوى بالإيمان معطيا مجدا لله»
(رو ٤: ٢٠)

وردت فى هذا الإصحاح (تك ١٥) لأول مرة فى الكتاب المقدس، أربع عبارات بارزة، تكررت منها بشكل مختلف لقصد سام، ولنتأمل الآن فى «صار كلام الرب إلى... »، ثم نجد لأول مرة فى الكتاب، إن الله يقول عن نفسه إنه «ترس». ولأول مرة أيضا، نسمع هذه العبارة المطمنة «لا تخف». ولأول مرة فى تاريخ البشرية، نسمع هذه الكلمة القوية «آمن». وأى مجد للإنسان، أعظم من أن يستند على أمانة الله، فهذا هو معنى الإيمان الصحيح.

لقد «صار كلام الرب إلى أبرام» فى أمرين صريحين:

(١) أما أولا فإنه تكلم إليه عن مخاوفه:

كان إبراهيم قد عاد توا من كسرة كدرلعومر وحلفائه الملوك الآخرين، فى أقصى شمال كنعان، وكان لابد أن يحصل له رد فعل، من ذلك المجهود الشاق المضنى، الذى لم يتعوده، بعد أن استقر فى بلاده الهادئة، الوادعة، وفى معيشتهم البسيطة. ولا شك أنه فى حالته الذهنية هذه، كان سريع التعرض للخوف، كما يكون الجسم الضعيف سريع التعرض للمرض.

وكان هنالك سبب قوى للخوف. صحيح أنه كان قد كسر كدرلعومر، ولكنه بعمله هذا، قد حوله إلى ألد الأعداء له. كثيرا ما بطش ذلك الملك الجبار (كدرلعومر) بمدينة سدوم، فلماذا لا ينتقم الآن لهزيمته، ويبطش بذلك الإنسان الواحد، الأعزل؟ لأنه لا يمكن أن يعقل أن يهدأ بال ذلك الملك العاتى، إلا إذا غسل عار هزيمته بالدم. لهذا، كان معقولا جدا، أن يتوقع إبراهيم عودة غريمه، ليوقع به أشد القصاص. وفضلا عن كل هذا، فقد كان يسود إبراهيم، بين آونة وأخرى، شعور بالوحدة والوحشة، ثم شعور بالخيبة والفشل، ثم شعور بالرجاء

المماطل، والآمال المتباطئة، لأنه كان قد مر عليه أكثر من عشر سنوات، منذ دخل أرض كنعان. وكان الرب قد وهبه ثلاثة مواعيد متوالية، ملأت قلبه رجاء، ولكن مرور ذلك الزمن الطويل، كاد يبعث اليأس إلى نفسه، من جهة تحقيق هذه المواعيد، فلم يكن إلى ذلك الحين، قد ملك شبرا واحدا من الأرض، ولم تكن قد ظهرت له أية علامة لإعطائه نسلا، لم يكن قد تم شئ على الإطلاق، مما وعده به الرب.

وسط هذه الظروف، صار كلام الرب إليه قائلا «لا تخف يا أبرام، أنا ترس لك، أجرك كثيرا جدا». نعم، إن الله لا ينتظر دواما حتى نأتى نحن إليه، ولكنه كثيرا ما أتى إلينا بنفسه، إنه يقترب إلينا ونحن فى أعماق السجن كما فعل مع يوسف، وهو يرسل ملاكه ليهيئ لنا كعكة رضف وكوز ماء كما فعل مع إيليا (١ مل ١٩:٦)، وهو ينطق لنا بصوته العذب، رسالة السلام والعزاء، قائلا: «تشجعوا. أنا هو. لا تخافوا» (مت ١٤:٢٧).

على أن الله لا يسمح بأن يعطينا وعودا غامضة، بل يعطينا أساسا ثابتا للتعزية، مصحوبا بإعلانات جديدة عن نفسه. وكثيرا ما كانت نفس ظروف ضيقاتنا واحتياجاتنا، قد قصد بها الرب، أن تظهر بعضا من صفاته الإلهية، فأى شئ كان أكثر تأكيدا فى ذلك الوقت، لهذا الشخص المتغرب الأعزل، الهائم على وجهه فى الصحراء، بلا مدينة محصنة، أو مسورة، يتحصن فيها، قطعانه مشتتة هنا وهنالك، أكثر من أن يسمع بأن الله نفسه حوله، وبأنه ترس له، وإن كان لا يستطيع أن يراه؟ «أنا ترس لك».

وحالما سمع البشر هذا الوعد، تمسكوا به ولم يرخوه. لهذا؛ فإننا طالما سمعنا صدى ذلك الصوت، يرن فى النبوات، وفى المزامير، فى تسبيحات الهيكل، كما فى التأملات الروحية، الهادئة، «الرب شمس ومجن (أو ترس)» (مز ٨٤:١١)، «أما أنت يارب فترس لى» (مز ٣:٣)، «الرب عزى وترسى عليه اتكل قلبى فانتصرت» (مز ٢٨:٧)، «وتجعل لى ترس خلاصك ويمينك تعضدنى» (مز ١٨:٣٤)، «بخوافيه يظللك وتحت أجنحته تحتمى. ترس ومجن حقه» (مز ٩١:٤).

فى هذا الوعد، نجد قوة وعونا. فنحن فى كل يوم، نتعرض للأخطار المنوعة، أخطار من البشر، وأخطار من الشيطان، أخطار فى الليل، وأخطار فى النهار، مظالم، وافتراءات، وتهديدات. كل هذه تهدد حياتنا بالخطر المحقق. ولكن، إن كنا نتمم إرادة الله، ونتكل على عنايته، فلن تدنو ضربة من خيمتنا؛ لأن الرب يحيطنا بمحبته، ويظللنا برعايته، فلن تستطيع

قوة فى الوجود أن تنفذ إلينا. «كل آلة صورت ضدك لا تنجح» (إش ٥٤:١٧)، «لا تخشى من خوف الليل، ولا من سهم يطير فى النهار، ولا من وبأ يسلك فى الدجى، ولا من هلاك يفسد فى الظهيرة، يسقط من جانبك ألف وربوات عن يمينك. إليك لا يقرب» (مز ٩١:٥-٧). فطوبى لمن قد تعلم كيف يتحصن فى حمى القدير، لأن كل السهام التى تصوب نحوه تتكسر، وكل السيوف ترتد خاسرة، وكل نيران الخبث، والمكر، والشر، التى تندلع حوله تنطفئ.

على أن الله لا يحمينا من الخارج فقط، ولكنه أيضا «أجر» لكل نفس تحس بالوحدة، والعزلة. وكان الرب قد سأل إبراهيم عن مقدار ما يناله من أجر، إن كان الرب له «تعال الآن يا ابنى وتأمل. حتى إن كنت لم تملك شبرا واحدا من الأرض. حتى ولو انتصبت خيمتك منعزلة وسط استهزاء وسخرية كل من حولك، لكن اعلم بأنك لم تترك بلادك وتأت هنا عبثا. لأننى أنا لك. ألست تجد فىّ كل الكفاية؟ ألست أنا أجرا كثيرا جدا لك؟ ألا تجد فى صداقتك لى - إذ قد دعوتك «خليلا» - تعويضا لأية تضحية قدمتها من أجلى؟

إن إلهنا، الذى هو المحبة، المحبة فى أنقى روائها، وبهائها، وفى أقدس كمالاتها، وصفاتها، قد منحنا الكثير من نعمه، وبركاته، وقد وعدنا ببركات أكثر. على أن أعظم بركاته لنا هو أجر، و أجر كثير هو «أجر كثير جدا». هل ترى بأنه لا شئ لك؟ هل ترى حياتك مجردة من كل شئ؟ هل تركك المحبون والأصدقاء؟ هل ترى نفسك وحيدا مهجورا، من كل أصدقاء الصبا؟ حسنا.. ولكن؛ أجب على هذا السؤال الواحد الباقى: هل لك الله؟ لأنه إن كان الله لك، فإن لك كل المحبة، وكل الحياة، كل حلاوة، وكل رقة وعذوبة، كل ما يريح قلبك، ويبهج عقلك. فيه تجد مكنوزا كل شئ محبوب، كما تجد كل الألوان مخبأة فى أشعة الشمس، منتظرة أن تتحلل. إن كان الله لك، فإن كل شئ لك، ولو كنت محروما من كل شئ. وإن لم يكن الله لك، فأنت محروم من كل شئ، ولو كنت تملك كل شئ.

(٢) ثم تكلم معه عن حرمانه من النسل:

كان الوقت ليلا، أو كان الفجر قاب قوسين أو أدنى، وكانت ألوف النجوم تتلألأ فى كبد السماء. وكان أب الآباء نائما فى خيمته، عندما ظهر له الله فى الرؤيا. وفى هذه الرؤيا، استطاع إبراهيم أن يخبر الله عن كل ما فى قلبه. كثيرا ما نطقت شفاهنا بأمور، فى ظلام الليل البهيم، ولا نجسر على النطق بها، فى وضح النهار. وفى سكون الليل، كشف إبراهيم < عن مرارة قلبه. ولعله كان يتوق أن يتحدث بهذا الأمر، منذ زمن طويل، ولكن الفرصة لم تكن

قد حانت بعد. أما الآن، فلم يكن هنالك ما يدعو للتكتم، إذ كان الوقت قد حان، ليتحدث في مسمع من صديقه الأبدي «إنك لم تعطني نسلا، وهو ذا ابن بيتي وارث لي» (ع ٣)، وكأنه أراد أن يقول: إنني كنت أتوقع أمورا أعظم، لقد حفظت مواعيدك، وكنت واثقا من أنني سأعطي بجبسها ولدا من لحمي ودمي. ولكن السنوات الطويلة الماضية لم تحقق آمالي. ولعلي قد أخطأت فهم ما أردته لي. ولعلك لم ترد لي أكثر من أن يكون ابن بيتي، هو الذي يرث اسمي وممتلكاتي. ويا لها من خيبة أمل مرة؛ ولكنك هكذا فعلت، فلتكن إرادتك يا الله.

وهكذا، نحن كثيرا ما نخطئ فهم مقاصد الله، في تصرفاته معنا، ونفسر تأخيره في إجابة طلباتنا، برفضه إياها. كم من مجلدات يمكن أن تكتب عن تأخيرات الله. ألم تكن حياة يسوع مليئة بها من اللحظة التي تأخر فيها في الهيكل، تاركا أبويه، إلى اللحظة التي تأخر فيها في مكان، يومين كاملين، بدلا من أن يسرع ويعبر الأردن، إجابة لتوسل الأختين الحزينتين، اللتين أحبتهما نفسه. [١] وهكذا، لا يزال إلى الآن، يتباطأ في تحقيق آمال الكثيرين. وكل قصد الله في ذلك، هو تدريب النفوس البشرية، للصبر، والاحتمال، والانتظار، والرجاء. وفوق هذا، فإنه بذلك يفحص أعماق القلب، ويحلل العواطف، ويرفع النفس إلى فوق، لتبحث «أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيها» (١ بط ١:١١). كل هذه، تقترن بأيام الانتظار المملة، والتي هي عظيمة باختباراتها الروحية، مع أنها مملة.

على أن هذا التباطؤ، ليس هو آخر حلقة في تصرفات الله نحو النفس التي تنتظره. فإن هو إلا بمثابة الشتاء، قبل حلول الربيع، بخيراته وبركاته. «فإذا كلام الرب إليه قائلا: لا يرثك هذا، بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك.انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. هكذا يكون نسلك» (تك ١٥: ٤ و٥). ومن تلك اللحظة، كانت النجوم تسطع بلمعان جديد في عينيه، كأنها تزيد وعد الله تأكيدا.

«فآمن بالرب» (ع ٦). إنك لتدهش أيها القارئ العزيز، إذ ترى أن هاتين الكلمتين، طالما اقتبسهما رجال الله وقديسوه، في كل الأجيال المتعاقبة، وإنهما كانتا حجر الأساس، لأقوى الحجج التي شغلت الفكر البشري (انظر رو ٤:٣، غل ٣:٦، يع ٢:٢٣).

(١) لقد آمن إبراهيم قبل أن يتمم ناموس الختان اليهودي:

---

[١] راجع يو ١١:١-٤٤ (مكتبة المحبة).

لهذا، نرى بولس الرسول، يضع أهمية خاصة على هذه الحقيقة، لكى يبين أن الذين لم يكونوا ضمن شعب اليهود، يمكن أن ينالوا عطية الإيمان، بنفس المقياس الذى نالها به إبراهيم، ويمكن أن يحسبوا ضمن عداد أولاد أب المؤمنين - أولاده الروحيين (رو ٤:٩-٢١، غل ٣:٧-٢٩). لقد أعطى له الوعد، بأن يكون وارثا للعالم، بينما كان لا يزال متغربا، هائما على وجه الأرض. لذلك؛ فإن هذا الوعد ثابت لكل نسله - ليس للذين هم بحسب الناموس فقط، بل أيضا، للذين هم من إيمان إبراهيم، الذى هو أب لنا جميعا.

(٢) وآمن رغم الصعوبات الطبيعية القوية:

كانت كل المظاهر، تدل على أنه من المستحيل أن يكون لإبراهيم وامرأته، نسل. فاختبارات الأيام الطويلة، كانت تهمس فى آذانهما، بأن ذلك «مستحيل»، والطبيعة والمنطق، كانا يقولان لهما، إن ذلك «مستحيل»، وأى جماعة من الأصدقاء أو المشيرين، كان لا يمكن إلا أن تنطق بكلمة «مستحيل». أما إبراهيم، فإذ تأمل بهدوء، واتزان، فى كل ذلك، «لم يكن ضعيفا فى الإيمان» (رو ٤:١٩). وبعد ذلك، تأمل مليا فى وعد الله. وبعد أن وضع تلك الصعوبات فى كفة، ووعد الله فى كفة أخرى، فضل أن يضع كل اتكاله وثقته فى كلمة القدير. وليس ذلك فقط، ولكنه؛ إذ توالت عليه الصدمات، الواحدة تلو الأخرى، وإذ تعاقبت عليه الأمواج، وعصفت عليه العواصف، مهددة حياته بالخطر، لم يتزعزع، ولم يتزحزح قيد أنملة عن ثباته، لأنه وثق فى أمانة الله، وأعطى المجد ‹، وبإيمان كامل، اتكل على صدق الله المطلق«وتيقن أن ما وعد به قادر أن يفعله أيضا» (رو ٤:٢١). ليتك أيها الأخ العزيز، كلما تطلعت مرة فى الصعوبات التى تكتنف وعد الله، تتطلع عشر مرات فى الوعد نفسه. فهذه هى الطريقة التى يقوى بها الإيمان، «ولا بعدم إيمان ارتاب فى وعد الله بل تقوى بالإيمان» (رو ٤:٢٠).

(٣)أما إيمانه، فقد قصد الرب أن يمتحنه امتحانا شديدا:

عندما تمر الحجارة فى يد الصانع، يتجاوز عن الحجارة الزائفة، أو الحجارة التافهة. أما الحجارة الكريمة، فإنه يعطيها كل عناية، وقد تستغرق الواحدة منها بعض الشهور، حتى يصقلها، ويهذبها، فتخرج من يده نفيسة، لا شائبة فيها؛ وعندئذ، يعرضه جمالها عن طول

مدة الانتظار، ويعوضه عن التعب الشديد الذى بذله نحوها.

هكذا الحال مع البشر؛ فإن البعض يقضون الحياة، دون أن يجوزوا التجارب الكثيرة، لأن طبيعتهم زائفة، أو تافهة، لا تحتمل نار التجربة، أو لا تنتفع من التجارب التى هى ضرورية فى حياة الآخرين،إذ يخرجون منها، محملين بالبركات الوافرة. والله الأمين الذى لا يدعنا نجرب فوق ما نستطيع أن نحتمل؛ على أننا إن رأيناه قد سمح بتجربة أحد أولاده كإبراهيم، الذى لا شك فى أنه خرج من التجربة، بأطيب الثمرات، فينبغى أن لا نعجب، إن رأينا التجربة قد استمرت طويلا، ووصلت إلى أقصى حدود الاحتمال. لقد كان على إبراهيم أن ينتظر خمسة عشر عاما أخرى - مكملا بذلك خمسة وعشرين عاما- حتى يتم الوعد، بولادة إسحق.

(٤) ثم إن إيمانه حسب له برا:

الإيمان هو بذرة البر، لهذا؛ فإن الله عندما يرانا حاملين البذرة، يحسبنا حاملين أيضا، الحصاد الكامن فى قلب البذرة. الإيمان هو البذرة الصغيرة، التى متى نمت بنعمة الله، وبركته، صارت شجرة عظيمة، وارفة الظلال. عندما يؤمن المرء، فإن الأمر يحتاج إلى تدريب، وإلى وقت لنمو النواة التى بداخله. والله، الذى يعرف المستقبل، كما يعرف الحاضر، يحسب رجل الإيمان محملا بثمار البر، التى هى لمجد الله، وحمده. لكن، لا يزال هنالك معنى أعمق من هذا، هنالك معنى أعمق لامتلاك البر بالإيمان، فى نظر الله.

إن بر إبراهيم، لم ينتج عن أعماله، بل عن إيمانه، «فآمن إبراهيم بالله فحسب له برا» (رو ٤:٣)، «ولكن لم يكتب من أجله وحده أنه حسب له. بل من أجلنا نحن أيضا، الذين سيحسب لنا، الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات» (رو ٤:٢٣ و٢٤). يا له من عمل عجيب لنعمة الله. فإننا بمجرد الثقة فى ربنا يسوع المسيح، نحسب أبرارا فى نظر الله القدير. ونحن لا نستطيع أن ندرك كل المعانى المتضمنة، فى هذه الكلمات العجيبة. وكل ما نستطيع أن ندركه بوضوح، هو أن الإيمان يتحدنا اتحادا كاملا بابن الله، فنصير واحدا معه إلى الأبد، وعندئذ؛ تحسب لنا كل صفاته - ليست فقط، صفاته التى كانت له عندما أطاع

حتى الموت، بل أيضا، تلك التى قام بها من الأموات.

يظن البعض أننا بالإيمان، ننال برا منتسبا، كأن ذلك البر، شئ منفصل عن المسيح، يطرح فوق خرق الخطاة، المهلهلة. ولكن الأصح والأفضل، أن نعرف بأن هذا البر، هو اتحاد مبارك معه، بالإيمان؛ حتى إذا اتحد معنا، إذ صار خطية من أجلنا، نتحد معه نحن أيضا، إذ صار بر الله. لأن الله فى مشورته الأزلية، أرادنا أن نشترك معه فى كل شئ، لأننا بالإيمان الحى، قد صرنا أعضاء فى جسده، ولحمه، وعظامه. لقد صار المسيح لنا برا، ونحن قد قبلنا فى المحبوب (١ كو ١: ٣٠)، لأنه؛ إن هو إلا حلقة الاتحاد. ولكن، طالما كان هو الذى يتحدنا بابن الله، فإنه يأتى بنا، لنستمتع بكل ما له، باعتباره هو الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر.

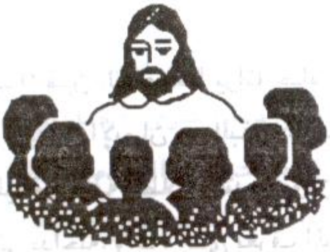

الفصل الحادى عشر

السهر مع الله

«لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد. وفى النهاية تتكلم ولا تكذب. إن توانت فانتظرها لأنها ستأتى إتيانا ولا تتأخر»

(حب ٢: ٣)

«جيدا أن ينتظر الإنسان ويتوقع بسكوت خلاص الرب»

(مراثى ٣ : ٢٦)

«إن كنا نرجو ما لسنا ننظره نتوقعه بالصبر»

(رو ٨ :٢٥)

ليس أمرا هينا أن نسهر مع الله، أو ننتظر الله. فإن محيط دائرة عنايته، متسع جدا. فى يديه الأجيال، والدهور، وألف سنة أمامه، كيوم واحد. أما نحن؛ فإننا نشقى فى الساعات القصيرة، المحدودة. وعندما نقف أمام أعماله معنا حائرين، مرتبكين، بسبب غموضها فى نظرنا.. عندئذ، يبدأ القلب يخور، ويضعف، وتخامره الشكوك، بعد أن كان يرعى الثقة الأكيدة، والإيمان الكامل. وعندئذ؛ يناجى نفسه قائلا: متى تسمح لى يا ربى، أن يكون إيمانى كاملا، فلا أخاف.

إن الصداقة البشرية، متى توثقت بين صديقين، فى هذا العالم، لا يمكن أن يؤثر فيها الفراق، أو الإبطاء. فقد تمر السنون، دون أن يسمع الصديق فيها صوت صديقه، أو تصله كلمة واحدة منه، وقد تصله عنه بعض الأخبار، محرفة، أو بعض الوشايات. ولكن، هذه كلها لا يمكن أن تؤثر فى صداقتهما، لأن كلا منهما، يثق فى صديقه، ثقة مطلقة. وهكذا نرى أن محبتهما ثابتة، لا يعوزها دليل يؤكدها، ولا دفاع، يزيل كل لبس عنها. فمتى يحين الوقت الذى فيه نعامل الله، بنفس هذه الطريقة؟ متى يحين الوقت، الذى فيه نثق به، ولو غمض فى نظرنا الكثير من أعماله، وتصرفاته؟ هل يمكن أن يحسب ذلك التدريب قاسيا، الذى ينتهى أخيرا بهذه

النتيجة النهائية، المباركة؟ عندما يستطيع المرء أن ينتظر السنوات الطويلة، دون أن يزعزعه الإبطاء، أو يملأ قلبه بالشكوك؛ فيقينا.. إن هذه هى السماء بعينها.

لم يكن إبراهيم إلى ذلك العهد، قد تعلم هذا الدرس. على أنه فى فجر ذلك اليوم المعهود – عندما بدأت توارى النجوم التى كانت ترمز إلى ذريته – قابل وعد الله الذى أكد له فيه، أنه سوف يرث الأرض التى لم يكن قد امتلك منها شبرا، بذلك السؤال المؤلم «أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها» (ع ٨).

وفى هذا السؤال، تتجلى الطبيعة البشرية. إنه لا يدل على أنه كان يشك كل الشك فى صدق الله، ولكنه يدل على أنه كان يتشوق للحصول على دليل ملموس، بأن يتم الأمر كما تكلم الله. كان يتشوق للحصول على علامة ظاهرة ثابتة، يستطيع أن يراها، فتؤكد له دواما، ذلك الميراث الموعود، كالنجوم التى كانت تؤكد له النسل الموعود. أيها القارئ العزيز! لا تتعجب من تصرف إبراهيم هذا، بل بالحرى؛ احترم تلك المحبة، التى تحتمل ضعف الطبيعة البشرية، والتى تتنازل بأن تحملهم فى كل خطوات الشك، حتى تأتى بهم إلى صخر الإيمان الوثيق.

(١) بجانب الذبيحة :

فى تلك الأيام السالفة، كانت الاتفاقات الكتابية بين الأشخاص فى الأمور المدنية، نادرة جدا، والأرجح، أنها لم تكن قد عرفت بعد، ولذا، كان الواحد إذا أراد أن يتعاقد مع آخر، ويلزمه بالمحافظة على شرف كلمته، يلجأ إلى الطقوس الدينية الرهيبة. فكان الطرفان يحضران حيوانات معلومة، ويذبحانها ويقسمانها إلى قسمين، ويضعانها على الأرض، الواحد مقابل الأخر، بحيث يترك ممر ضيق بينهما، وكان كل من الطرفين، يمر بين هذين القسمين، ليؤكد تعهده.

وقد كان الرب يشير إلى هذه العادة القديمة، عندما قال لإبراهيم «خذ لى عجلة ثلاثية، (عمرها ٣ سنوات)، وعنزة ثلاثية، وكبشا ثلاثيا، ويمامة، وحمامة.. فأخذ هذه كلها ، وشقها من الوسط، وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه» (تك ١٥:٩ و١٠).

كان ذلك فى الصباح المبكر، وجلس إبراهيم ليرقب الأمر، فمرت فترة سكون طويلة، ظل صامتا فيها ساعة بعد الأخرى، ليرى ماذا سيحدث، ولكن الرب لم يعط أية علامة ظاهرة، ولم ينطق بكلمة واحدة.

ارتفعت الشمس فى كبد السماء، رويدا رويدا، حتى حميت أشعتها الساطعة على هذه الحيوانات الملقاة على الرمال، ولم يكن أيضا صوت ولا رؤيا. حامت الطيور الجارحة النجسة، حول هذه الجثث، تريد التهامها، ولكنه كان ينتهرها (ع١١).

وهل خطر فى بال إبراهيم، أنه إنما جلس بجانب هذه الذبيحة، بجهل وغباوة؟ هل خطر فى باله – وهل قوى فى عقله هذا الخاطر – أنه ربما يكون قد فعل ما فعل، جريا وراء أوهامه، وإن الرب لن يأتى؟ وهل خجل من نفسه، بسبب نظر خدمه وزوجته له نظرات غريبة، لأنه وقف هذا الموقف الشاذ، الذى لم يستطع أن يقدم له مبررا.

نحن لا نستطيع أن نتكهن بحالة ذلك القلب، الذى امتحنه الله كل تلك الساعات الطويلة. ولكننا، على الأقل، ندرك هذا: إن ما حصل مع إبراهيم، يتفق تماما ونفس الامتحان، الذى يجب علينا أن نجوزه جميعا. قد تمر ساعات السهر مع الله، وتمر أيام الانتظار، قد تمر الليالى التى لا نعطى فيها وسنا لأعيننا، قد نتوقع معونة القدير، التى تأخرت، ونعجب، لأن السيد لم يأت. قد نصعد الجبل مرارا وتكرارا، ولا نحظى بالرؤيا المنتظرة، فنجد أخيرا، أن انتظارنا لم يأت بالنتيجة المرجوة، بل صار عبثا. كلا.. إنه ليس عبثا. فإن ساعات الانتظار الطويلة هذه، تعمل على بناء هيكل الحياة الروحية، بأحجار كريمة، ذهبا، فضة، حتى تصير جمالا، وكمالا، وفرحا، وبهجة، إلى أبد الدهور.

وليس علينا إلا أن نتمسك بالصبر، وأن ننتظر إلى النهاية، إلى أن تأتينا النعمة، على أن لا نسمح لليأس بأن يتسرب إلى نفوسنا. يجب أن لا نعطى مقاما للطيور النجسة؛ نحن لا نملك منعها من أن تحلق فوق رؤوسنا، أو أن تزأر بصرخاتها الأليمة، أو تحوم حولنا، تريد أن تبتلعنا، ولكننا نملك منعها من أن تستقر على رؤوسنا. هذا ما ينبغى أن نفعله بمعونة القدير «إن توانت الرؤيا فانتظرها» (حب ٢:٣).

(٢) ظلمة مرعبة :

أخيرا، غابت الشمس، وأرخى الليل سدوله؛ وإذ كان إبراهيم قد تعب من صراعه العقلى، ومن طول الانتظار، ومن مجهود النهار، فقد وقع فى سبات عميق. وفى نومه، تثقلت نفسه بظلمة كثيفة، كادت أن تحبس أنفاسه «وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه» (ع١٢).

هل تدرك أيها القارئ العزيز، قليلا من معنى هذه الظلمة؟ إذا أساء شخص فهم طبيعة الخطية، ومعنى رحمة الله، وحدودها، وخشى؛ لئلا يكون قد أخطأ خطية لن تغفر، أو لئلا يكون

باب التوبة، قد أوصد فى وجهه، إلى الأبد، إذا ساد الحزن الشديد قلب امرئ، وأبعدت عنه كل شعاعة من محبة الله، وشفقته، وطرح به فى بحر متلاطم الأمواج، بلا بارقة أمل فى النجاة، عندما تتوالى النكبات، والمظالم، والاضطهادات، على القلب الأمين، حتى يبتدئ يتساءل، عما إذا كان يوجد إله فى السماء، ينظر ويخلص! عندئذ، يدرك هؤلاء، قليلا من معنى رعب تلك الظلمة العظيمة. ويا له من أمر مزعج، عندما تمر الرؤى المرعبة، الواحدة تلو الأخرى، أمام الروح، فى حالة الظلمة هذه.

أما الرؤيا التى أعلنت لإبراهيم، فكانت فى طياتها، تاريخا مظلما طويلا، عن نسله؛ فقد رآهم غرباء، فى أرض غريبة، مستعبدين، ومذلين، فى العصور القادمة. ألم ير مرارة نفوسهم، والعبودية القاسية، التى سوف يرزحون تحتها، على يد مسخريهم، المسكين سياطهم؟ ألم يسمع أناتهم، ويرى الأمهات تبكين على أولادهن، الذين سيطوح بهم فى نهر النيل؟ ألم ير كيف تبنى الأهرامات، ومدينة المخازن، بالدماء والأشلاء؟ حقا، لقد كانت هذه الرؤيا، كافية بأن تملأ قلبه ظلمة مرعبة.

على أن هذه الظلمة المقبضة، تخللتها أشعة نورانية مبهجة. فقد رأى إبراهيم بعد ذلك مباشرة، أن أولئك المستعبدين، لابد أن يخرجوا بثروة غنية، وأن معذبيهم، سوف تحل بهم مصائب مروعة، جزاء لهم. رأى أن نسله لابد أن يعود إلى هذه الأرض ثانية. أما عن نفسه، فقد رأى أنه سيُضَم إلى قومه بسلام، ويدفن بشيبة صالحة.

وهكذا، تُقضَى الحياة البشرية عادة - بين الظلام والنور، بين الظلال وأشعة الشمس المشرقة، بين السحب القاتمة، والأجواء الصافية الرائقة. ووسط كل هذه المظاهر المختلفة، يعمل العدل الإلهى، ويتمم مقاصده، ويجرى أحكامه فى الأشخاص الآخرين، على قدم المساواة، مع النفس الواحدة، التى يبدو لنا، بأن الله يؤدبها تأديبا خاصا. فأبناء إبراهيم؛ يجب أن لا يرثوا أرض الموعد، حتى يفنى الجيل الرابع، لأن إثم الأموريين، لم يكن قد ملأ كأس خرابهم. وعندما أصبح إصلاح ذلك الشعب مستحيلا، وصار مرضهم عديم الشفاء، وأصبح بقاؤهم خطرا على سلام وطهارة البشرية - عندئذ - صدرت الإرادة الإلهية، باستئصالهم، ونقل سلطتهم إلى شعب آخر، أجدر منهم بالاحتفاظ بها.

فيا من قد ملأت قلوبكم «رعبة مظلمة عظيمة» بسبب تصرفات الله مع البشرية، تعلموا بأن تثقوا فى حكمة القدير التى لن تخطئ قط، والتى تتمشى جنبا إلى جنب مع عدله الكامل.

اعلموا بأن ذاك الذى جاز ظلمة الجلجثة المرعبة، بصرخاتها الأليمة، التى تصاعدت من أعماق قلبه، إذ قال «إلهى إلهى لماذا تركتنى»، مستعد أن يكون رفيقا لكم، فى وادى ظل الموت، حتى تروا ضياء الشمس مشرقة فى جانبه الآخر، «من الذى يسلك فى الظلمات ولا نور له. فليتكل على اسم الرب ويستند إلى إلهه».

(٣) تأييد الوعد :

لما استيقظ إبراهيم، «غابت الشمس وصارت العتمة» (ع ١٧). سادت الظلمة المسكونة، وصار هدوء عظيم، ثم تمت عملية تأييد الوعد الخطيرة، لأنه لأول مرة بعد خروج الإنسان من جنة عدن، ظهرت علامة مجد الرب، ظهر ذلك النور المرعب، الذى كان سوف يضئ بلمعانه البهى، فى عمود السحاب فيما بعد، والذى كان يرمز لحلول الله.

وسط الظلمة الحالكة، جاز ذلك النور الباهر «مصباح نار» وسط تلك القطع ببطء، وبعظمة، وفى أثناء اجتيازه، صار الصوت لإبراهيم «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (تك ١٥:١٨).

وقبل أن نتجاوز هذا المنظر، الذى رأينا فيه الله يلتزم بتقوية إيمان عبده، لنخرج منه بهذه الأفكار السامية عن صلاح الله، إذ يتنازل إلى هذا الحد، ليضمن ثقة نفس واحدة ضعيفة. ولنذكر بأننا نحن الذين يهددنا العالم، بأخطاره الكثيرة، قد أكد لنا الرب، الحياة والخلاص، بأمرين ثابتين، عديمى التغير، بالكلمة وبالقسم. فلنطرح المرساة - التى هى الرجاء - إلى ما داخل الحجاب الذى يفصلنا عن غير المنظور، ولنمسك بها، حتى نصل بسلام، إلى الميناء التى ضمنها لنا الرب، بمشورته الثابتة «فإنه لما وعد الله إبراهيم، أقسم بنفسه، قائلا إنى لأباركنك بركة وأكثرنك تكثيرا .. فلذلك، إذ أراد الله أن يظهر أكثر كثيرا لورثة الموعد، عدم تغير قضائه، توسط بقسم بأمرين عديمى التغير، لا يمكن أن الله يكذب فيهما، لتكون لنا تعزية قوية، نحن الذين التجأنا، لنمسك بالرجاء الموضوع أمامنا، الذى هو لنا، كمرساة للنفس، مؤتمنة وثابتة، تدخل إلى ما داخل الحجاب، حيث دخل يسوع كسابق لأجلنا، صائرا على رتبة ملكى صادق، رئيس كهنة إلى الأبد» (عب ٦).

الفصل الثانى عشر

هاجر.. الجارية المصرية

«وأما ساراى امرأة أبرام فلم تلد له وكانت لها
جارية مصرية اسمها هاجر»

(تك ١٦:١)

ليس منا من يدرك كل ما تتطلبه دعوة الله لنا من تضحية، لكى نترك مناظر حاران المبهجة، ونتبع الله إلى أرض الغربة.فإنه ليس من الهيّن أن نعيش حياة الغربة والاعتزال. ونحن إذ نخطو خطوة واحدة فى الأرض المجهولة، قد نكون فكرة غامضة عن هذه الحقيقة. لكن الله برحمته، يخفى عن أعيننا، ما لا داعى بأن يزعج نفوسنا، ويملأ قلوبنا رعبا وخوفا. ولكنه يكشف لنا فقط، مطالبه التى نستطيع احتمالها.

أما الصعوبات التى تتطلبها حياة الاعتزال، فإنها لا تنشأ من تحكم واستبداد العناية الإلهية، بل بسبب إصرارنا على الاعتماد على ذواتنا. إنه من الغباوة أن نظن، أن روح الاعتماد على الذات، تتلاشى نهائيا فى فجر الحياة المسيحية، كما أنه من الخطر أن نعلم الناس هذا التعليم. إن ظن أحد، أو افتخر، بأن روح الاعتماد على الذات، قد تلاشت فى داخله، فهو إنما يخدع نفسه. بل إن هذه الرذيلة تخدعه، لأن من أبرز صفاتها، أنها تخادع صاحبها، حتى يظن أنها قد ماتت فى داخله. ومثلها فى ذلك مثل عصابات اللصوص، التى تسر إذ ترى أن الجرائد قد أذاعت بأنها غادرت البلاد، لأن هذه الإعلانات الكاذبة، تخدر أعصاب السكان، فيظنون بأنهم قد أصبحوا فى أمان واطمئنان، وتحت ستار هذا الوهم الكاذب، تزداد العصابات بطشا فى أعمال السلب والنهب.

عندما نستودع حياتنا فى يدى الله فى بدء حياة التكريس، نظهر رغبتنا الحارة فى إماتة روح الاعتماد على الذات. وعندما نكون جادين فى هذه الرغبة، يتمم الرب عمله أولا، بأن يكشف لنا، بأن هذه الرذيلة الخبيثة الماكرة، موجودة فعلا بداخلنا، بخلاف ما كنا نظن، ثم بأن يصلبها معه على خشبة الصليب.

فيا من تعرفون بعض مكنونات حياتكم الداخلية، ألا تشهد قلوبكم، (كلما أشرق عليها قبس من نور السماء)، ببعض أعماله، رذيلة الاعتماد على الذات، فترون أنفسكم منساقين أولا، لطلب مغفرة الله، بسبب مهادنتكم لهذه الخطية، وثانيا، لطلب تدخل النعمة الإلهية، لتصلبها، لأن هذا هو الشرط الوحيد للنمو والبركة.

وهنا، نرى مع الألم الشديد، إعلانا واضحا، بأن الذات لا زالت متشبثة بإبراهيم. كنا نتوقع أن تكون قد استؤصلت قبل ذلك الوقت. إن العشر سنوات التى كان فيها ينتظر الله، ومواعيد الله المتكررة إليه، والصلة الوثيقة بينه وبين الله، كل هذه كانت، يقينا، كافية لإبادة كل أثر للاتكال على الجسد، وكل أثر للاعتماد على الذات، وكل رغبة فى أن يحاول بنفسه، تحقيق مواعيد الله. لا شك فى أن ذلك الرجل المحنك، كان يجب أن ينتظر، حتى يتمم الله مواعيده، فى الوقت الذى يراه هو، وبالطريقة التى يراها.

سبق أن رأينا إبراهيم، يرفض أن يأخذ من ملك سدوم، «خيطا أو شراك نعل» (تك ١٤:٢٣)، لأنه كان واثقا، بأن الله لابد أن يعطيه كل الأرض. وعندما قال له الله «أنا ترس لك. أجرك كثير جدا» لم يفشل. لهذا، كنا نتوقع منه أن يقاوم بشدة، كل فكرة تغريه على أن يحقق بنفسه، وعد الله الخاص بنسله، لأنه كان يجب أن ينتظر، بثبات واطمئنان، حتى يتمم الرب كلمته، بالطريقة الأفضل، التى يراها هو.

لكنه عوضا عن ذلك، يخضع لبواعث الظروف التى كانت تتفق مع أفكاره، ويسير وراء عاطفته، ويخطو خطوة تضمن له تحقيق وعد الله. إن الإيمان الثابت، ينتظر حتى يكشف الله إرادته وغرضه، واثقا بأن الرب، لا يمكن أن ينسى أو يكذب. أما الشك - وهو صدى الاعتماد على الذات - فإنه يقودنا إلى إتمام الأمور بأيدينا، كما فعل شاول، عندما قدم الذبيحة، دون انتظار وصول صموئيل.

(١) من أين أتته هذه البواعث :

«فقالت ساراى لأبرام» (ع ٢). مسكينة سارة، فإنها لم تنتفع بمواهب زوجها. ففى الوقت الذى كان يقف مناجيا الله، كانت هى تقوم بأعباء خدمة المنزل اليومية، كانت تهتم وتضطرب، لأجل أمور كثيرة.

كان الأمر صريحا، بأن إبراهيم، لابد أن يكون له ولد، ولكن الله لم يحدد بالذات، أن

الولد سيكون ابنا لسارة، كان إبراهيم يعتقد بوحدة الزوجة، ولكن، كانت الفكرة السائدة فى تلك الأيام، أنه لا مانع من أن يكون للرجل نساء أخريات، أقل مرتبة من الزوجة الأصلية، وكان أولادهن، يعتبرون كأنهم أولادها، فلماذا لا يتبع زوجها عادة أهل زمانه السخيفة، ويتزوج تلك الجارية المصرية، التى إما أن يكون قد اشترياها من أحد الأسواق المصرية، أو أهديت إليهما من فرعون، مع باقى الهدايا التى خلعها عليهما؟

كان هذا العمل تضحية عظيمة منها. لقد ارتضت أن تتنازل عن امتيازها كزوجة وحيدة معززة مكرمة، أن تضع عوضها امرأة أخرى، أن تتنازل عن مركزها السامى، الذى كان لها كل الحق فى التمسك به، حتى ولو ظهر بأنه يتعارض مع وعد الله. ولكن محبتها لإبراهيم، ويأسها من أن يرزق إبراهيم ولدا منها، وضعف إيمانها فى قدرة الله، بأنه قادر أن يحقق وعده بطرق أخرى، غير الطرق الطبيعية - كل هذه، دفعتها لتقديم اقتراحها، الذى لا يتفق مع طبيعتها كزوجة، فمحبة سارة، دفعتها لتخطى نواميس المحبة.

لا شك أنه إن كان قد تقدم بهذا الاقتراح أى شخص آخر، لما كان له أقل أمل فى القبول. ولكن، لأن سارة هى التى تقدمت به، فقد تغير الموقف. لعل هذا الهاتف، قد خطر على باله فى أوقات ضعفه، ولكنه كان يطرده من مخيلته فى الحال، لأنه يعد إساءة لزوجته الأمينة. أما الآن؛ وقد تقدمت إليه به زوجته نفسها، فلم يعد هنالك مجال للخوف. ومما عزز هذا الاقتراح، أنه كان متمشيا مع حساسية غريزته الطبيعية، ولكنه فى نفس الوقت، كان يحمل فى طياته علامات الشك فى قدرة القدير، لأنه كان يتضمن التعجيل فى تحقيق وعد الله. وبلا تردد، وبدون الرجوع إلى الله ، قبل إبراهيم هذا العرض «فسمع أبرام لقول ساراى».

إنه من أصعب الأمور عادة، أن يقف المرء فى وجه التجربة، إن كانت تتمشى مع الغريزة الطبيعية، أو عوامل الشك والخوف. وإذا لم يحفظنا الرب فى مثل هذه الساعة، أصبح الأمل ضعيفا فى مقاومة الهجوم المزدوج.

على أن للتجربة خطرا أشد، عندما تقدم إلينا، لا من عدو لدود، بل من صديق محب، من شريك لنا فى غربتنا، كسارة، يقبل أن يضحى كل شئ، لكى يحصل لنا على بركة وعدنا الله بها، ولم يمنحنا إياها بعد.

يجب أن نكون فى أشد الحذر، قبل أن نقبل أى اقتراح يعرضه علينا أى شخص دوننا فى التعمق فى الحياة الروحية، لأن ما يبدو حقا فى نظره، قد يكون شرا مستطيرا فى نظرنا. ويجب أن نحذر أشد الحذر، من قبول تلك الاقتراحات التى تتفق مع ميول الاعتماد على الذات «إذا أغواك سرا، أخوك ابن أمك، أو ابنك، أو ابنتك، أو امرأة حضنك، أو صاحبك الذى مثل نفسك .. فلا ترض منه، ولا تسمع له، ولا تشفق عينك عليه، ولا ترق له» (تث ١٣:٦-٨). ولكن، ألا يدل رضوخ النفس وقبولها لمثل هذه الاقتراحات، على أن روح الاعتماد على الذات، لم تمت بعد؟

(٢) المصائب التى جرتها هذه البواعث :

حالما تحققت الغاية، بدأت النتائج تظهر بمرارتها الشديدة، فى ذلك البيت الوادع، الذى كان مسكنا للقداسة والبركة، والذى دب فيه روح الشقاق، والانقسام، منذ ذلك الحين. فإن هاجر، إذ قد أصبحت منافسة لسارة، وإذ كانت بعد قليل، ستلد لإبراهيم الابن الذى طال انتظاره، وإذ أصبحت سيدة موقرة فى المحلة، احتقرت سيدتها العاقر، ولم تتكلف أى عناء، فى إخفاء احتقارها إياها.

كان هذا أكثر مما تستطيع سارة احتماله. كان سهلا عليها، أن تقدم مرة واحدة، تلك التضحية،التى قدمتها، ولكنه لم يكن من السهل، أن تحتمل كل يوم تلك الإهانات، من أمتها التى رفعتها بنفسها إلى هذا المركز. على أنها لم تكن محقة فى تغيظها، فإنها بدلا من أن تنسب مسئولية ذلك العمل إلى نفسها، نراها توبخ زوجها قائلة «ظلمى عليك. يقضى الرب بينى وبينك» (ع ٥).

ألا ينطبق هذا تماما على الطبيعة البشرية؟ فإننا كثيرا ما نخطو خطوة خاطئة، لا تتفق مع إرادة الله، وعندما نبتدئ ندرك خطأنا، نشكو من أن كبرياءنا قد جرح. وعوضا عن أن نلوم أنفسنا، نرمى المسئولية على غيرنا، ممن نكون قد أغريناهم للسير فى الطرق الخاطئة، ثم نوبخهم بعنف، من أجل الأخطاء التى قد سخروا فى تنفيذها، وكنا نحن الباعث الأصلى لها.

وقد نشأ عن هذه البواعث الجسدية، أحزان جمة:

١- **أحزان لسارة:** التى لا شك فى أنها فى ذلك الحين، وفى الأيام التالية، قد شربت

الكأس حتى الثمالة، كأس الغيرة، وجرح الكرامة، كأس البغض الذى يقوض عادة، أركان السلام والفرح فى داخل الإنسان. والذى طالما انبعثت منه الحمم، والمقذوفات النارية، من فوهة البركان.

٢- أحزان لهاجر؛ فقد طردت لتهيم علي وجهها، شريدة طريدة، وأبعدت عن ذلك البيت، الذى كانت تمنى نفسها، بأن تكون هى السيدة فيه، والذى كانت تظن، بأن بقاءها فيه، أصبح أمرا ضروريا. ويا لها من مرارة تلك الكأس« التى تجرعتها هاجر، كأس الخيبة والفشل.

٣- أحزان لإبراهيم؛ فقد كان مضطرا على مضض، أن تهجره تلك المرأة، التى كانت كل المظاهر الطبيعية، تنبئ بأنها عما قريب، ستكون أما لذلك الولد، الذى سيكون سببا فى بركة حياته، وفوق ذلك، فقد كان عليه أن يشرب كأس التوبيخ، والإهانات المتوالية من زوجته، التى لم يتعودها منها من قبل.

إن كان هنالك أى شخص، يقرأ هذه الكلمات، مجرب باستعمال الوسائط البشرية، والتدابير البشرية، لبلوغ أية غاية قد تكون فى حد ذاتها بريئة، فليكف عن الاتكال على الجسد، وليتخذ لنفسه درسا مما عاناه إبراهيم، لأننا فى كل مرة نلتجئ فيها للوسائط البشرية، نجر على أنفسنا أحزانا لا تحتمل، «من أجل أنك استندت على ملك أرام ولم تستند على الرب إلهك.. فقد حمقت فى هذا حتى أنه من الآن تكون عليك حروب» (٢ أى ١٦:٧-٩).

(٣) الشخص الذى وقع ضحية هذه التصرفات الخاطئة، وتمررت حياته فيما بعد :

نحن لا ندهش من تصرفات هاجر مع سيدتها، إذ عيرتها بوقاحة، فماذا يمكن أن ينتظر من جارية كهذه، بسيطة الأصل. ولكننا نحزن، عندما نراها، ونرى ربوات من النساء غيرها، صرن ضحية تصرفات الرجال الشهوانية، الطائشة، والأنانية. كان ممكنا أن تكون هاجر المسكينة، زوجة لرجل آخر فى مركزها، فتصير ربة عائلة هانئة. أما أن تؤخذ من مركزها الحقيقى، وتوضع فى مركز زائف، تصبح فيه أُمًا، دون أن تكون زوجة شرعية، فماذا ينتظر أن يكون نصيبها، سوى البؤس والشقاء، فى بيت لم يكن لها فيه مركز يليق بها، وأخيرا؛ فى الصحراء التى دفعتها إليها غيرة سارة مرتين، كانت أولاهما لوقت قصير، والثانية إلى نهاية الحياة.

أما إبراهيم، فإنه لأجل حفظ السلام فى بيته، لم يجسر أن يتدخل بين زوجته وجاريتها، «هو ذا جاريتك فى يدك، افعلى بها ما يحسن فى عينيك» (ع ٦). ولم تتردد سارة، فى أن تسلك بحسب هذه الموافقة الضمنية، فعاملت جاريتها بقسوة، حتى أنها «هربت من وجهها» وسلكت الطريق - الذى تسير فيه القوافل عادة - إلى أرضها ووطنها.

«فوجدها ملاك الرب على عين الماء» التى كانت معروفة فى أيام موسى. وهنا، لأول مرة، نقرأ عن ذلك التعبير الجميل، «ملاك الرب» الذى يعتقد الكثيرون، بأنه أحد المظاهر التى ظهر فيها ابن الله. عند تلك العين، جلست منهكة القوى، وحيدة. لا زال ملاك الرب، الآن، يلتقى بنا فى أوقات الشدة مرارا كثيرة، عندما نكون هاربين من الخدمة التى قد خصنا الرب بها، أو هاربين من الصليب. وهل يوجد سؤال، أكثر مناسبة، سواء لهاجر، أو لنا، من ذلك السؤال الذى سأله ملاك الرب، «من أين أتيت وإلى أين تذهبين»؟ أيها القارئ العزيز.. أجب على هذين السؤالين، قبل أن تتقدم لقراءة سطر آخر.. من أين بدأت المسير؟ وإلى أين ينتهى بك المسير؟

بعد ذلك، تلقت أمرا صريحا، ينطبق علينا كذلك، «ارجعى واخضعى»، سيأتى اليوم، الذى فيه يفتح الرب الباب بنفسه، ويخرج هاجر من المنزل (ص ٢١:١٢-١٤). ولكن، إلى أن يأتى ذلك اليوم - بعد ثلاثة عشر عاما - يجب أن ترجع إلى المكان الذى غادرته، وتحمل صليبها، وتؤدى واجبها على أكمل وجه، «ارجعى واخضعى».

كلنا نميل أن نتصرف كما تصرفت هاجر. إن كان عملنا مضنيا، ونصيبنا شاقا، وصليبنا ثقيلا، نهرب فى نوبة من الجزع، بسبب جرح كبريائنا، ونتنصل من التأديب، ونطرح النير عنا، ونتخذ لأنفسنا طريقا آخر، غير محفوف بالأشواك، ولكن، لنثق بأن هذه ليست هى الخطة السليمة القويمة؛ بل، يجب أن نعود من حيث أتينا، يجب أن نضع أعناقنا تحت النير، بوداعة وصبر، يجب أن نقبل النصيب الذى عينه لنا الله، حتى ولو كان نتيجة قسوة وخطية الآخرين. بالتسليم والخضوع نغلب، بالرجوع ننجو، بتقديم أنفسنا للقيود، نتحرر، «ارجعى واخضعى». عندما نتعلم الدرس كاملا، ينفتح باب السجن، من تلقاء ذاته.

وفى نفس الوقت، أبهج الرب قلب تلك المسكينة الطريدة، إذ منحها وعدا «تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة» (ع١٠). لقد كشف ملاك الرب كل نتائج الطاعة المباركة، وعندما تستوعب النفس هذه التأملات، فإنها لن تجد طريق العودة محفوفا بالأشواك بعد، بل مزدهرا

بالأزهار، والرياحين.

على أن الأمر، لا يقتصر عند هذا الحد، فإنه؛ علاوة على الوعد، تشرق على القلب الكسير، شعاعة من معرفة الله الحي، الذي يرى كل شئ، الحي لينتقم من المسئ، ويدافع عن البائس، المسكين، المظلوم، الذي يرى كل دمعة، وكل أنات النفس الكسيرة.

«أنت إيل رُئى» (أي إله رؤية، أو إله يرى). هذا ما دعت به هاجر، اسم الرب الذي تكلم معها، (ع ١٣). لست مثل آلهة المصريين العميا،ء التي تتطلع نحو الصحراء، بعيونها الحجرية، لها أعين؛ ولكنها لا تنظر. كان هذا خاطرا جديدا، خطر على عقل تلك الجارية، الجاهلة، ولو أنه فكر شائع بيننا. على أننا إذا ارتسمت أمام أعيننا هذه الحقيقة، في كل حين، استطعنا أن نجد معنى عميقا جيدا للحياة، وللواجبات الموضوعة على أعناقنا. فلنشخص إذا بأبصارنا، إلى ذاك الذي يرانا. لنردد دواما هذه الكلمات «الله هنا، الله قريب، الله يرى، إنه سيرتب، وهو سيدافع، وهو سينتقم»، «لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه» (٢ أي ١٦:٩، زك ٤:١٠).

الفصل الثالث عشر

كـــن كـــامــــلا

«أنا الله القدير، سر أمامى، وكن كاملا»
(تك ١٧:١)

ثلاثة عشر عاما كاملة، تقضت بعد عودة هاجر، إلى محلة إبراهيم. ولد الطفل إسماعيل، وكبر فى بيت أبيه، ومع أنه كان الوارث الرسمى للمحلة، إلا أنه بدأت تظهر عليه علامات الطبيعة الوحشية، التى تحدث عنها الملاك (ص ١٦:١٢). ولعل إبراهيم، قد روعته كثيرا هذه العلامات الغريبة، ومع ذلك، فقد اضطرمت أحشاؤه نحو الولد، والتصقت نفسه به، وطالما ردد هذه الطلبة، «ليت إسماعيل يعيش أمامك».

وفى كل هذه المدة الطويلة، يظهر لإبراهيم إعلان جديد، أو رؤيا جديدة. ومنذ تحدث الله معه فى حاران، لم تحصل هدنة طويلة كهذه. ولعلها كانت تجربة قاسية، تعيد إلى ذاكرته، ذلك الوعد القديم، فيتساءل عما إذا كان عدم تحقيقه راجعا إلى شخصه. مثل هذا الصمت الطويل، طالما اختبرته قلوب أولاد الله القديسين، فقالوا مع المرنم «يا صخرتى لا تتصامم من جهتى لئلا تسكت عنى فأشبه الهابطين فى الجب» (مز ٢٨:١). على أن هذا الصمت، يفعل فى القلب، ما يفعله صمت الشتاء فى عالم الطبيعة، إذ يعدها لانبثاق الربيع.

كثيرا ما يتوقع بعض الأشخاص، بحنين زائد، واشتياق عظيم، رؤى إلهية، أو إعلانات خاصة، أو أصوات سماوية. وإذا لم يتم لهم ما أرادوا، أحسوا بانكسار قلوبهم، وتاقت نفوسهم لظهور علامة خاصة، تؤكد لهم محبة الله، وقربه منهم. مثل هذا الاضطراب، خاطئ، بل له أضراره، وخطره. صحيح أن إعلانات كهذه، مبهجة للنفس، ولكن الله لا يريدها أن تكون ناموس الحياة المسيحية، بل هى تأتى كأمر مفاجئ. قد تأتى إلينا، كما تأتى العطلة الدراسية للطفل، فتملأ قلبه بهجة، ونشاطا. صحيح إننا فى غالب الأحيان، نحرم منها عندما نكون بعيدين عن الله، أو منغمسين فى الخطية. ولكن، ليس الأمر كذلك على الدوام. فإنه عندما يحرم أولاد الله، من هذه الرؤى المبهجة زمنا طويلا، دون أن يكون هنالك شعور بالخطية، فلنؤمن

بأننا قد حرمنا منها، لا بسبب خطية محسوسة، بل لاختبار الحياة الداخلية، ولكى يعلمنا الله، ضرورة الارتكاز على الإيمان، أكثر من الاتكال على تلك الإحساسات، مهما تكن مفرحة، أو على تلك الاختبارات، مهما تكن مقدسة.

وأخيرا «لما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، ظهر الرب له ثانية، وأعلن نفسه إليه، برؤيا جديدة، وكشف له عن شروط عهده معه، وألقى إليه ذلك النداء، الذى لا يزال صداه يرن فى أذنى وقلب كل مؤمن إلى الآن «سر أمامى وكن كاملا».

(١) الدعوة الإلهية :

«سر أمامى كاملا». هذه العبارة، قد أعثرت الكثيرين، مع الأسف الشديد. إنهم لا يخطئون إذ ينادون بأنها تتضمن اختبارا فى مقدور البشر، كما يفهم من منطوق الآية، ولكنهم يخطئون كل الخطأ، إذ ينادون بأن البشر ينتظر منهم أن يتمموها حرفيا، أو أنهم هم أنفسهم، تمموها.

يظن الكثيرون أن «الكمال» معناه، عدم ارتكاب الخطية، وبهذا التعريف، هم ينظرون إليه من وجهه السلبى، وقصروا عن أن ينظروا إليه، من وجهه الإيجابى. ولكن، لا شك فى أن «للكمال» معنى أسمى من «عدم ارتكاب الخطية».

والبعض يظنون، أن «الكمال» معناه، «الكمال الأخلاقى»، ولكن؛ لايزال هذا بعيدا عن مقدور البشر. وهذا التعريف، يدل على جهل بحقيقة الحياة الداخلية، وطبيعة الخطية. فإن الكمال المطلق، مستحيل، طالما كانت معرفتنا غيركاملة، لأننا إن كنا نزداد نورا ومعرفة كل يوم، فنحن كل يوم، نكتشف الشر فى الأمور التى كنا نستحسنها بالأمس. ولا شك فى أن الذين يدعون بأنهم يعيشون بلا خطية قط، سوف يضطرون إلى الاعتراف، بعد سنوات قصيرة – إن كانوا أمناء لأنفسهم –بأخطاء كثيرة كانوا لا يرون فيها شيئا من الشر بالأمس، وسواء اعترفوا بذلك، أم لا، فإن تقصيراتهم، تعتبر أيضا خطية، فى نظر الله القدوس، ولو لم يلاحظوها هم، بذهنهم السقيم.

أما عن «الكمال الأخلاقى»، فيكفى أن نقارن حياة أكمل رجل عرفناه، وبين كمال جمال الله المتأنس، لكى نشعر بخطأ هذه الفكرة. لا شك فى أن اعتراف الرسول بولس، عندما يقول «ليس إنى نلت أو صرت كاملا، ولكنى أسعى» (فى ٣:١٢) يليق بأن يكون

اعترافا لنا أجمعين. ولعله سوف يكون اعترافنا أيضا، فى أمجد ساعات الأبدية.

وفوق كل ذلك، إن كلمة «الكمال» لها معان، تختلف عما يفسرها به الكثيرون. فمثلا، عندما نقرأ أن إنسان الله، يجب أن يكون «كاملا» (٢ تى ١٧:٣)، فإن ذلك يعنى، أن يكون إنسان الله، مستعدا كل الاستعداد لعمله، كما يستعد الصانع بكامل الاستعدادات، لصناعته، فيأتى النجار إلى البيت، وبيده صندوقه، محتويا كل الآلات التى تلزمه فى عمله.

وأيضا، عندما نشترك فى الصلاة القائلة، «وإله السلام ليكملكم فى كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته» (عب ١٣: ٢٠ و٢١). نحن فى الحقيقة، إنما نطلب أن نتصل بالرب، كاتصال العضو بالجسد، حتى يكون هو كالرأس، يعمل فينا، أن «نصنع مشيئته».

وأيضا؛ عندما يأمرنا الرب قائلا «كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل»، فهو إنما يحثنا على عدم التحيز فى عمل الرحمة، كى لا نميز بين الأشرار، والصالحين، أو بين الأبرار، والظالمين، بل نوزع خيراتنا على الجميع، بلا تمييز (مت ٥:٤٣-٤٨).

إذن، فما هو المعنى الحقيقى «للكمال»، فى هذه الدعوة التى أمامنا هنا، «سر أمامى وكن كاملا»؟ إن مقارنة كل العبارات التى وردت فيها هذه الكلمة، لابد أن توضح معناها، ولابد أن تقودنا إلى هذا التعريف، «الإخلاص من كل القلب»، أو هو «كمال القلب»، وذلك يتضمن تسليم الحياة بكليتها لله. وقد يزيدنا إيضاحا، ما تغنى به أحدهم؛ إذ قال:

«يا ملك الحياة، ورئيس الحياة، ومكمل الحياة، نحن بنعمتك، نصبح أنقياء القلب، مخلصين من كل القلب، أمناء وأوفياء».

هذا «الإخلاص من كل القلب »، أو «كمال القلب»، هو ما كان يتطلبه الرب فى كل العصور، ولا يزال يتطلبه. هو ما رآه فى أيوب، وأحبه فى داود؛ هو الذى تبحث عنه عيناه فى كل الأرض، «لأن عينى الرب، تجولان فى كل الأرض، ليتشدد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه» (٢ أى ٩:١٦). هذا هو ما طلبه من إبراهيم، ولما رآه متوفرا بدرجة عظيمة، فى أخلاقه، وفى طاعته؛ قطع معه، ومع نسله عهدا أبديا.

ورجائى الآن لكل قارئ، أن ينتقل من هذه الصحيفة المكتوبة، إلى صحيفة قلبه، وحياته الداخلية، المقروءة من الله وحده، ويسائل نفسه هذه الأسئلة: «هل قلبى كامل مع الله؟

هل أنا مخلص له، من كل القلب؟ هل هو أول من يطلبه قلبى، فى كل تدبيراتى، ومسراتى، وصداقتى، وأفكارى، وتصرفاتى؟ هل مشيئته؛ هى ناموسى وشريعتى؟ هل محبته؛ هى بهجتى، ومسرتى؟ هل خدمته؛ هى غرضى؟ هل رضاؤه عنى؛ هو أسمى جزاء تتوق إليه نفسى؟ هل يشترك معه آخرون، فى حياتى؟» إن حياة تسليم القلب بكليته لله، لن يعادلها شئ فى الوجود. فلماذا لا تجدّ فى أثرها الآن؟ لماذا لا ترجع إليه، وتسأله فى خشوع ورهبة، أن يتسلم زمام حياتك الداخلية، ويتملكها إلى الأبد؟ «إن كانت عينك بسيطة، فجسدك كله يكون نيرا» (مت ٦:٢٢).

وهذا الكمال، لا يمكن الحصول عليه، إلا بالتدقيق فى السير. «سر أمامى وكن كاملا»، يجب أن نكون واثقين دواما، من أننا فى حضرة الله. وإن جازت أقل سحابة تحجب وجهه عنا، فلنبحث؛ لئلا يكون السبب خطية، أو بعض الخطايا، ولو كانت صغيرة، لا تسترعى التفاتنا. يجب أن نشعر دواما، بقربه منا، كالصديق؛ الذى لا نود أن نفترق عنه، فى أوقات العمل.. فى وقت الصلاة.. فى وقت الرياضة.. فى وقت الراحة.

لنحذر من الغضب، والتسرع، والتهيج، والجزع. فإن هذه كلها تصم آذاننا، عن سماع صوته المنخفض، الخفيف. لنتجنب كل خطة لم تكن بإرشاده، وكل عمل لم يرسلنا إليه. لنتعود بأن نحول أنظارنا عن الصديق، أو عن الكتاب، أو عن العمل الذى نقوم به، لنتطلع إلى وجهه.. بابتسامة المحبة. لنكن واثقين، من أنه فى رفقتنا دواما، وأنه هو الذى يتدخل فى كل حركة نأتيها.. بل، إنه هو الذى يتحرك فينا.

يجب أن يتم كل هذا. ومع ذلك؛ فإننا لن نشعر بأننا نعيش حياة الإكراه، أو حياة غير طبيعية. بل بالعكس؛ فإنه لن يعادلنا أحد فى الفرح، وبهجة القلب. كل حلقات حياتنا اليومية، تسير بانتظام، وجمال، كحلقات نور القمر البهيج، التى تتراكم حول هذا الكوكب، لأنه يخضع، بقانون الجاذبية، للشمس.

أتريد أن تسير أمام الله؟ إذن؛ فلا تدع شيئا فى قلبك، أو حياتك، تخشى من أن تكشفه لعين الله الطاهرة، الفاحصة، الشفوقة.

(٢) الرؤيا التى تركزت عليها هذه الدعوة :

«أنا الله القدير»، (وفى العبرانية) «ال شدى» أى:الله الشديد).يا له من اسم رهيب. أية رهبة قد ملأت قلب إبراهيم، الغارق فى التفكير؟ لقد كان يعرف الله، بأسماء أخرى، ولكنه

لم يكن قد عرفه بهذا الاسم. كان هذا الاسم، بدء سلسلة إعلانات، عن عمق المعانى التى ينطوى عليها اسم الله، والتى لا يدرك مداها. ولقد كان إعلان كل اسم، يحدد عصرا من تاريخ الجنس البشرى.

فى معاملات الله مع البشر، نجد بلا استثناء، أنه فى كل مرة، يدعو الله أى واحد من عبيده إلى مهمة جديدة شاقة، لابد أن يعلن له أولا، إعلانا خاصا، فائقا، لأن الوعد يفتح الباب دوما للوصية، والأمر. هو يعطى ما يأمر به، قبل أن يأمر بما يريد. وعلى هذه القاعدة، تصرف الله مع إبراهيم هنا. فإنه لم يكن أمرا هينا، ذلك الذى دعاه الله إليه. دعاه أن يسير أمامه دواما، عندما كان القلب ضعيفا، وعندما كانت قواه قد وهنت، وعندما اشتدت التجارب. دعاه أن يكون كاملا.. كاملا فى ولائه.. كاملا فى طاعته.. كاملا أمام تجارب الحياة، وغواياتها، دعاه أن يترك كل اعتماد على الذات؛ مهما كانت الظروف؛ وكل اعتماد على الآخرين. كان هذا أمرا، يستطيع أن يتمم كل ذلك، تحت شرط واحد - أن يقويه الله القدير، كما قال الرسول (فى ٤:١٣). لأجل هذا؛ رن فى أذنيه صوت التأكيد، والاطمئنان، «أنا الله القدير» كأن الله قد قال له «دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض... من قِدم أسستَ الأرض، والسموات هى عمل يديكَ... أنا الجالس على كرة الأرض، وسكانها كالجندب. أنا الذى أخرج بعدد جندها، أدعو كلها بأسماء. لكثرة القوة وكونى شديد القدرة لا يفقد أحد. أما عرفت أم لم تسمع. إله الدهر، الرب، خالق الأرض، لا يكل ولا يعيا» (مت ٢٨: ١٨، مز ١٠٢: ٢٥، إش ٤٠:٢٢-٢٨).

لا يزال الرب يؤكد كل هذا، إلى اليوم، وإلى نهاية الحياة. فإن تقدمت نفس نحو حياة العزلة، ولم تلتفت إلى أية معونة بشرية، ولم تتكل على أى مجهود شخصى، بل قنعت أن تسير مع الله، غير معتمدة إلا على معونته، فإنها لابد أن تجد، أن كل مصادر قوة الإله القدير، قد وضعت تحت تصرفها، وأنها تجد كل أعوازها فى إلهها، الكلى القدرة، وأنها لن يعوزها شئ.

فيا أولاد الله، لماذا تلتفتون يمينا أو يسارا، لطلب معونة الإنسان البشرى، الضعيف؟ إن كانت قوة الله فى مقدور القلب الكامل؟ يجب أن يتم هذا الشرط، قبل أن ننال معونة القدير «من يغلب فسأعطيه حصاة بيضاء، وعلى الحصاة، اسم جديد مكتوب». كان هذا

الاسم المكتوب على لؤلؤة لامعة، فى حالة إبراهيم، هو «أنا الله القدير»، وفى حال موسى، «يهوه»، أما ذلك الاسم الجديد، الذى لنا نحن، فهو، «الله أبو ربنا يسوع المسيح».

(٣) العهد الذى قطعه الله مع إبراهيم :

«فاجعل عهدى بينى وبينك» (ع ٢). وما العهد إلا وعد، يعطى فى حالة رهيبة، يربط الطرفين اللذين يقبلانه. وأنى للإنسان البشرى الفانى، أن يرفض الدخول فى عهد أبدى مع خالقه، «متقنا فى كل شئ ومحفوظا» وأثبت من الجبال الدهرية (٢ صم ٢٣:٥).

١- كان هذا العهد يشير إلى نسل إبراهيم:

وهنا، نرى تقدما مضطردا، ظاهرا فى الوعد. ففى حاران، كان الوعد الذى منحه الله هكذا، «أجعلك أمة عظيمة» (تك ١٢:٢)، وفى بيت إيل، تقدم الوعد، «عد النجوم إن استطعت أن تعدها. هكذا يكون نسلك» (تك ١٥:٥). أما هنا: فإن الرب يؤكد لإبراهيم ثلاث مرات أنه سيجعله «أبا لجمهور من الأمم»، وهذه العبارة، يفسرها الرسول بولس، أنها تشمل جميع الذين يشتركون فى إيمان إبراهيم، من كل أمم الأرض، ولو لم يكونوا من نسل إبراهيم، حسب الجسد (غل ٣:٧-٢٩). وتذكارا لهذا الوعد، أدخل تغيير طفيف على اسمه لكى يكون «أبا جمهور» (وهى معنى كلمة إبراهيم) حتى «يجعله أمما. وملوك منه يخرجون» (تك ١٧:٦).

نحن إن آمنّا، استطعنا أن ندخل ضمن حلقات ذلك العهد الذهبية، ونحن نستطيع أن نطالب، على الأقل، بالجزء الروحى من ذلك العهد، الذى قطع مع إبراهيم قبل الختان.

٢- وكان يشير إلى الأرض:

«وأعطى لك ولنسلك من بعدك، أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكا أبديا» (ع ٨). لا زال هذا الوعد ينتظر التحقيق. فإن هذه العبارة، «ملكا أبديا» لا يمكن إلا أن تشير إلى شئ آخر، خلاف ما رأيناه من تلك العصور القصيرة، التى حكم فيها نسله تلك البلاد، حكما منقطعا. ولا شك، فى أنه يأتى يوم، فيه يقيم الله - حافظ العهود - خيمة داود الساقطة، ويرمم خربها.

٣- وكان يشير إلى الابن الموعود:

لم يكن إبراهيم إلى ذلك الوقت، يفكر إلا فى أن يكون إسماعيل، هو وارثه. ولكن هذا لم يكن ممكنا أن يكون، (أولا) لأنه مولود الجارية، «والعبد لا يبقى فى البيت إلى الأبد» (يو

٣٥:٨)، (ثانيا) لأنه كان ابنا حسب الجسد، ولم يكن عطية مباشرة من الله. لقد ترك إبراهيم، حتى انقطع منه كل رجاء فى إقامة نسل له، كما انقطع من زوجته، منذ سنوات طويلة، وبذلك، يكون الوارث، من صنع الله القدير، الذى كشف له عن اسمه، قبيل الإعلان الخطير. هذا هو السبب الذى لأجله، يتركنا الله أحيانا، حتى ينقطع كل رجاء بشرى، وكل رجاء طبيعى، من قلوبنا، لكى يكون الله، الكل فى الكل «فقال الله، بل سارة أمرأتك، تلد لك ابنا، وتدعو اسمه إسحق».

إننا لا زلنا نجد حلاوة ممتازة، ختامية، فى هذه الكلمات، «أكون إلها لك ولنسلك» (ع ٧) التى كررت فى (عب ٨: ١٠) لتؤكد بأنها تشملنا أجمعين، نحن أيضا، إن آمنا. من ذا الذى يستطيع أن يصل إلى أعماق معنى هذه الكلمات؟ كلها نور، وليس فيها ظلمة؛ البتة.. كلها محبة، وليس فيها تغيير، أو ظل دوران.. كلها قوة، وليس فيها وهن. الجمال.. الحلاوة.. اللذة.. المجد.. العظمة؛ هذه كلها نجدها فى الله.. بل هذه كلها تصبح لك، ولى، إن قال لنا الله، «أنا أكون إلها لك».

هذا الميراث، لا يصبح لنا فحسب، بل يصير لأبنائنا أيضا، إن مارسنا إيمان إبراهيم. فإن الله يأخذ على عاتقه، أن يكون إلها، لنسلنا. على أنه يجب علينا، أن نطالب بإتمام هذا العهد، فلنطالبه بهدوء، وعزم ثابت، بأن يفعل ..كما تكلم.

الفصل الرابع عشر

علامــــة العهــــــد

«فأجعل عهدى بينى وبينك، وأكثرك كثيرا جدا»
(تك ١٧:٢)

فى ثلاثة مواضع مختلفة من الكتاب المقدس يدعى إبراهيم «خليل الله»:

(١) فى تلك الساعة المحزنة .عندما وصلت إلى يهوشافاط أنباء المحالفة الوثنية الى عقدت ضده، وقف فى الهيكل وقال« ألست أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد» (٢ أى ٢٠:٧).

(٢) وفى ختام بحث يعقوب الرسول عن الإيمان والأعمال؛ (قال لنا بأن إبراهيم لما آمن بالله «حسب له برا ودعى خليل الله» (يع ٢:٢٣).

(٣) بل وأفضل الكل،(استخدم الله نفسه تعبير «الصداقة»، واعترف بتلك الرابطة المقدسة التى بينه وبين تلك النفس التى اشتدت محنتها «وأما أنت يا إسرائيل عبدى يا يعقوب الذى اخترته نسل إبراهيم خليلى» (إش ٤١:٨).

ولعل من بين الأغراض التى من أجلها كتب هذان الإصحاحان فى سفر التكوين (١٧ و١٨)، إيضاح الدالة التى كانت هناك بين الله الأبدى، وبين الإنسان الذى تشرف بأن يدعى «خليله». وعلى أى حال، فيجب حين قراءتهما، أن لا نتوهم بأن هنالك شيئا فريدا فى بابه، أو خارقا للعادة، فى هذه القصة العجيبة. صحيح أنه لا شك فى أنهما يتضمنان تفصيلا صادقا لما حدث منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولكنه لا شك أيضا، فى أنهما قد كتبا لكى يكونا عينة للطريقة التى يريد الله أن يعامل بها كل أولاده الأمناء والقديسين فى كل العصور. لا يزال مستعدا أن يعاملنا نحن أيضا، بنفس تلك المعاملة، ويجعل علاقتنا به كعلاقة إبراهيم به.

لنتأمل فى هذه الكلمات التى قيلت فى القديم، فى ضياء نور المسيح، الذى سطع عليها حينما قال «لا أعود أسميكم عبيدا، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكن، قد سميتكم أحباء، أو (أصدقاء)» (يو ١٥:١٥).

لقد منحت لنا صداقة الله مجانا، في المسيح يسوع ربنا، فنحن من أنفسنا، لانستحقها، لأننا خطاة، أثمة، محتاجون إلى نعمته دواما. وحقا؛ إنه لسر عجيب، أن يطلب الرب صداقتنا نحن الجنس الساقط، سكان أجساد من تراب، نحن الدودة الحقيرة.

حقا، إنه لو أراد لكان قد أوجد، أو خلق جنسا آخر، أنبل، وأكثر طاعة، وإحساسا منا. أو على الأقل،كان قد أعد شخصا، لا يكلفه ذلك الثمن الغالي، لا يكلفه آلام جثسيماني، ودم الصليب. هذا قد يدور في خلدنا بعض الأحيان، ولكنه لم يكن ممكنا أن يحصل.فإن ما حصل، وما هو حاصل، لا يمكن إلا أن يكون أفضل ما كان ممكنا أن يحصل، طالما قد رتبته المحبة الأبدية، والحكمة اللانهائية. ولعله لم يكن ممكننا أن يصير صديقا، أو خليلا لله في كل العصور إلا من عرفوا النور، لأنهم عاشوا في الظلمة، ومن عرفوا الحق بعد أن سقطوا في حبائل الباطل، ومن يقدرون المحبة بعد أن شردوا في بلاد بعيدة، بذروا مالهم بعيش مسرف، ثم افتدوا بدم ابن الله الثمين.

ويا له من نصيب عجيب ينتظرنا، وفي مقدورنا الوصول إليه، نصيب تشتهي الملائكة الحصول عليه، ولكنهم لن يستطيعوا الوصول إليه، فإنهم لن يستطيعوا أكثر من أن يكونوا خداما، لهب نار، يفوقوننا قوة، ويصغون إلى كلمته. أما نحن، فقد أعطى لنا أن نكون أصدقاء الله (أو خليلي الله)، أبناء وبنات الملك العظيم، أعضاء في جسد المسيح، عروسه الرائعة الجمال. عندما يكتب القلم كلمات كهذه، يطفر القلب فرحا، ويؤخذ العقل، بنشوة السرور، إذ تتمثل أمامه الأمجاد التي تنتظرنا، سواء في هذه الحياة، أو في الأبدية الزاخرة بالأمجاد.

يا أصدقاء الله، وخليلي الله، لماذا لا تنتفعون بامتيازكم العجيب، بأكثر ما تستطيعون؟ لماذا لا تتحدثون إليه عن كل متاعبكم، وهمومكم، بكل حرية كإبراهيم، لماذا لا تتحدثون إليه عن إسماعيل، وعن لوط، وعن تصرفاته معكم؟ لماذا لا تسقطون على وجوهكم عندما يتحدث الله معكم (مت ١٧:٦)؟ يجب أن تكون الحياة حديثا واحدا، طويلا، مستمرا، بيننا وبين الله. يجب أن لا يمر يوم واحد على الأقل، دون أن نتحدث عن تاريخه، وعن كل ما تم فيه، من إلهنا المحب، الطويل الأناة، ونعترف إليه بأخطائنا، ونريح قلوبنا من نصف همومها، ومن كل مرارتها، إذ نتحدث إليه عن كل شئ. إذا تواضعنا أمامه، وصمتنا قدامه، سمعنا رنات

صوته الحلوة، وكلماته العذبة الهادئة، التى تكشف عن أعماق لم ترها عين، ولا سمعت بها أذن، ولكن الله أعدها للذين يحبونه وينتظرونه.

على أن هنالك ثلاثة شروط، يجب توافرها إن أردنا التمتع بصداقة الله، هى العزلة، والطهارة، والطاعة. وقد تضمنت هذه الصفات الثلاثة، فى فريضة الختان التى أعطيت لإبراهيم ونسله فى ذلك الوقت.

ويبدو أن الختان كان شائعا وقتئذ، بين المصريين وبعض الأمم الأخرى، حتى قبل أن يوضع كختم للعهد المقدس، بين الله وإبراهيم. ومع أنه كان موجودا من قبل، إلا أنه لم تكن له الصفة التى أعطيت له فى ذلك الوقت، كما كانت المعمودية موجودة من قبل، يمارسها يوحنا المعمدان واليهود من قبله، لكل تلميذ جديد بتغطيسه فى الماء، ولكن، لم يكن لها معناها وجمالها وقوتها، التى ألبسها إياها الرب يسوع.

كلنا نميل إلى الاعتماد- كثيرا أو قليلا - على العلاقات الحسية، والأمور المنظورة، ولم يشذ إبراهيم أو نسله عن هذه القاعدة، لهذا حسن فى نظر الله، أن يكون فى جسم شعبه علامة ثابتة، لتذكره بتلك العلاقة المقدسة التى ارتبطوا بها. وعلى هذا المثال، أقامت الكنيسة المسيحية، سر المعمودية، وسائر الأسرار التى بها ننال نعمة غير منظورة ، تحت علامة منظورة، أو محسوسة.

ولقد حفظ نسل إبراهيم، فريضة الختان بكل تدقيق. فموسى؛ لم يسمح له أن يبدأ خدمته، قبل أن يختن ابنه، والشعب؛ لم يسمح لهم بدخول أرض كنعان، قبل أن يدحرج عنهم عار مصر، ويختتنوا على عتبة أرض الموعد. لعلهم كانوا يتغاضون أحيانا عن تقديس السبت، أما ختان الطفل فى اليوم الثامن، فلم يتغاضوا عنه قطعا. قيل عن الطفل يسوع «ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبى» (لو ٢:٢١). وبولس قال عن نفسه إنه «مختون فى اليوم الثامن» (فى ٣:٥) حسب سنة اليهود، ولم يكن يسمح لأحد، بالتمتع ببركات ذبائح الخطية، وسائر الطقوس اليهودية، إلا إذا كان قد أتم الفريضة أولا. وقد بلغت باليهود شدة العناية بهذه الفريضة، حتى أنهم كانوا يعتبرون كل أغلف نجسا، لا يجوز لهم أن يواكلوه، أو يدخلوا بيته. ولقد كانت تهمة خطيرة، تلك التى وجهت إلى بطرس الرسول، أنه زار بيت كرنيليوس وأكل معه «إنك دخلت إلى رجال غلفة وأكلت معهم» (أع ١١:٣).

وحول هذا الموضوع، احتدم الجدال فى الكنيسة الأولى. فإن جماعة المحافظين، لم يمانعوا من أن يشترك معهم الأمم فى عضوية الكنيسة تحت شرط واحد، لا غنى عنه، وهو أن يختتنوا كاليهود. بل إنهم ذهبوا إلى مدى أبعد، إذ كانوا يؤكدون قائلين «إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع ١٥:١، ٢٤). ولم يكتفوا بأن يسود هذا التعليم فى أنطاكية وأورشليم، ولكنهم أرسلوا سفراءهم فى كل مكان، خصوصا تلك الكنائس الحديثة، التى أسسها الرسول بولس، بجهاده العنيف، وكانوا يشددون على ضرورة ختان كل متنصر حديث، قبل قبوله فى عضوية الكنيسة.

لم يكن ممكنا أن يكون هناك تهاون فى هذا الأمر؛ فإن كلا من المجمع الذى انعقد فى أورشليم، وبولس الرسول - مسترشدا بالروح القدس - أوضحا فى جلاء لا يشوبه أى لبس، سواء بالخطاب الدورى الذى أرسله المجمع، أو برسائل بولس، أن الختان، لم يكن إلا جزءا من الطقوس اليهودية المؤقتة. «إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئا» (غل ٥:٢)، «فى الإنسان الجديد ليس ختان وغرلة» (كو ٣:١١)، «فى المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا، ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة» (غل ٥:٦، ٦:١٥)، وبذلك، زال هذا الخطر عن الكنيسة، التى كانت مهددة بأن تسودها التعاليم اليهودية، وخرجت سالمة، وصارت لا تضم إلا كل الذين أحبوا الرب يسوع من قلب طاهر، بشدة، والذين اتكلوا عليه، وأطاعوه فى إخلاص.

وفى نفس الوقت، كان هنالك معنى روحى عميق فى هذا - كما فى كثير من الطقوس اليهودية الأخرى - انتقل إلى الكنيسة المسيحية، وأصبح ميراثا لنا اليوم. فبولس الرسول، الذى حارب بشدة طقس الختان فى اللحم، تحدث عن الختان الروحى، وقال عنه، إنه لا يصنع بيد بشرية، بل بعمل الروح القدس، وإنه يتضمن فى «خلع جسم خطايا البشرية» (كو ٢:١١). أيها الكاهن الأعظم المبارك، هذا هو ما نحتاجه: أشهر سكينا فى يدك، وعجل بأن تفصلنا عن سلطان الشر، واختن قلوبنا ختانا روحيا، ولو كلفنا ذلك الدماء «لأننا نحن الختان الذين نعبد الله بالروح، ونفتخر فى المسيح يسوع، ولا نتكل على الجسد» (فى ٣:٣).

إنه على قدر إدراكنا لمعنى الختان الروحى، يكون تمتعنا بعشرة الله، كأصدقاء الله، وخليلى الله، ونحن إن أردنا، فإن ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، يريد، ويقدر، أن يتمم لنا هذه النتيجة الروحية المباركة.

(١) العزلة :

كان يتضمن هذا الطقس، أن إبراهيم ونسله، قد أصبحوا شعبا مفرزا لله. ونحن على هذا الرسم، لا يمكن أن نقبل فى صداقة الله، إلا بهذا الشرط. يجب أن يكون سفك الدماء والموت، الصليب والقبر، حائلة بيننا وبين حياة الماضى، بيننا وبين كل محالفة مع الشر. إن المكان الوحيد الذى يمكن أن يلتقى المسيح فيه من أتباعه، هو خارج المحلة.

على أنه فى بعض الأحيان، قد يأتينا أمر صريح من الله، أن نبقى حيث كنا، حينما أتتنا دعوته أولا. ولكن ذلك، لا يكون إلا لأغراض خاصة للخدمة، والآن، الظلام يحتاج إلى النور، والفساد يحتاج إلى الملح. ولكن، فى معظم الأحيان، يرن الصوت فى آذان كل من يريدون أن يتذوقوا حلاوة العشرة الإلهية قائلا: «اخرجوا من وسطهم ،واعتزلوا، يقول الرب، ولا تمسوا نجسا، فأقبلكم، وأكون لكم أبا، وأنتم تكونون لى بنين وبنات» (٢ كو ٦:١٧ و١٨). كانت العزلة هى سر حياة إبراهيم، وهى المعنى الخفى لطقس الختان.

(٢) الطهارة :

«خلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح» (كو ٢:١١). لا يوجد شئ أعز لدى الله، من أن يحتفظ المؤمنون بطهارتهم، وسط الأجواء الفاسدة، أن يسلكوا فى ثياب لم تتدنس، حتى فى ساردس، أن تكون إحساساتهم رقيقة، ودقيقة جدا نحو النجاسة، كحساسية الأنف الحساسة جدا، نحو الرائحة الكريهة. هذه الحالة، كثيرة الثمن قدام الله، ويشترط توفرها ليعلن ذاته. «طوبى لأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله» (مت: ٥:٨).

إن الطهارة لا يمكن الحصول عليها، إلا بنعمة خاصة، من الروح القدس، وبإتمام أمرين (الأول) أن نبتعد حالا، عن كل كتاب، أو صورة، أو أى شئ آخر، يحرك فينا الأفكار الدنسة. (الثانى) أن نطلب من الله المغفرة فى الحال، حينما نشعر بأننا قد خضعنا – ولو لبرهة وجيزة – لإغراءات الجسد الشريرة.

يتطلع البعض فى الطهارة يائسين من أن تكون من نصيبهم، وهم ينسون أنها سهلة بنعمة المسيح فقط، وعمل الروح القدس، الذى نعترف بأننا هياكل له. فلنثق فيه، بأنه قادر أن يحفظ خاصته فى كمال القداسة، والطهارة، وهذا هو ختان المسيح.

(٣) الطاعة :

لعل هذا الطقس، كان يبدو أقل لزوما لإبراهيم، من لزومه لبعض أفراد محلته، ولكنه حالما تلقى الأمر نفذه «فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه، وجميع ولدان بيته، وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه، كما كلمه الله» (ع ٢٣). ألا يذكرنا هذا بقول المسيح «أنتم أحبائى(أو أصدقائى أو خليلى) إن فعلتم ما أوصيكم به). إن الطاعة السريعة، لكل ما يوصينا به الله، شرط لازم للتمتع بعشرته. وإن كانت المهمة شاقة ومضنية، وعسيرة، فتذكر بأن تطلب من الله، نعمة أكثر، لأنه لن توجد مهمة تدعى إليها، دون أن تكون هنالك قوة كافية لإتمامها، فى إمكاننا الحصول عليها، إن مددنا أيدينا لنأخذها.

ونحن لا نطيع، لكى نصير أصدقاء، لكننا إذا صرنا أصدقاء، نسرع فى الطاعة. المحبة أقوى من الناموس. لهذا؛ فإننا من أجل محبة ذاك الذى دعانا لصداقته، يهون علينا أن نتمم بسرور ما يعجز غيرنا عن إتمامه.

إن القلم ليعجز عن أن يتحدث عن الأسرار التى تعلن عن طريق صداقة شخص واحد مع الله، واللذات التى تختبر، البركات التى تغدق على جماهير فى تزايد مستمر. وعلى أى حال؛ فإن النفس تضحك مع ذاتها (ع ١٧) ليس بسبب عدم التصديق، بل، بسبب ما يطفح به القلب من فرح، وغبطة، لشعوره بالمحبة، وبالقبول أمام الله.

الفصل الخامس عشر

الضيـــف الإلهـــى

«وظهر له (لإبراهيم) الرب عند بلوطات ممرا»
(تك ١٨: ١)

إذا تنازل ملك وزار أحد رعاياه، تبارى الكتاب والمؤرخون فى وصف الحادثة بكل دقائقها، وكللت تلك العائلة، التى نالت شرف الزيارة الملكية، بمجد عظيم. فماذا نقول عن حادثة كهذه، رأينا فيها إله السماء، يصبح ضيفا عند عبده إبراهيم.

فى عصر ذلك اليوم التاريخى، عندما كانت كل الخلائق، تستظل من القيظ المحرق، زار أولئك الضيوف الثلاثة، خيمة إبراهيم. ولا شك فى أن أحدهم، كانت تبدو عليه علائم العظمة، والرهبة، والجلال. يخبرنا الكتاب المقدس صراحة، فى العدد الأول، أن الرب ظهر له «عند بلوطات ممرا، وهو جالس فى باب الخيمة، وقت حر النهار». وفى العدد العاشر، نري اللاهوت يظهر، فى لهجة الحديث، وفى ثنايا كلمات الوعد، الذى أكد لإبراهيم، أن سارة ستعطى ابنا يقينا. فمن ذا الذى يستطيع أن يخلق الحياة، ومن ذا الذى لا يعسر عليه أمرا، إلا الله. وعلاوة على ذلك؛ فإن الكتاب يخبرنا، أن ملاكين جاءا إلى سدوم مساء (تك ١٩: ١). ولا شك فى أنهما كانا ضمن ضيوف إبراهيم الثلاثة. أما الثالث، الذى كان هو المتكلم الوحيد أثناء الضيافة، فإن عظمته قد تجلت فى ذلك الحديث العجيب، الذى جرى على مرتفعات ممرا، عندما كان إبراهيم «لم يزل قائما أمام الرب» يتشفع إليه، كديان كل الأرض (تك ١٨: ٢٢).

وهكذا، رأينا ابن الله يعلن مقدما، ويظهر فى الهيئة كإنسان، قبل أن يأخذ جسدا. فإنه قد أحب أن يأتى متنكرا إلى بيوت الذين اتخذهم له أصدقاء، قبل أن تطأ أقدامه إلى منحدر جبل الزيتون، ليتخذ بيت العازر مقرا له يستريح فيه من ضوضاء المدينة العظيمة، أورشليم، ويستعد للصليب، ثم للقبر. «فرحة فى مسكونة أرضه (أى فرحت بالأرض المسكونة) ولذاتى مع بنى آدم» (أم ٨: ٣١).

يا له من أمر عجيب، خليق بنا أن نتساءل بوقار ورهبة، مع سليمان، عندما أحس بأن ذلك الهيكل، مع عظمته، لا يليق سكنا للإله الأبدى القدير، فقال «هل يسكن الله حقا على الأرض. هو ذا السموات وسماء السموات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت» (١ مل ٨:٢٧).

على أن هذا السؤال، قد أعطى عنه الرب بنفسه، الجواب الشافى فى تلك الكلمات الخالدة «هكذا قال العلى المرتفع، ساكن الأبد، القدوس اسمه. فى الموضع المرتفع المقدس أسكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأحيى روح المتواضعين، ولأحيى قلب المنسحقين» (إش ٥٧:١٥). ولقد كانت حياة ربنا، ومخلصنا، تفسيرا جميلا لهذه الحقيقة العظيمة. فمرة، نراه يقول لأحد العشارين «يا زكا أسرع وانزل، لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك». ومرة أخرى، يدخل بيت بطرس، وهناك تخدمه سيدة من أهل البيت، كان قد أقامها من أبواب الموت. وبعد قيامته، يدخل بيت التلميذين المتواضع، اللذين رافقاه فى المسير من أورشليم، لكى يكفكف دموعهما، التى ذرفاها أثناء المسير.

على أن الأمر لا يقتصر عند هذا الحد. بل، إنه لا يوجد قلب متواضع، لا يسكن فيه الله. ولا يوجد بيت وضيع، لا يحل فيه ضيفا محبوبا. ولا توجد مائدة فقيرة، لا يجلس عليها ليحول الماء خمرا، ويبارك الأرغفة والسمكات، ويبدل الطعام البسيط، طعاما روحيا. وإذا ما جلس على مائدة من يحبهم، فإنه لا يزال، إلى الآن، يأخذ خبزا، ويبارك ويكسر ويناولهم (لو ٢٤:٣٠). هو لا يزال واقفا على أبواب قلوب الجميع، ويداه محملتان «ذهبا مصفى بالنار .. وثيابا بيضاء.. وكحل»؛ قائلا لكل واحد «ها أنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتى وفتح الباب، أدخل إليه، وأتعشى معه، وهو معى» (رؤ ٣:١٨-٢٠).

واضح أن إبراهيم، لم يفهم فى بداية الأمر، كل معانى ذلك الحديث الذى اشترك فيه، كما يحدث معنا كثيرا، عندما نقصر عن أن نقدر كل التقدير، أولئك الذين نحتك بهم ونتحدث إليهم. وإذا ما تحولوا عنا نهائيا، تحققنا عندئذ فقط، أننا كنا نضيف ملائكة ونحن لا ندرى، فليعطنا الرب أن نتصرف بحكمة في كل زمان وفى كل مكان، حتى إذا ما استعدنا فى ذاكرتنا تصرفات الماضى لا نجد ما نندم عليه، ولا نوبخ أنفسنا، لأننا أهملنا هذا أو ذاك الذى كان يجب أن نفعله لو أننا أدركنا حقيقة الموقف.

كان إبراهيم كريما فى إضافة زائريه بكل معانى الكرم الشرقى.

فإنه «ركض لاستقبالهم.. وسجد إلى الأرض» (ع ٢)، وقدم إليهم ماء لغسل أرجلهم، وهيأ لهم مكانا تستريح فيه أجسادهم المنهكة، تحت الشجرة الوارفة الظلال؛ ثم طلب من زوجته أن تسرع بثلاث كيلات دقيقا وتعجنها، وتصنع منها خبز ملة [١]. ثم ركض إلى البقر واختار أجود العجول دون أن يكل هذا الأمر لشخص آخر.. ووقف يخدم الضيوف بنفسه كخادم بينما كانوا يتناولون الطعام تحت الشجرة.

لعل المسيحيين،إذا ما تأملوا فيما صنعه إبراهيم مع هؤلاء الغرباء الثلاثة، يجدون أنفسهم مقصرين جدا من هذه الناحية، ويتعلمون درسا ثمينا فى كرم الضيافة. كان لإيمانه القوى من نحو الله، تأثير عظيم فى علاقته من نحو البشر، ولم يكن فى أخلاقه شئ من الشدة، أو الغلظة، أو العبوسة، ولكنها كانت تطفح بشرا وسرورا، وعطفا ورقة، ومحبة وعذوبة.

ألا يأتينا المسيح كثيرا متنكرا فى هيئة ضيف غريب.

ولكننا بسبب مشاغلنا المتزايدة، أو بسبب همومنا المتزاحمة؛ إما نرفضه رفضا باتا، أو نعامله بغلظة وفظاظة، فيعبر عنا - دون أن نشعر - حاملا لغيرنا البركات، التى كان ممكنا أن تكون من نصيبنا، لو أظهرنا بأننا أهل لها.

ولعله يقصد من مجيئه إلينا متنكرا، أن يختبرنا. وطبيعى أنه لو أتانا بمجده، وجلاله، كابن العلى، لاستقبله الجميع بأسمى مظاهر الترحيب. ولكن ذلك لا يبين صفاتنا الحقيقية. لهذا؛ يأتينا فى شكل عابر سبيل، جائعا وعطشانا، أو فى شكل غريب، عريانا ومريضا. وأقرباؤه هم الذين يظهرون له الرحمة، مهما ظهر متخفيا، حتى ولو لم يعرفوه، وفى النهاية، يندهشون، عندما يعلمون أنهم كانوا يخدمونه. أما الذين ليسوا من خاصته، فإنهم لا يعرفونه، ويدعونه يَجوز عنهم بخفى حنين، وسيستيقظون ليسمعوا ذلك الصوت المرعب «بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر، فبى لم تفعلوا» (مت ٢٥:٤٥).

هنالك شئ كثير من الحق، فى بساطة ذلك الولد الصغير، الذى ترك الباب مفتوحا، حتى يدخل الرب، ويجلس معه ومع أمه، ليتعشى معهما على مائدتهما المتواضعة، ولما مر بالباب شحاذ يطلب صدقة، قال: لعل الرب لم يستطع الحضور بنفسه، فأرسل إلينا ذلك الرجل المسكين، نائبا عنه.

[١] خبز يخبز على الحجارة المحماة ، وكان من أجود أصناف الخبز (١ مل ١٩:٦).

على أن الرب لن يسمح بأن ندانيه:

فإنه كملك الملوك، الجواد الكريم، وكإله كل النعم والخيرات، يعوضنا عن كل ما أنفقناه فى إضافته. إذا ما استعمل سفينة بطرس، ردها إليه زاخرة بالسمك الكثير، الذى دفعه فى الشباك، وإذا ما أضيف فى عرس قانا الجليل، وهب أصحابه جرارا مملوءة خمرا، نظير لقمة صغيرة تبلّغ بها فى ذلك العرس. وإذا ما أخذ من الغلام خمسة أرغفة الشعير والسمكتين، رد إليه اثنتى عشرة قفة. وإذا ما أرسل نبيّه ليقيم عند أرملة، هيأ له ولها، دقيقا وزيتا، يكفيان لإعالتهما أياما طويلة. وإبراهيم؛ لم يخسر بسبب كرمه، لأنه بينما كان الضيوف يتناولون الطعام، أنبأه الرب بميلاد ابن لسارة «إنى أرجع إليك نحو زمان الحيوة، ويكون لسارة امرأتك ابن» (ع ١٠).

أما سارة، فكانت جالسة داخل خباء الخيمة، متحجبة، كعادة الأشراف من أهل ذلك الجيل. وإذ سمعت هذه الكلمات، ضحكت فى نفسها ضحكة تنم على عدم التصديق. وفى الحال، لوحظت تلك الضحكة، بواسطة ذاك الذى لا يخفى عليه شئ، والذى تتقد عيناه كلهيب نار. «فقال الرب لإبراهيم، لماذا ضحكت سارة قائلة، أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. هل يستحيل على الرب شئ» (ع ١٣ و١٤).

وببساطة غريبة، أجابت وهى داخل خبائها منكرة بأنها ضحكت، لأنها خافت، ولكن إجابتها قوبلت بكلمات التأكيد التى كانت هى القول الفصل «لا بل ضحكت» هذه الكلمات الوحيدة التى سمعت، التى نعرف أنها تمت بين الله وزوجة إبراهيم، وهى تبين أن حياتها كانت سطحية، تميل إلى الشك، وعدم التصديق. على أننا يجب أن لا نشدد النكير عليها، فإنها لم تكن لها الفرص التى كانت لزوجها. وعلى أى حال، فيظهر أن هذه الكلمات، قادتها إلى الإيمان الحى، لأننا نقرأ عنها هذه الكلمات «بالإيمان، سارة نفسها أيضا، أخذت قدرة على إنشاء نسل، وبعد وقت السن، ولدت، إذ حسبت الذى وعد صادقا» (عب ١١:١).
هذا هو الناموس الحقيقى للإيمان:

لا تنظر إلى إيمانك، أو إلى إحساساتك، بل انظر إلى كلمات الوعد، وانظر فوق كل شئ، إلى من وعد. تأمل فى عنايته الفائقة الحد، التى تضبط عالم النجوم، بنظام ثابت لا يتزحزح قيد أنملة. هل تأخر أى كوكب منها عن ميعاده، أو هل اختل نظام تغير فصول السنة الأربعة؟ تأمل كيف تمم كلمته عن كل الأمم فى القديم، التى لا تزال مدنها الخربة

تشهد على دينونته لتلك الأمم. هل حدث أن غير كلمة واحدة من كلامه؟ هل هناك ما يبرر عدم محافظته على كلمته؟ هو الكلى القدرة؛ وهل يعقل أن يعد بما لا يستطيع إتمامه «لأن الذى وعد هو أمين» (عب ١٠:٢٣). حول نظرك عن الإيمان إلى الوعد، ثم حوله عن الوعد، إلى من وعد. وكما أننا عندما نتطلع إلى أى شئ، ونحدق فيه البصر، نوقن بأن لنا قوة الإبصار، كذلك، عندما نتطلع إلى الله الأمين، نحس بوجود الإيمان، ونموه.

«هل يستحيل على الرب شئ؟»

هذا أحد أسئلة الله التى ليس لها جواب. لقد بقى هذا السؤال ثلاثة آلاف سنة، يرن فى آذان ربوات البشر، وليس من يستطيع أن يعطى جوابا، إلا تلك الكلمات التى نطق بها إرميا، والتى لا يمكن لإنسان بشرى، أن ينطق بأكثر منها «آه أيها السيد الرب، ها إنك قد صنعت السموات والأرض، بقوتك العظيمة، وبذراعك الممدودة. لا يعسر عليك شئ» (إر ١٧:٣٢).

ربما يبدو لك أمرا مستحيلا، أن يتمم الرب وعده، فيما يختص بتجديد ذلك الصديق، الذى أمرت أن تصلى من أجله (١ يو ٥:١٦). ربما يبدو لك أمرا مستحيلا، أن ينقى الرب أخلاقك مما علق بها من أقذار، أن يصلب الإنسان العتيق، أن ينقذك من كل الأفكار الشريرة، ويستأسر كل فكرة لطاعة المسيح، أن يخلق منك إنسانا وديعا، رقيقا، لطيفا، متسامحا، محبا. أن يجعل حياتك مثمرة، ثمارا شهية. قد يكون كل ذلك مستحيلا من وجهة النظر البشرية، ولكنه لن يستحيل على الرب شئ؛ فإنه «عند الله كل شئ مستطاع» (مت ١٩:٢٦). كل شئ مستطاع للمؤمن، كما اختبرت سارة.

إن الأمر الوحيد الذى يعطل عمل الله، هو عدم إيماننا. يجب أن تؤمن سارة، وكذلك إبراهيم، قبل أن يولد ابن الموعد؛ وهكذا الحال معنا، نحن أيضا. فإننا حالما نؤمن، يكون لنا حسب إيماننا، بل أكثر بكثير جدا مما نطلب، ومما نفتكر.

قد يبدو أمرا مستحيلا، أن تغفر كل الخطايا الماضية، ولكن هذا ما يفعله الله لكل نفس تائبة، تؤمن «بهذا (بالمسيح) يتبرر كل من يؤمن من كل شئ» (أع ١٣:٣٩)،قد يبدو أمرا مستحيلا، أن تكتسى نفوسنا العريانة، بثياب يليق أن تقف بها فى القصر الملكى، ولكن، هذا ما يحصل إن كان لنا إيمان، لأن بر الله يحسب «إلى كل، وعلى كل الذين يؤمنون» (رو

٢٢:٣). قد يبدو أمرا مستحيلا، أن يتحول العصاة المتمردون إلى أبناء، ولكن، هذا ما يحصل أيضا، لأن كل الذين يقبلونه، يعطيهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله. (يو ١٢:١).

لعلك تسأل: وكيف يمكن الحصول على هذا الإيمان؟ تذكر أن نعمة الله، هى التى تمنح النفس ذلك الإيمان، وهى التى تحفظه من أن يتلاشى. فالمسيح هو «رئيس (باعث) الإيمان، ومكمله» (عب ٢:١٢). ليس هذا مجرد كلام نظرى، بل هذا ما تتحققه النفس فى اختبارها العملى. الإيمان؛ هو عطية الله. فإن أردت الحصول عليه، ركز إرادتك فى المسيح، ركز كل إرادتك، وليس مجرد رغبة، تعبر وتزول. لتكن كل إرادتك، أن تؤمن إيمانا ثابتا أكيدا. لتكن عيناك شاخصتين دواما، نحو المسيح. ادرس مواعيد الله. تأمل فى طبيعة الله. كن مستعدا، بأن تتخلص من كل شئ، يحزن الروح القدس. وعندئذ؛ تحصل على ذلك الإيمان الذى يزحزح الجبال، ويهزأ بالمستحيلات.

وعندما تنال النفس إيمانا كهذا، يأتيها الله، لا كعابر سبيل، بل ليستقر، ليولم وليمته فيها، ويعقد معها شركته، ويملأها قوة، وبهجة، وسرورا، ويبدل لها المواعيد، بحقائق متممة ثابتة «هو ذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعبا، والله نفسه يكون معهم، إلها لهم» (رؤ ٣:٢١).

الفصل السادس عشر

يتشفع من أجل سدوم

«وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما
أمام الرب. فتقدم إبراهيم»
(تك ١٨: ٢٢ و٢٣)

إذ كان النهار قد بدأ يميل، قام ضيوف إبراهيم وولوا وجوههم صوب سدوم، «وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم»، ولكن، لم يكد الضيوف يصلون مدينة سدوم، حتى بدأت السحب القاتمة، تتلبد فى سمائها، منذرة بالويل والثبور، وعظائم الأمور. وفى المساء، دخل المدينة اثنان منهم فقط، وأين كان الثالث؟ لقد تخلف عنهم، ليكمل حديثه مع إبراهيم، خليله.

ولماذا لم يرافق الرب الملاكين إلى سدوم؟ هل كان لأنه لا يسر بالانتقام؟ حقا، إنه يليق بعظمة الديان، أن يرسل غيره لتنفيذ أوامره «ويرسل ابن الإنسان ملائكته، فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر، وفاعلى الإثم» (مت ١٣:١٤).

ولكن، كان هنالك سبب آخر، أعمق من هذا. كان إبراهيم «خليل الله»، والصداقة؛ تستلزم أن يأتمن الصديق صديقه، على أسرار لا يعلنها لآخر سواه. «سر الرب لخائفيه» (مز ٢٥:١٤) وقال المسيح لتلاميذه «لا أعود أسميكم عبيدا، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكنى قد سميتكم أحباء (أو أصدقاء)، لأنى أعلمتكم بكل ما سمعته من أبى» (يو ١٥:١٥). إن كنا نعيش قريبين من الله، فإنه يعلن لنا أمورا كثيرة، أخفاها عن الحكماء والفهماء. لقد أصابت الترجمة السبعينية عندما مثلت المهابة الإلهية فى السؤال، فجعلته هكذا: «هل أخفى عن إبراهيم عبدى، ما أنا فاعله». إن الرب لا يفعل شيئا، قبل أن يعلنه أولا لعبيده الأمناء، وأنبيائه.

على أن الكلمات التالية، تكشف لنا عن سبب آخر لإعلان ذلك السر «لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده، أن يحفظوا طريق الرب، ليعملوا برا وعدلا» (تك ١٨:١٩). هل كان يخشى أن يشك إبراهيم وبنوه فى بر الله وعدله، إن كان البار يهلك مع الأثيم، وإن أبيدت كل

مدن السهل، بدون إعلان خطيتها، من ناحية، وإعلان الرحمة الإلهية، من ناحية أخرى؟ حقا؛ إن هذا الإعلان، قد غير وجهة نظرنا فى صفات الله، إذ جعلنا ندرك بعض العوامل فى صلاح الله، أو شدته وقسوته. ومع أن دينونته يجب أن تكون سرا عميقا إلى الأبد، إلا أن هذا الحادث العجيب، قد أثار بعض مكنونات هذا السر.

(١) سبب ذلك الإعلان الإلهى :

«إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر» (ع:٢٠). يا له من تعبير غريب. فى هدوء الصحراء العميق، جلست تلك المدن العاصية، ولم يكن ممكنا أن يصل إلى أذنى إبراهيم، شئ من ضجيجها وصراخها، بسبب بعدها السحيق عنه. ولكن؛ رغما عن هذا الهدوء العميق، حسب الظاهر الذى كانت تبدو فيه سدوم، فى موقعها البعيد، فقد سمع الله صراخا. صراخ الأرض التى أكرهت على حمل ذلك العار، صراخ الخليقة غير الناطقة، التى كانت تئن وتتمخض، بسبب الألم البالغ، صراخ المظلومين والمنسحقين، الذين كانوا يرزحون تحت مظالم البشرية، ومطامعها، وشهواتها الدنيئة. وصراخ العبيد، والزوجات، والبنين. كان هذا هو الصراخ الذى وصل إلى أذنى رب الجنود. كل خطية لها صراخا «صوت دم أخيك صارخ إلىّ» (تك ٤:١٠). ولابد أن يستمر هذا الصراخ، ما لم يسكت بصوت أقوى - صوت دم المسيح الذى «يتكلم أفضل» من دم أى إنسان آخر فى الوجود (عب ١٢:٢٤). وإن كان لكل خطية صراخها، فكم يكون مجموع أصوات نفس واحدة، بل مدينة واحدة؟ ألا يزال الرب يقول عن كل مدينة من مدننا الكبيرة، إن «صراخها قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدا»؟.

«أنزل وأرى» (ع ٢١). إن الرب يستقصى أولا عن حقيقة الأمور، قبل أن يحكم، وقبل أن ينفذ حكمه. إنه يتأنى ثلاث سنوات يطلب ثمرا، قبل أن يصدر الأمر بقطع الشجرة التى عطلت الكرم. إنه يتمشى فى شوارعنا، نهارا وليلا، ويتمشى فى أسواقنا، ليتفقد كل شئ، ولا يترك أى شئ. إنه يتسلل إلينا فى مخابئنا، مهما توارينا عن أعين الجميع، لأن كل شئ مكشوف وعريان، أمام عينى ذلك الذى معه أمرنا. وهو مستعد، بل متلهف، ليعلن لنا براءتنا إن اعترفنا بخطايانا. لكن الخطية الشائعة، كخطية سدوم، تكفى لتحديد المصير النهائى، لأية جماعة أثيمة.

«أنزل وأرى.. وإلا فأعلم»، لقد عرف إبراهيم، أن هذه الكلمات، كانت تنذر بخراب محقق، لذلك المكان، لأنه فى صلاته الشفاعية، أشار مرارا إلى ذلك الهلاك القادم، «أفتهلك

البار مع الأثيم». ولكن، أى شئ لا «يعلمه» الله؟ «الظلمة أيضا، لا تظلم لديك. والليل مثل النهار، يضئ، كالظلمة، هكذا النور» (مز ١٣٩:١٢). ومع ذلك، فإنه يقول «وإلا فأعلم». نعم.. أذكر أيها الخاطئ، يا من تقع عيناك على هذه الكلمات، إن الله لا يخفى عليه شئ، وإنه يعرف كل دقائق خطاياك، ويفضحها أمام الملأ، لكى يتبرر فى قضائه العادل، الذى لابد أن يجريه.

(٢) التأثير الذى تركه ذلك الإعلان فى عقل إبراهيم :

حالما انصرف الملاكان، تاركين إبراهيم وحده، مع الله، تحركت كل عواطفه، بسبب الإعلان المفاجئ، الذى استعلن له، وبدأ يحاج الله، ولو لم يكن إلا «ترابا ورمادا» ولكنه رأى نفسه مضطرا لبذل أقصى ما يستطيع من جهد، ليرفع القصاص الذى كان يهدد مدن السهل، بالهلاك السريع. وقد بعثه على ذلك أمران:

(١) عواطفه الطبيعية نحو ابن أخيه - لوط - ورغبته فى نجاته:

كان قد مر على انفصال لوط عنه، عشرون عاما، ولكنه لم يفتر عن تتبع كل أخباره، وشموله بعطفه ورعايته. لم ينس أنه ابن أخيه هاران، الذى توفى، ولم ينس أنه هو المكلف به شرعا. كذلك؛ لم ينس ما تحمله من مشقات، فى مرافقته إياه فى المسير فى الصحراء. كل هذه كانت ماثلة أمام عينيه منذ بضع سنوات، عندما وقف موقف الأبطال، وخلصه من أيدى كدرلعومر. والآن؛ وقد تحركت كل عواطفه، يحاول أن يخلص مدينة سدوم، لئلا يهلك ابن أخيه، بهلاكها. إن الديانة الحقة، لا تميل إلى الهلاك والدمار، بل إلى إتمام كل ما تمليه المحبة الصادقة.

(٢) خوفه من أن يكون خراب مدن السهل سببا فى أن تسئ الشعوب المجاورة الظن فى إلهه:

لم ينكر إبراهيم، أن تلك المدن كانت تستحق ما ينتظرها من خراب محقق، بسبب فساد الكثيرين من شعبها، ولكنه لم يعقل، أن كل الشعب، كانوا فى درجة واحدة من الفساد، والانحطاط. لذلك، خشى أن تطول ألسنة الشعوب المجاورة على عدل الله، ويتهمونه بالظلم، إن أهلك «البار مع الأثيم».

إن عبيد الله الأمناء فى كل العصور يغارون على اسم الله، ومجده. فقد كان موسى مستعدا أن يتنازل عن شرفه، كأب لشعب الله المختار، مفضلا ذلك، عن أن تعطى فرصة

للأمم التى سمعت عن الله، لكى تقول، بأن الله لم يستطع أن يأتى بشعبه إلى أرض الموعد (انظر خر ٣٢:١٠، عد ١٤:١٢). وعندما هرب رجال إسرائيل أمام عادى، لم يفكر يشوع وشيوخ إسرائيل فى الشر الذى كان محدقا بهم، والهلاك الذى كان ينتظرهم، بقدر تفكيرهم فيما يجب أن يفعله الله، من أجل اسمه العظيم. ليت الرب يزيدنا امتلاء من روح الولاء، والغيرة على مجده. وليتنا نحصر كل تفكيرنا واهتمامنا، فى كل ما يتعلق بكرامة اسم الله بين البشر، لكى يكون هذا هو الشغل الشاغل لنا، إذ نبصر أفكار البشر المنحرفة، نحو أعمال العناية الإلهية.

لقد التهبت هذه الغيرة فى صدر إبراهيم، نحو مجد الله، حتى دفعته إلى تقديم هذه الشفاعة العجيبة. ونحن عندما نهتم بمصلحة الله، كما كان إبراهيم، فلابد أن نشعر بما شعر هو به، ونتوق بأن تظهر أعمال الله وصفاته بين البشر، ونقنع - إذا لزم الحال - بأن نرقد فى الحفرة ونموت، طالما كنا نسمع أصوات الظفر والانتصار، التى يجوز فيها ملك الملوك فوق أشلائنا.

(٣) ماهية صلاة إبراهيم الشفاعية :

(١) كانت صلاة انفرادية:

لقد انتظر حتى لم يبق إنسان فى تلك الهضبة الفسيحة، يسمع صوته، وهو يسكب نفسه أمام الله سكبا. وهى مثقلة بروح المسئولية «وأما إبراهيم، فكان لم يزل قائما أمام الرب». إن الصلاة أمام أى شخص آخر، ولو كان أعز عزيز لدينا، تقتل فينا روح التعمق فى العبادة. فكل قديس، يجب أن تكون له خلوته، ومخدعه، حيث يستطيع أن يغلق بابه، ويصلى لأبيه الذى فى الخفاء. قد يكون مكان الخلوة، فى البرارى، أو الجبال، أو الغابات، أو على شواطئ البحار، أو الأنهار. وعلى أى حال يجب أن يكون هنالك مكان للخلوة، مسكين وتعس، ذلك الإنسان الذى لا يستطيع، ولا يجسر، أن يقابل الله وجها لوجه، ويتحدث إليه عن طرقه، وأعماله العظيمة، ويتشفع إليه عن إخوته.

ماذا يميز المرء عن الخراف أو الجداء
التى ترعى الحشائش الخضراء
إن كان وهو يعرف الله لا يرفع الصلاة الخشوعية
من أجل نفسه ومن أجل إخوته فى البشرية

(٢) وكانت صلاة طويلة:

«وأما إبراهيم، فكان لم يزل قائما أمام الرب». إن قراءة القصة، لا تستغرق أكثر من دقائق معدودات، أما الواقعة نفسها، فلعلها استغرقت الساعات. نحن لا نستطيع أن نصل إلى أعلى قمم الصلاة، إن كنا نصلى بعجلة، لأن الأمر يحتاج إلى صبر، وتعب، وجهاد متواصل، حتى نصل إلى القمم العليا، التى وقف فيها موسى تحت ظل يد الله. صحيح؛ إن الله مستعد دواما، لسماع واستجابة كل صلواتنا القصيرة جدا، التى نرفعها طول يومنا، وسط مشاغل الحياة، ولكننا، لا نستطيع أن نداوم على هذه الصلوات القصيرة، ما لم تكن لنا فرص طويلة للصلاة. كم من بركات نخسرها، لأننا لا نستطيع أن ننتظر طويلا أمام الله. فنحن لا نعطى الشمس فرصة كافية، لكى تنبينا. ونحن لا ننتظر طويلا على الشاطئ، حتى تعود السفن محملة بالبركات، التى صلينا من أجلها. ونحن؛ إن انتظرنا وقتا أطول على باب القصر، استطعنا أن نرى الملك خارجا، محملا بالبركات، والخيرات.

(٣) وكانت صلاة متواضعة جدا:

«إنى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد» (ع ٢٧)، «لا يسخط المولى فأتكلم» (ع ٣٠)، «إنى قد شرعت أكلم المولى» (ع ٣١)، «لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط» (ع ٣٢). كلما ازددنا اقترابا من الله، ازداد احساسنا بحقارتنا، وعدم استحقاقنا. لتفتخر الشرارة الحقيرة بنورها، على ضياء الشمس المشرقة فى كبد السماء، ولتفتخر قطرات الندى، على مياه المحيطات الزاخرة، وليفتخر الطفل الرضيع، برسوخه فى العلم، أكثر من ذكاء ملائكة السماء، قبل أن يفتخر الإنسان العائش فى صلة مع الله، بعلمه، أو حكمته، أو قدرته، لأنه يرى نفسه حقيرة فى حضرة الله. أمامه تغطى الملائكة وجوهها، والسماء ليست بطاهرة قدامه، أليس معقولا أن شعورنا بالضعف، هو من أقوى الحجج التى نقدمها لله فى طلباتنا «لم ينس صراخ المساكين [١]» (مز ٩:١٢)، «إلى هذا أنظر، إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامى» (إش ٦٦:٢).

(٤) وكانت صلاته مؤسسة على الاعتقاد بأن الله غيور مثله على الفضيلة والأخلاق القويمة:

«أفتهلك البار مع الأثيم؟» حاشاك يا ربى أن يستوى لديك البار والأثيم. «أديان كل

---

[١] أو «الودعاء» كما ورد فى هامش الكتاب المقدس، أو «المتواضعين»، حسب الترجمة الإنكليزية

الأرض لا يصنع عدلا؟» (ع ٢٥). وكأن إبراهيم قد تطلع من أعماق نزاهته، وطهارته، إلى مقادس الله فى الأعالى، ورأى قداسة الله متوجة على العرش، فرفع إليه طلبته، واثقا من استجابتها وكأنه قد قال: إلهى القدير. إنى لا أراه عدلا، أن أهلك البار مع الأثيم، وأنا إنسان بشرى، ولا شك فى أن جميع الصالحين والقديسين، يشتركون معى فى هذا، فإن كانت هذه هى وجهة نظر البشر، فبالأولى جدا، أن تكون وجهة نظرك، لأنك أنت هو ديان كل الأرض.

وهذا لم يغضب الله، ولكنه بلا شك، نال استحسانه ورضاه. بل إننا نستطيع أن نذهب إلى مدى أبعد، فنقول: أنه ولو كانت تصرفات الله تسمو على عقولنا، ولكنها لا يمكن أن تتناقض مع المبادئ السامية، والأخلاق الفاضلة، التى وضعها هو فى قلوبنا. وإن بدت لنا تصرفات الله بعض الأحيان متناقضة مع الأخلاق القويمة، فما ذلك إلا لأننا قد أخطأنا فهمها، وفسرناها تفسيرا خاطئا.

كانت عقيدة بعض البشر فى الأيام الغابرة «أن الملك معصوم من الخطأ». ولم تكن تلك العقيدة إلا أضغاث أحلام، ولكن ما لا ينطبق حرفيا على الله الأبدى، فعلينا بالصبر والانتظار، واثقين أن ما يبدو أمامنا غير طبيعى، أو غير معقول، أو غير منطقى، إنما هو ضباب، قد نسجته طبيعتنا الشريرة، أو عقولنا المحدودة، وإنه بعيد كل البعد عن أن يحجب حق الله، الذى هو أثبت من الجبال الرواسخ.

(٥) وكانت صلاته بمثابرة:

تقدم إبراهيم ست مرات، وكان فى كل مرة يزداد إيمانا وشجاعة. قد يبدو لأول وهلة، كأنه كان يلوم الله بأن يتراجع، خطوة فخطوة، وأنه كان يضع طلباته فى يد ترفض استجابتها. ولكن هذا خطأ، فإن الله كان فى الواقع، يقرب عبده الأمين إليه، خطوة فخطوة،ولو كان إبراهيم قد تجاسر، فطلب فى بداية الأمر، ما طلبه أخيرا، لكان قد نال فوق ما طلب، أو افتكر، فى بداية تضرعه. ولكن ذلك الوقت كان فرصة للتدريب والاختبار. فهو لم يدرك عمق محبة الله، ورحمته، مرة واحدة، ولكنه صعد إلى الجبل، خطوة فخطوة، وفى كل خطوة، كان يزداد ثقة وشجاعة، فيخطو الخطوة الأخرى. على أن إبراهيم، مع الأسف الشديد، وقف عند حد العشرة، ولا ندرى ماذا كان يحصل، لو أنه تعدى هذا الحد. ولكن، ما حصل، هو أن الله تعدى الحدود التى وضعها إبراهيم، وأخرج من سدوم أولئك الأشخاص،

الذين كان ممكنا اعتبارهم بأى حال من الأحوال «أبرارا».

بنفس هذه الطريقة، لا يزال الله يدربنا. فإنه يعلم النسور أن تحلق فى السماء، قليلا قليلا، إنه يعلمنا أن نطلب طلبا، ثم غيره، ثم غيره، وهكذا. وعندما نصل إلى أقصى ما ينبغى، تكون هنالك طلبات أخرى، لا زالت تنتظرنا. أما الله، فإنه يعطى فوق ما نطلب. لم يكن هنالك عشرة أشخاص أبرارا فى سدوم، ولكن الله أنقذ لوطا، وزوجته، وابنتيه، ولو أن ثلاثة منهم كانوا قد سرت إليهم عدوى الفساد الخلقى من أهل المكان، بكيفية مزرية جدا. وبهذا الخلاص الذى تم مع لوط وبيته، ثبت بر الله فى أعين الشعوب المجاورة.

✠ ✠ ✠

وفى ختام هذا الحديث، لنلاحظ ملاحظة موجزة، عن أحد المبادئ الجوهرية التى بها يسوس الله العالم. لقد كان الله مستعدا أن يعفو عن مدينة بأسرها، لو وجد فيها عشرة أشخاص أبرار. إن الأشرار لا يدركون، كم هم مدينون لوجود أولاد الله، فى وسطهم. لقد كان عدلا أن يكتسحها غضب الله قبل الآن، بزمن طويل، ولكن الله لم يُرد أن يفعل بها شيئا، طالما كان الأبرار فى وسطها. لقد كان طلب العبيد الذين لم يتعلموا الصبر بعد، هو أن يقتلعوا الزوان من الأرض، وأما الله الرحوم فأجابهم - ولا تزال هذه هى إجابته - قائلا: «لا لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه» (مت ١٣:٢٩).

إن العالم لا يدرك كم هو مدين لقديسيه، كم هو مدين للملح الذى يحفظه من الفساد، وللنور الذى يقف حائلا أمام سلطان الظلمة والخراب.

إننا لا نستطيع إلا أن نرثى العالم، وهو يسرع نحو نهايته المظلمة المحزنة، فلنصعد إلى مرتفعات ممرا، ونرفع التوسلات من أجله. ليتنا نخرج منه نحن وأعزاؤنا سالمين، قبل أن تحل به الضربة الأخيرة، بخرابها المحتوم.

الفصل السابع عشر

عمل الملاك فى مدينة شريرة (تك ١٩)

على شواطئ البحر الميت، كانت تقع مدن السهل بضجيجها، ومشاغلها العالمية. على أن كل أصوات الفرح والحزن، أصوات البيع والشراء، أصوات الرجال والنساء فى متاجرهم ومصانعهم وأعمالهم اليومية، وأصوات الأولاد فى ملاهيهم – هذه كلها قد اختفت الآن فى تلك البرية الجرداء، دلالة على صدق كلمة الله.

تحيط الجبال المرتفعة بالبحر الميت، المنخفض عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو ١٣٠٠ قدم. ولا يسع المرء لدى مروره فى تلك الأنحاء، إلا أن يتذكر ذلك الوقت الذى فيه «أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض» (ع ٢٤ و٢٥).

(١) الأسباب التى بررت تخريب تلك المدن :

(١) كان هذا العمل إنذارا رحيما لسائر البشرية:

لقد نسى الإنسان درس الطوفان الذى حدث منذ زمن طويل.وإذ تخطى كل الحدود، وتحدى كل الحواجز، توغل جدا فى الشر والرذيلة، حتى خيف على العالم، من أن يتكرر نفس الشر الذى فتح طاقات السماء، وعجل بالطوفان. لهذا، كان ضروريا، وكان من الحكمة والرحمة، أن يرسل الرب إنذارا، يظهر قصاص الخطية المريع، ويذكر الخطاة أن هنالك حدودا، لا يدعهم ديان كل الأرض أن يتخطوها.

صحيح، أن ذلك الانتقام، إن كان قد أفلح فى إيقاع الرعب مؤقتا، فى قلوب الشعوب المجاورة، لكنه لم يفلح فى صدهم عن نفس الشرور والرذائل، التى سادت مدينة سدوم، إذ أنها طغت عليهم فيما بعد، ولم يفلح فى صد غضب الله، حينما انسكبت نار من السماء على الشعوب المجاورة فى وادى الأردن، أيام يشوع. وعلى أى حال، فإن إنذارات الله، لا زالت لها مقاصدها الرحيمة، حتى وإن لم يحفل بها البشر، وحسنا قيل، إن هذه الحادثة المرعبة – حادثة خراب سدوم – هى أحد الإنذارات المروعة التى يستطيع العاقل أن يتلمس فيها «محبة الرب وشفقته».

(٢) وبهذا العمل المروع لم يفعل القدير أكثر من أن يعجل بنتائج أعمالهم الشريرة:

إن خراب الشعوب، لا يتم إلا عندما يكون السوس قد نخر فى عظامها، والفساد قد فت فى عضدها، كما أن الرياح الشمالية، إذا هبت على الغابات، لا تقتلع إلا الأشجار التى قد نخرها السوس. ولا شك فى أن كل متأمل عاقل فى حال سدوم، وما وصلت إليه من شر، كان يتأكد من أن خرابها لابد قادم عن قريب. فالرذيلة، كانت قد أكلت قلوب الشعب، وكان لابد أن تتصلب الشرايين، ويموت كل الجسد.

اذهب إلى خيام إبراهيم؛ تجد البساطة، وكرم الضيافة، والأخلاق النبيلة، التى تضمن تخليدا لاسمه، ومستقبلا مجيدا لنسله. ولكن؛ اذهب إلى سدوم، تجد فى ذلك الجو المسمم، شعبا قد أطلق لنفسه العنان فى الانسياق وراء الشهوات، واستسلم فى جبن، لظلم ملك غريب،وتسفل إلى أحط درجات الرذيلة، حتى لم يبق فيه عشرة أبرار. كل هذه العلامات، أنذرت بأن «دينونتهم لا تتوانى وهلاكهم لا ينعس» (٢ بط ٢:٣).

وهذا يعلمنا درسا خطيرا لبلادنا المحبوبة. لقد رأينا الهند، وبابل، ومصر، واليونان، وروما، تتلألأ قديما فى سماء المجد، ثم يخبو ضياؤها. هل سيزول المجد عن بريطانيا أيضا، كما زال عن تلك الممالك العظمى؟ إننا كلما تأملنا فى ازدياد تيار حياة الترف، والتبذير، والانغماس فى اللذات والشهوات، وحياة التبذل والاستهتار، التى اكتظت بها شوارعنا، والانسياق فى تيار الميسر الذى أصبحت أخباره تشغل جزءا كبيرا من الصحف الأسبوعية واليومية، وانفكاك الروابط الزوجية - كلما تأملنا فى هذه جميعها، ملأ الرعب قلوبنا، من جهة مستقبل بلاد أجدادنا. إن الأمل الوحيد معقود فى الخدمة العظمى، التى تقوم بها بلادنا نحو تسهيل خدمة التبشير فى أرجاء العالم. ونحن إن فشلنا فى هذه الخدمة، أو إن قامت البلاد بتصدير السموم، والمخدرات، أكثر من نشر الكتاب المقدس، أو إن قامت بإرسال بائعين للخمور، أكثر من المرسلين، فلا مناص من خرابها العاجل.

(٣) وفضلا عن ذلك، فإن هذا الانقلاب لم يحدث إلا بعد بحث دقيق «أنزل وأرى» (ص ٢١:١٨):

إننا فى طيات هاتين الكلمتين، نستطيع أن نلمح بصيصا من نور أقدس المبادئ، فى أعمال وتصرفات العناية الإلهية. فإن الله لا يتعجل فى أعماله، ولا يأخذ بمجرد الإشاعات

والأقاويل، ولكنه؛ لابد له من البحث الدقيق، لعله يجد بعض الظروف المخففة. إنه لم يأمر بقطع شجرة التين لئلا تعطل الأرض، إلا بعد أن أتى إليها سنوات كثيرة يطلب ثمرا، ولم يجد؛ لأن من صفات الله، أنه لا يشاء أن يهلك أحد، فهو بطئ الغضب، لا يلجأ إلى الدينونة، إلا بعد أن تعيا كل الحيل. لقد أخبرنا أنه سيأتى يوم فيه تنسكب لنا كل أعماله، وعندئذ، نتعزى من جهة الكثير من الشرور، التى سمح بأن تنسكب على العالم، لأننا سندرك أنه لم يصنع بلا سبب كل ما صنعه فيه (حز ١٤:٢٣).

(٤) ومما يستحق التأمل أيضا، أنه أرسل الإنذارات الكثيرة أثناء فترة الانتظار:

كان الإنذار الأول، كسرة كدرلعومر، التى تمت قبل ذلك العهد، الذى نتحدث عنه بعشرين عاما. ثم إن وجود لوط وسطهم، كان يشهد بحياة البر والقداسة، وإن كانت حياته قد ضعفت بتأثير سيرة الأردياء (٢ بط ٢:٧ و٨). أما الإنذار الأخير، فكان ذلك الخلاص الذى أتمه إبراهيم بتدخله، إذ خلص سدوم من كدرلعومر. وكم من مرة، أنذر الرب تلك المدن بخرابها المحتم، إن لم تتب؛ ولكن الشعب لم يحفل بكل تلك الإنذارات.

ثم إن طريقة معاملة الله للأفراد، لا تختلف عن معاملته للممالك، والمدن، والجماعات. فإن فى طريق كل خطية، إنذارات مختلفة، تحذر المرء من خطر استمرار السير فى تلك الطريق. وكما أن الأعصاب، إذا انتابتها هزة عنيفة، دل ذلك على إجهاد المجموع العصبى وإنهاكه، وعلى حاجته السريعة للراحة، وإلا أصيب هذا الجسم بالشلل، إن أهمل هذا الإنذار. هكذا رتب الله أن يكون فى طريق كل خطية، أو تعد، أجراس متعددة، تنذر بالخطر. أيها الخطاة.. افتحوا أعينكم لتروا الإنذارات المتعددة أمامكم.

إن احترمتم هذه الإنذارات؛ خلصتم، أما إن احتقرتموها، ولم تحظوا بها، فإنكم بذلك تميتون الروح، وتقسون القلب، وتجدفون على الروح القدس. إن الخطية، إن لم تغفر، بقيت لاصقة بالنفس، وأفقدتها كل إحساس، فلا تعود تبالى بحالتها، بل لا تحس بتعاستها، ولا تشعر بأنها سائرة بخطى واسعة، نحو هيكلها الأبدى؛ وهى إن لم تنل الغفران، فليس ذلك إلا لأنها لا تحس بحاجتها إليه، وبالتالى؛ لأنها لا تطلبه.

(٥) ومما تجد ر بنا ملاحظته أيضا أن الرب خلص كل الذين أراد أن يخلصهم:

لقد بدأ لوط حياته بداية طيبة، ولكنه ختمها بنهاية محزنه، فإنه عندما خرج من أور،

ليرافق إبراهيم، قطع عهدا على أن يحيا الحياة القوية، المثمرة، ولكنه مع الأسف، كان واحدا من الأشخاص الكثيرين، الذين إذا صادفوا بعض النجاح فى الحياة، أخذوا بنشوته، وانزلقوا فى معاطب الهلاك. ولعله لا توجد تجربة أشد خطرا على النفس، من هذه التجربة؛ فإن الذين يهلكون بسبب غرور الغنى، أكثر ممن يهلكون بسبب ارتباكات الحياة، وهمومها.

لا شك فى أن لوط، عندما نزل إلى سدوم، فى بداية الأمر، منجذبا إليها، بسبب خضرة أراضيها فقط، كان يقصد أن يعيش بمعزل عن شعبها، وخارج أسوارها. ولكن الحشرات، لا يمكن أن تقترب من النيران، دون أن تنال جزاءها؛ فإنه رويدا رويدا، طلق حياة الخيمة، وارتضى بأن يقيم فى منزل، داخل المدينة. وأخيرا؛ زوج ابنتيه لاثنين من أهل سدوم، وصار كواحد من أهل المدينة، يجلس فى بابها. لقد طبعت نفسه على كرم، ولكنه فى الاقتراحات التى عرضها، إتماما لواجبات كرم الضيافة، برهن على أن نفسه الطاهرة قد تسممت، بسبب وجوده فى جو سدوم الخانق،أما المنظر الأخير من رواية حياته، فيحسن بنا أن نسدل عليه الستار، ومع ذلك؛ خلص الرب هذه النفس المحطمة.

على أن الرب لم يخلصه وحده، بل خلص أيضا زوجته، التى برهنت على أنها لم تكن مؤهلة لذلك الخلاص، بتاتا، لأنها لم تخط خطوات معدودات خارج المدينة، حتى التفتت وراءها، وكان يدفعها فى ذلك، روح التمرد والعصيان، ثم روح الندم والأسف، على ترك المدينة؛ وخلص أيضا ابنتيها، اللتين دمغ اسماهما بالعار الأبدى.

وإن كان الرب قد حرص على إنقاذ هؤلاء الأشخاص، فكم تكون درجة انحطاط أولئك الذين تركهم ليلقوا حتفهم؟ ألا يوضح ذلك جليا، أنه قد خلص أولئك الذين دخلوا ضمن دائرة رحمته؟ إنه لن توجد نفس واحدة بين الهالكين، ولها أقل حق فى أن تكون بين المخلصين، كما أنه سيكون بين المخلصين كثيرون جدا، ممن سيدهشنا وجودهم هناك «كثيرون سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت، فيطرحون إلى الظلمة الخارجية» (مت ٨:١١ و١٢).

(٢) البواعث لزيارة الملاكين... كانت هنالك ثلاثة بواعث:

(١) أما السبب الأول والمباشر فهو محبتهما للبشر:

إن الملائكة يحبوننا. ومع أنهم يعلمون أننا قد خلقنا لنتبوأ مركزا أسمى منهم قدرا، فإن

الحسد لن يتطرق إلى محبتهم الطاهرة. يكفيهم أن يعلموا أن هذه هى إرادة الله، وأننا أعزاء جدا فى نظر سيدهم المحبوب يسوع. لهذا، فإنهم لا يجدون غضاضة، إذ يتركون عروشهم الذهبية وأمجادهم السماوية، لكى يعجلوا توبة المتباطئين فى التوبة. وإن وجدت هنالك أية صعوبة، فإن مأموريتهم هى أن يذللوها.

(٢) وأما السبب المحرك، فقد كان صلاة إبراهيم «وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم وأرسل لوطا من وسط الانقلاب» (تك ١٩ :٢٩):

ليتك أيها القارئ العزيز، تصلى، وتصلى، وتصلى بحرارة، من أجل ذلك الشخص العزيز، الذى طوح به بعيدا فى سدوم، فى أماكن الشر، والإثم، والدعارة. قد تراه أمرا عسيرا، أو مستحيلا على نفسك، أن تذهب إلى مكانه لتخلصه، أو أن تعينه بأية طريقة أخرى، ولكن، تيقن بأن الله يستطيع - استجابة لصلواتك - أن يرسل إليك ملائكته فى تلك السفينة المعذبة، وسط البحار المتلاطمة الأمواج، أو فى تلك المدينة، أو المملكة المترامية الأطراف، أو إلى ذلك المكان، الذى اتخذ مقاما للهو، والدنس، والفجور. إن ملائكة الله يذهبون إلى كل مكان. فسدوم، لا تستطيع أن تحول دون سلطانهم على تخليص من يشاءون. كما أن طلعتهم المقدسة، لن تتدنس بمرورهم فى أفسد مكان. تيقن، وأنت تصلى، بأن ملائكة الله، يكونون فى طريقهم لإتمام رغبتك، وإن تعوقوا قليلا لأسباب تخفى عن إدراكنا (انظر دا ١٠:١٢).

(٣) وأما السبب الملح والأكيد، فقد كان رحمة الله:

«ولما توانى أمسك الرجلان بيده.. لشفقة (لرحمة) الرب عليه، وأخرجاه، ووضعاه خارج المدينة» (تك ١٩:١٦). فالرحمة هى آخر حلقات السلسلة، هى حجر الزاوية. والرسول نفسه، لا يجد سببا لتمتعه بنعمة الخلاص، أقوى من أن يقول إننى «رحمت» (١ تى ١:١٣). «بنعمة الله أنا ما أنا» (١ كو ١٥:١٠). وهذه ستكون قبلة أنظارنا فى الأبدية نحن الذين أشرق فى قلوبنا كوكب الصبح.

إنه لأمر عجيب، أن يستخدم الله بنى البشر، لربح البشر، لأن الملائكة يستطيعون أن يؤدوا هذه الرسالة بشكل أتم. ألم يخلصوا لوطا بمهارة مقدسة، وإصرار عجيب، الأمر الذى نستطيع أن نجد فيه نحن - كخدام الله - دروسا ثمينة. إن العالم لا يزال مليئا بمدن كثيرة،

كسدوم، وأشخاص كثيرون، كلوط، الذين قد عرفناهم، وأحببناهم، أو الذين يحملنا الله مسئوليتهم؛ الذين يجلسون فى أبواب تلك المدن. فلماذا نكون أقل غيرة من الملائكة، فى اختطافهم كشعلة منتشلة من النار. أيتها الأرواح النورانية! اقرأوا لنا بعض الدروس الأساسية فى طرق الخدمة، لعلنا نفلح فى الاقتداء بكم، لئلا يأتى الوقت الذى فيه ننتزع من مراكزنا.

(٣) لقد ذهب الملاكان حيث كان لوط مقيما :

«فجاء الملاكان إلى سدوم مساء» (ع ١). يا له من أمر مدهش؛ هل ذهب الملاكان إلى سدوم؟ نعم! لقد ذهبا إلى سدوم «ومع ذلك ظلا ملاكين. وكما تخترق أشعة النور أفسد الأجواء، دون أن تتلوث، كذلك يستطيع الملائكة أن يقضوا ليلة في سدوم، دون أن يتلوثوا، وإن كانوا محاطين بجمهور غفير من الأشرار. فأنت إن ذهبت إلى سدوم لكى تغنم ربحا ماديا، أو تقضى مصلحة شخصية لنفسك، كما فعل لوط، فسرعان ما تظهر عليك علامات الفساد. أما إن ذهبت إليها لكى تخلص البشر، كما فعل هذان الملاكان، فلن يلحقك أى فساد، مهما وصل الفساد إلى منتهاه، ولن يمسسك الشيطان بسوء، ولن تلصق بك ذرة من الدنس والأقذار. «كل آلة صورت ضدك لا تنجح، وكل لسان يقوم عليك فى القضاء، تحكمين عليه» (إش ٥٤:١٧).

هذه هى روح إنجيل المسيح «يذهب لأجل الضال حتى يجده» (لو ١٥:٤)، فمد يده ولمسه» (مت ٨:٣). فنحن، يجب أن لا ننتظر حتى يأتى إلينا الخطاة، بل لنذهب نحن إليهم، لنذهب إليهم على شواطئ البحار، والأنهار، حيث يختبئ السمك فى أعماق المياه، فى الظلام، لنذهب إليهم فى الحانات، وصالات الرقص، وأماكن اللهو، والفجور. نعم؛ لنذهب إليهم.. إلى أقصى أنحاء العالم. لنذهب إلى أى مكان يوجد فيه البشر، لنكرز بالإنجيل. فى الأماكن البعيدة الاحتمال جدا، نستطيع أن نجد أشخاصا كثيرين كلوط، هؤلاء؛ لابد هالكون، إن لم نبحث عنهم ونجدّ فى أثرهم.

(٤) ثم إن الملاكين قنعا بالعمل والخدمة من أجل نفر قليل :

إن أشهى فاكهة، هى تلك التى نقطفها بأيدينا، واحدة، فواحدة، من الشجر ونحن بجهلنا، نفضل أن نذهب إلى البستان، ونهز الشجر، حتى تتساقط الثمار، وتتناثر على

الأرض، هنا وهنالك. لكننا ننسى أن هذه عملية متلفة؛ فالكثير من الثمار، تخدشها الأرض، والبعض يتساقط قبل أن ينضج.

إن أخلص أتباع المسيح، كانوا ثمرة خدمته الفردية. فكم كان يلذ له أن يقول لهذا، أو ذاك، «اتبعنى»، «هلم ورائى». وكم من أحاديث شخصية، فردية، جرت على شفتيه، لأنه كان يطلب خلاص نفوس البشر، فردا فردا، (مت ٤:١٩ و٢١، ٩:٩ ، لو١٩:٥). كانت نفسه تبتهج، إذ يقضى وقتا أطول، مع امرأة واحدة، فاسدة السيرة (يو ٤)، لأنه كان يعتقد فى ضرورة طلب الخروف الواحد، الضال، والبحث عنه. ومما هو جدير بالذكر، أن هذه كانت وجهة نظر بولس الرسول أيضا، اسمعه يقول «منذرين كل إنسان. معلمين كل إنسان بكل حكمة، لكى نحضر كل إنسان كاملا فى المسيح يسوع» (كو ١:٢٨).

إنه لأمر يستحق البحث، أن ندرك إن كان عدد الذين يخلصون بواسطة العمل الفردى، أكثر ممن يخلصون بسبب كل عظاتنا العامة؛ فإن العظات العامة، ليست هى التى تربح النفوس فحسب؛ بل هى الكلمات الهادئة، التى تجرى فى حديث فردى مع أحد المستمعين، بعد العظة.. هى الرسالة التى يرسلها الوالد لابنه، أو الصديق لصديقه. عندما قال المسيح «اكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» ألم يتضمن هذا الأمر، أننا يجب أن نقيم أنفسنا لإعلان محبة السماء، لكل بيت، ولكل فرد ، فى كل العالم؟

نحن لا ندرك تماما ماذا نفعله، عندما نربح نفسا واحدة للمسيح. لنتأمل فى الحادثة التالية - التى إن هى إلا مثل بسيط لمئات وألوف غيرها - لعلنا نجد فيها دروسا ثمينة لأنفسنا . وهذه الحادثة منقولة عن تاريخ أحد خدام الله، وكان مرسلا فى بلاد غريبة.

فى إحدى المرات، ذهب ذلك الخادم الأمين، ليسقى حصانه من بئر عامة فى الطريق، وفى تلك البرهة الوجيزة، أتى شخص آخر ليسقى حصانه، وعندما كان الحصانان يرويان ظمأهما، التفت المرسل إلى جاره، وبدأ يتحدث معه بكلمات قوية، مؤثرة، عن شرف التلمذة للمسيح، وعن واجباتها؛ وبعد لحظة افترقا عن بعضهما، وسار كل منهما فى طريق مختلفة. ولكن كلمة الله، عملت فى قلب ذلك الرجل - الذى لم يكن سوى مجرد عابر طريق - حتى تجددت حياته، وصار مسيحيا، ثم مرسلا. وعبثا، حاول أن يبحث عن ذلك الشخص، الذى كان واسطة في خلاصه، ولكنه أخيرا، عثر على كتاب، ولم يكد يفتحه، حتى وجد فيه صورة ذلك المرسل الأمين، فاستراحت روحه، إذ استطاع أن يرى، ولو صورة تلك الشخصية، التى

ظل سنوات يفتش عنها، منذ ذلك الحديث، الذى كان بسيطا فى عبارته، ولكنه كان خطيرا فى فعله.

يقولون؛ إن الطريقة المثلى لربح النفوس، هى أن تضع قلبك على نفس واحدة، وتتابع العمل معها، حتى تقبل إنجيل نعمة الله، بصفة قاطعة، أو ترفضه بصفة نهائية. حقا، لو أدرك المسيحيون قيمة النفس الواحدة، مهما كانت وضيعة، لما فكروا فى البحث عن دائرة أوسع. فالمسيح، وجد عملا كافيا فى قرية بسيطة، يشغله ثلاثين عاما. وفيلبس؛ انتزع من وسط نهضة عظيمة، فى السامرة، ليذهب إلى الصحراء، ليربح نفسا واحدة تطلب الله.

ألم تفكر يوما من الأيام، فى أن تتحدث إلى خادمك.. إلى عامل البريد .. إلى زميلك.. إلى جارك، فى أمر خلاص النفس؟ حقا؛ إنه إذا عرف كل مسيحى، كيف يعلم جاره قائلا «اعرف الرب» لما مر زمن طويل، حتى يكون الإنجيل قد كرز به فى كل العالم.

(٥) كذلك أخبر الملاكان لوطا صراحة عما كان يستهدف له من الخطر :

«وقال الرجلان للوط من لك ههنا. أصهارك وبنيك وبناتك، وكل من لك فى المدينة؛ اخرج من المكان، لأننا مهلكان هذا المكان، إذ قد عظم صراخهم أمام الرب، فأرسلنا الرب لنهلكه» (تك ١٩ :١٢ و١٣). أما نحن؛ فإننا لا نجسر على التحدث مع الآخرين فى هذه الأيام، عما ينتظرهم من أخطار محققة، لأننا قطعنا عهدا مع شفاهنا، على عدم التحدث بأية كلمة تجرح إحساسهم، كأننا نريد أن نكون أكثر رقة من المسيح نفسه، الذى لم يتردد عن أن يتحدث عن الدود الذى لا يموت، والنار التى لا تطفأ، عن البكاء، وصرير الأسنان، عن الأبواب التى إن أغلقت، لا يمكن أن تفتح - وغير هذه من الحقائق التى انسابت من شفتيه، أكثر من مرة (انظر مت ٨:١٢ ، ١٣:٤٢ و٥٠ ، ٢٢:١٣ ، ٢٤: ٥١، ٢٥: ١٠-١٢ و٣٠، مر ٩:٤٣-٤٨، لو ١٣:٢٥-٢٨).

وواضح أن تعليمه كان يتضمن؛ بأن المرء قد يخطئ خطية لا يستطيع القيام منها.

إذا نقصت عناصر معينة فى طعام أطفالنا، اعتلت صحتهم، أو أصيبوا بلين فى العظام؛ وإذا لم ننتبه للخطر، صارت العواقب وخيمة. وسواء تحدثنا مع الآخرين، أو لم نتحدث عن الحقيقة التالية، فإن ذلك لا يغير من طبيعة الأمر الواقع بصدد هذه الحقيقة، وهى: أن الذين

لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح «سيعاقبون بهلاك أبدى من الرب ومن مجد قوته» (٢ تس ١:٩)، «وإن أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين» (عب ١٠:٢٦ و٢٧).

لعل يوم الرحمة قد قارب المغيب، ولعل ساعة النقمة والدينونة قد أذنت، حيث تنهال فيها المصائب، وتتفتح طاقات السماء، لتصب جامات غضبها على هذا الجيل الشرير، الذى أصبح لا يعرف الله، والذى سوف يكون قصاصه يوم الدينونة أشد هولا من قصاص سدوم وعمورة. هذه الحقيقة الخطيرة، لا تبديل فيها ولا تغيير. «وإذ أشرقت الشمس دخل لوط إلى صوغر» (تك ١٩:٢٣). إن الطبيعة تحفظ أسرار الله، فإنه لا توجد قوة فى السماء، أو على الأرض، تستطيع أن تغير أحكام الله، بل لابد للفأس أن تقطع الشجرة فجأة.

أيها القارى العزيز.. اهرب لحياتك، لا تنظر إلى ورائك، ولا تبرح عن ذلك الجرح الذى فى جنب يسوع، الذى فيه وحده نستطيع أن نختبئ من دينونة الخطية العادلة. لا تهدأ، حتى تتأكد من أنك قد وضعت يسوع بينك وبين عدل الله الذى يقتفى آثارك.

(٦) وكان الملاكان يعجلان لوطا :

«ولما طلع الفجر، كان الملاكان يعجلان لوطا» (تك ١٩:١٥). لم يريدا البقاء فى بيته، بعكس ما كانا يشعران به من الغبطة التى قبلا بها ضيافة إبراهيم. أما تلك الليلة التى قضياها فى بيت لوط، فقد صرفاها فى إقناعه بالخراب القادم، حتى أنهما ألزماه فعلا بالذهاب إلى أصهاره لإيقاظهم. ولكن؛ أنّى للحياة الضعيفة الفاترة أن توقظ من قد نعس وغط فى النوم من جهة نفسه. يظن البعض أننا لكى ننجح فى خدمة ربح النفوس، يجب أن نتمشى قليلا مع مقتضيات العصر. هذا خطأ فاضح. فنحن إن عشنا فى سدوم، لما أتيح لنا أن نخلص أهل سدوم، لأنك لكى تخلصهم من الخراب القادم، يجب أن تقف بعيدا خارج مدينتهم. نعم.. يجب أن تعلموا يا من تعيشون فى سدوم، أنكم لن تفلحوا فى رفع مستوى سدوم، بل، بالعكس؛ إنها لا شك تنزل بكم إلى مستواها الواطى، وتهزأ بكم كلما حاولتم أن ترفعوا صوتكم. «فكان كمازح فى أعين أصهاره» (ع ١٤).

ولكنه عندما عاد من مأموريته الفاشلة مع أصهاره، يظهر أنه تسمم بسبب استهزائهم بإنذاراته «فتوانى» (ع ١٦). كيف يترك ذويه، وأمتعته ومقتنياته، لسبب لم يقتنع به بعد؟فقد

كان واثقا أن كل شئ باق كما كان منذ بداية العالم بلا تغيير ولا تبديل، «ولما توانى أمسك الرجلان بيده».

أمسكا بيده للمعونة، وبباعث المحبة التى لا تتخلى عن أولاد الله. لم يكن للملاكين سوى أربع أياد، وكانت كل يد ممتلئة، لأن كل يد كانت ممسكة بيد أحد هؤلاء الخطاة الأربعة الماطلين. ليتنا ندرك كل ما تنطوى عليه هذه الغيرة الإلهية التى تختطف البشر من النار (يه ٢٣).

على أنهما لم يهدأ حتى خرجت الجماعة سالمة خارج المدينة، وأسرعت نحو الجبال المقابلة، وهكذا، نجا لوط من الانقلاب. ومع أنه خرج من سدوم، إلا أنه حمل معه سدوم. وهنا، لا يسعنا إلا أن نسدل الستار كثيفا، على الفصل الأخير من رواية حيات. على أن ذلك يعطينا درسا ثمينا، عن قوة الصلاة الشفاعية، إذ نرى كيف أن شخصا انحط مستواه الأخلاقى لهذا الحد، قد نجا هو وابنتاه من أجل خاطر إبراهيم، ولو كان قد استقر نهائيا فى مدينة صوغر، لكانت قد نجت هى أيضا من أجله.

إذن، فلنعجل الخطاة، لنقل لكل واحد: اهرب لحياتك، خير لك أن تخسر كل شئ من أن تخسر نفسك، وهى أثمن شئ. لا تنظر وراءك بحسرة إلى الماضى، بما فيه من أرباح أو خسائر، لا تتوان عن أن تتحصن فى مدينة الملجأ، التى هى الرب يسوع المسيح نفسه. فإن عادة التردد، تزداد قوة بمرور الوقت، والفرصة كادت تفلت من يدك، والخراب أصبح قاب قوسين أو أدنى «هو ذا الآن يوم خلاص».

الفصل الثامن عشر

بقايا الطبيعة القديمة

«ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له ماذا فعلت وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة»

(تك ٢٠:٩)

قد يكمن الشر فى قلوبنا لسنوات طويلة نسمح له بالبقاء فيها، ولا نطلب من الله اقتلاعه منها. وإذا يبقى جاثما فى تلك القلوب، فإنه ينفث فى الحياة، سموم الفشل والخيبة والأحزان، مثله فى ذلك، مثل مجرى مياه البالوعات، أو المراحيض، الذى إذا تغافل عنه صاحب البيت، عمل فى الخفاء، لتقويض أركان البيت بجملته.

فى غبش الظلام، نحن نتغاضى عن أشياء كثيرة، لا نسمح لأنفسنا بها قط، إذا اتضحت لنا حقيقتها، بكامل معناها، ونكون أول من يهرب منها بفزع، فى نور النهار الكامل. على أن ما لا تراه عيوننا، هو مكشوف وعريان لدى الله «الظلمة أيضا لديك، والليل مثل النهار يضئ. كالظلمة هكذا النور» (مز ١٣٩:١٢). وهو بنعمته، يرتب تأديب حياتنا، بحيث يكشف لنا عن طبيعة الشر المميت الذى يبغضه، بعد أن يكشف لنا عن نمو جرثومة السرطان، يجعلنا نتوق، بل نرحب بالسكين، التى تنتزعه منا إلى الأبد.

هذا ما توحيه إلينا الكلمات الواردة فى العدد الثالث عشر من هذا الإصحاح، (تك ٢٠:١٣)، التى تدل على معاهدة شريرة، عقدها إبراهيم مع سارة، قبل ذلك الوقت الذى نكتب عنه بثلاثين عاما. فإنه إذ كان يتحدث إلى ملك الفلسطينيين، انسابت من بين شفتيه بضع كلمات، تكشف لنا سر سقوطه فى تلك الخطية، عندما دخل أرض الموعد فى بداية الأمر، وعندما نزل إلى مصر، تحت ضغط المجاعة، وعندما تكرر سقوطه فى هذه المدة، موضوع تأملنا الآن. فى هذه الآية، نراه يقول، «وحدث لما أتاهنى الله من بيت أبى إنى قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين إلىّ فى كل مكان نأتى إليه. قولى عنى هو أخى».

كانت سارة أخته حقا، فقد كانت أخته من أبيه، غير أنها لم تكن ابنة أمه، ولكنها زوجته أكثر مما كانت أخته. وكان في إخفاء هذه الحقيقة، إخفاء للحقيقة الوحيدة اللازمة للإبقاء على شرفه، وعلى عفة زوجته. صحيح إننا لسنا ملزمين بسرد كل الحقيقة لإشباع شهوة حب الاطلاع، على أننا ملزمون بأن لا نخبئ الأمر الواحد، الذى يجب أن يعرفه الآخرون، قبل عقد صفقة تجارية، إن كانت معرفته ستغير النتيجة ماديا. إن الكذب يتوقف على الباعث الذى يدفعنا للكلام، كما يتوقف على الكلمات الفعلية. فإننا قد نروى حديثا كاذبا على غير علم منا، ونحن لا نقصد إلا التحدث بالصدق. فى هذه الحالة، لا يكون الحديث كاذبا فعلا، ولو كان كاذبا شكلا. وعلى العكس، قد نتحدث بكلمات صادقة شكلا، كما فعل إبراهيم، ولكننا نقصد بها أن تحمل معنى خاطئا. فى هذه الحالة، نكون فى نظر السماء قد ارتكبنا كذبا متعمدا، مخزيا.

كان السبب فى هذه الاتفاقية السرية، التى تمت بين إبراهيم وزوجته فى بدء أيام خروجه، ضعف إيمانه فى قوة القدير لحمايته هو وزوجته، وكان السبب فى هذا الإيمان الضعيف، قلة اختباراته فى صديقه القدير. وهنا، نجد عذره الوحيد. ولكن، كان يجب بعد ذلك أن تتمزق أوصال هذه الاتفاقية، بعدما اختبره إبراهيم فى الحبيب. لم يكن كافيا أن تبقى الاتفاقية بدون تنفيذ سنوات طويلة، لأنه واضح أنها كانت باقية فى الوجود، يضمرها كل من الطرفين فى قلبه، منتظرة أية فرصة تحركها وتبعثها إلى الظهور.

كان وجود ذلك الشر كامنا فى القلب – ولو لم يدركه إبراهيم – يتناقض مع العهد الذى قطعه مع الله، والعلاقة التى اتصل بها معه. فقد كان مصدرا للضعف، والفشل، والسقوط. وفوق ذلك، كان ثغرة فى إيمانه، وكان من المحتم أن يؤثر على إيمانه، ليشوه جماله، ويضعفه عن أن يثبت أمام التجارب الخطيرة القادمة. كان ممكنا أن يتغاضى الرب عن هذا الضعف فى ذلك الزمن، عندما كان الإيمان لا يزال فى المهد، وقد كان ذلك الإيمان فى طريقه إلى النضوج الكامل، حيث يكتشف فى الحال، أى ضعف فيه. ولكن، لم يكن ممكنا التغاضى عنه الآن، وفضلا عن ذلك، فإنه لم يكن لائقا أن يظهر أى ضعف فى الشخص الذى اختير ليكون مثلا للإيمان، للعالم بأسره.

لهذا، كان ضروريا أن يزيل الرب بقية الشر الكامن فى قلب إبراهيم، بعد أن يعلنه له. وهذا ما تم على هذا الوجه.

فى اليوم السابق لخراب سدوم، أخبر الرب إبراهيم، أنه سيعطيه ولدا ووارثا، فى وقت ما من السنة القادمة. وكنا نتوقع أنه سيقضى تلك الشهور القادمة فى تأملات عميقة، وصلوات حارة، تحت بلوطة ممرا، ولكن شيئا من هذا لم يحصل. ويظن البعض أن السبب فى ذلك، أنه قد سادته هزة من الخوف لدى رؤيته خراب مدن الدائرة، ولذا، لم يطق البقاء بجوارها. وقد كرهت نفسه كل ما يتصل بهذا المكان. أو لعل السبب، هو أن مجاعة أخرى كانت تهدد المكان. وعلى أى؛ فإنه «انتقل من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار» (تك ٢٠:١).

كانت جرار قاعدة لملكته، استأصل شعبها سكان الأرض الأصليين، وكانوا ينتقلون تدريجيا من حياة رعاية الغنم المتنقلة، إلى أمة حربية قوية، مستقرة، وهم الذين أطلق عليهم العبرانيون فيما بعد اسم الفلسطينيين، المرعب، الذى منه اشتق اسم «فلسطين» الذى أطلق على كل الأرض، أما قائدهم، أو ملكهم،فكان يطلق عليه ذلك اللقب الرسمى «أبيمالك» (أبى الملك).

وهنا، نرى تلك الاتفاقية السابق عقدها بين إبراهيم وسارة، التى كادت تنسى، وقد وثبت من عرينها، ونرى ضعف إيمان إبراهيم، يستتر وراءها. لقد كان يعرف مقدار استسلام أهل ذلك الجيل إلى شهواتهم، وكان يساعد على ذلك، أنهم لم يكن فيهم خوف الله (ع١١). فخشى لئلا يفتتن ذلك الملك الوثنى، بجمال سارة، أو لئلا يتخذها لأغراض سياسية، فيقتله من أجل زوجته. لذلك، لجأ مرة أخرى إلى سياسة الخداع، ودعاها أخته؛ كأن الله لا يستطيع حمايتهما معا، وتخبئتهما من وجه الشر، كما فعل مرارا فى الأيام السالفة.

(١) لقد دل تصرفه على منتهي الجبن:

فقد ارتضى أن يعرض طهارة النسل الموعود للخطر. وحتى إذا سلمنا بما يفترضه بعض المفسرين الذين يبررون تصرف إبراهيم، بحجة أنه كان واثقا كل الثقة من النسل الموعود؛ لذلك، سلم فيه، لأن إيمانه قاده بأن الله قادر أن يحافظ عليه – ومع ذلك، فقد كان أمرا مخلا بالشرف جدا، أن يسمح لنفسه بأن تجوز سارة محنة كهذه. فلو كان إيمانه قويا بهذا المقدار، كما يدعى هؤلاء المفسرون، لكان قد عرض حياته للخطر، عوضا عن أن يعرض طهارة زوجته للخطر.

(٢) كذلك كان هذا التصرف مهينا لله:

كان إبراهيم معروفا وسط هذه القبائل الهمجية كخادم الله، ولم يكن ممكنا لهم أن يعرفوا شيئا عن صفات الله، الذى لم يروه، إلا فى صفات وتصرفات خادمه الذى عرفوه بالاحتكاك به. ومع مزيد الأسف، كان مستوى إبراهيم الأخلاقى فى هذا الموقف، أحط من مستواهم، حتى أن أبيمالك نفسه، استطاع أن يوبخه قائلا «جلبت علىّ وعلى مملكتى خطية عظيمة. أعمالا لا تعمل عملت بى» (ع ٩). ولا شك فى أن الصورة التى ارتسمت فى عقل أبيمالك عن إبراهيم وإلهه،كانت كافية لفشل أية محاولة من جانب إبراهيم، ليكسب بها أبيمالك للإيمان اليهودى. وإننى أتخيله يقول: إنى أفضل أن أبقى كما أنا بعد ما رأيته فى زعيم اليهود.

إنه لأمر يمزق الأحشاء حسرة وألما وحزنا، أن نرى أحد الوثنيين يعير رجلا من أكبر أولاد الله بالكذب. وإنه لما يرثى له، أن نجد الكثيرين من غير المسيحيين، فى مستوى أخلاقى أسمى من مستوى الكثيرين من مدعى المسيحية. وحتى إذا لم يتمموا كل ما يوحيه إليهم الضمير، ولكنه لا يمكن أن ينكر أحد جمال صفاتهم، الأمر الذى يدل على حيوية الضمير بين جميع طبقات البشر. إن الهندى المستقيم السيرة، إذا ما دعى لاعتناق المسحية، أعثره الإنجليزى السكير، الذى يدعى المسيحية. وكيف يستطيع الصينى أن يبدل ديانته الكونفوشية بديانة أولئك القوم الذى يصدرون إلى بلاده السموم والمخدرات التى امتصت دماء سكانها؟ ولا شك أن المستخدم يكره ديانة رئيسه التى لا يتمسك بها إلا يوما واحدا فى الأسبوع، وينبذها فى الأيام الستة الباقية. فلنسلك إذن بتدقيق من جهة الذين هم من خارج، مزينين إنجيل يسوع المسيح فى كل شئ، ولا نعط فرصة للعدو بأن يجدف على الاسم الحسن.

(٣) وكان هذا التصرف أيضا أبعد ما يكون عن أن يقوّم أخلاق أبيمالك.

من تصرف أبيمالك، نحكم بأنه كان أكثر نبلا من إبراهيم. فقد نهض من فراشه فى الصباح المبكر، لكى يعجل فى إصلاح الخطأ، (ع٨) ، ثم حذر شعبه، وأخيرا، رد سارة مع هدايا جزيلة (ع١٣). أما كلمات التوبيخ التى وجهها لإبراهيم، فكانت فى أرق أسلوب، ثم إنه قال لسارة أن مركزها - كامرأة نبى - سيكون فى أمان تام ليس فى فلسطين فحسب، بل حيثما توجهت (ع١٦).

وهكذا، يتجلى روح النبل والشرف فى كل تصرفات أبيمالك - فى هذه الأمة الخطيرة - التى يهتز لها القلب فرحا وسرورا.

ويبدو أن روح الله، يسر بأن يكشف لنا أن طبيعة قديسيه الأصلية، ليست أرفع وأفضل من طبيعة باقى البشر. وإنهم إذا وصلوا إلى ما وصلوا إليه رغما عن فساد طبيعتهم، فيا له من عمل عجيب، ذلك الذى تتممه نعمة الله؛ إذ تستطيع أن تطعم أجف الفروع فى أصل الكرمة المخصبة. ويبدو أنه يسر بأن يظهر أحسن النتائج فى أشر البشر، الذين قد ينبذهم العالم ليأسه من إصلاحهم. إن الله لا يطلب منا أى مجهود لإصلاح ذواتنا، أكثر من أن نسلم إليه الحياة، تسليم الإيمان، وعندئذ؛ يضمن لنا كل شئ.

إيه يا من تنتقدون صنعة يد الله، نحن لا ننكر طبيعة التقلب، وعدم الثبات، التى كانت فى داود، وبطرس، وإبراهيم وغيرهم، ولكننا ننكر أن هذه الطبيعة نتيجة عمل الله، ونقرر أنها حادثة فيهم، وليست من عمل الله. وهى تبين ضعف الطبيعة البشرية الأصلية، وتبين كيف كانت تلك الأرض التى امتدت إليها يده للتفليح، جرداء. وهل لنا أن نلوم ذكاء الكرام إن عثرنا فى الجنة التى خلقها الله، على قطعة أرض تخالف التربة الأصلية، ولكنها مع الصبر، وطول الأناة، لابد أن تعطى أثمارا مضاعفة، وتزهر أزهارا يانعة، كبقية الأرض.

وأنتم..يا من تتوقون إلى حياة القداسة والكمال، التى إليها دعيتم، تشجعوا، فإن الرب لا يتأخر عن أن يعطيكم ما منحه لأى نفس أخرى، ولن توجد أية تربة، مهما كانت جرداء، لا يمكنه إصلاحها لكى تعطى أحسن الثمار «غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله». إن نفس القوة التى أقامت الرب يسوع من قبر يوسف ليجلس عن يمين الآب فى المجد، رغما عن مقاومة كل قوات الشر، مستعدة أن تتم نفس العمل معنا نحن أيضا، إن كنا كل يوم، وكل ساعة، نسلم لها أنفسنا بلا تحفظ. كل ما يجب علينا عمله هو أن نكف عن أى مجهود شخصى، ونقبل عمل نعمة الله التى تريد أن ترفعنا بأجنحتها، دون أن نصغى لأصوات العالم، الذى يحاول أن يجذبنا إلى أسفل، ودون أن نحاول أن نعمل من تلقاء أنفسنا، ما يريد أن يعمله هو لنا، أكثر بكثير مما نطلب، وما نفتكر.

قبل أن نختم هذا الفصل لنتأمل فى هذه الدروس العملية:

(١) طالما كنا فى هذا العالم، فلسنا فى مأمن من التجربة:

كان إبراهيم شيخا متقدما فى الأيام، وكان قد مر عليه ثلاثون عاما منذ داهمته هذه التجربة لآخر مرة، وفى هذه المدة الطويلة، كان ينمو فى النعمة، وفى المعرفة، ولكن، مع الأسف الشديد، لم يكن الثعبان قد قتل، بل خدش خدشا بسيطا، وكانت الأعشاب قد قطعت، لكنها لم تستأصل من جذورها. لا تفتخر إن كانت الخطية قد توارت، واعلم أن نعمة الله وحدها، هى التى تستطيع كبح جماحها، وفى اليوم الذى تكف فيه عن الثبات فى المسيح، فإن الخطية لابد أن تنتعش، وتستعيد قوتها.

(٢) يجب أن لا نلقى بأنفسنا فى طريق التجربة التى طالما غلبتنا:

فأولئك الذين يصرخون يوميا قائلين «لا تدخلنا فى تجربة»، يجب أن لا يقربوا من التجربة التى يصلون من أجلها. يجب أن لا نتوقع أن تتلقانا الملائكة فى كل مرة نطرح أنفسنا من قمة الجبل، من تلقاء أنفسنا. إن الذين امتلأت قلوبهم من خوف الله، يتجنبون الطرق الخطرة التى انتصبت فيها علامات الخطر، دلالة على سقطات الماضى، ويختارون الطرق الآمنة. لقد كان خيرا لإبراهيم، لو لم يقترب من أرض الفلسطينيين، على الإطلاق.

(٣) إن معاملة الله لإبراهيم بإزاء هذه الخطية تملأ قلوبنا ثقة وشجاعة:

مع أن الله كانت له خصومة سرية مع عبده، إلا أنه لم يتخل عنه، ولم ينبذه. وعندما أشرف هو وامرأته على حافة الخطر، نتيجة خطيته، أقبل إليهما صديقهما القدير، لينجيهما من الخطر المحدق بهما. ثم إنه «وبخ من أجلهم ملوكا. لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى» (١ أى ١٦: ٢١ و٢٢)، وأخبر أبيمالك، أنه كان محكوما عليه بالموت، وافتقده بمرض قتال، وأمره أن يلتمس الصلاة من نفس الشخص الذى خدعه، والذى رغم كل سقطاته كان لا يزال نبيا له قوة بالله.

أيها الأخ الحبيب.. هل سقطت فى الخطية، وجلبت الإهانة على اسم الله؟ لا تيأس! اعترف لله بخطيتك، بدموع وبثقة البنين، كما فعل إبراهيم بلا شك. لا تكف عن الصلاة، فإن صلاتك لا زالت حلوة فى أسماعه، وهو ينتظر حتى يجيبها. إن مقاصده نحو البشر، لا تتم إلا عن طريق هذه الصلوات. ثق إذن فى صبر الله، وطول أناته، وغفرانه، واسمح بأن تطهرك محبته - كنار آكلة - من الخطية المستترة.

الفصل التاسع عشر

طـرد هاجـر وإسـماعيل

«اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق»
(تك ٢١:١٠)

لابد لمن يقرأ هذه القصة ولـو للمرة الأولى، وهو لا يعرف شيئا عن حقيقة الأزمة الخطيرة [١] التى كان إبراهيم مقتربا إليها، والتى نرى وصفها فى الإصحاح التالى، أن يستنتج بأن أمرا كهذا، لابد حادث عما قريب، وإن الرب لابد أن يسمح بأن يجوز ذلك البطل العظيم فى محنة شديدة كهذه. إن الإيمان هو الذى يعبر عن مقدار عمق حياتنا الروحية الداخلية، وهو لا يمكن أن يتدرب إلى أسمى مراتبه، طالما كان فى القلب أى انحراف أو أى ميل شرير أو محبة غير مقدسة. لهذا، يجب استئصال هذه الأدران، أو مرور المؤمن فى بوتقة الآلام والأحزان، لكى إذا تحرر القلب منها، يصل إلى الإيمان الكامل بالله الذى هو أبهى تاج للإنسان.

كان القدير، محب البشر يعرف أن عبده تنتظره تلك التجربة القاسية فى المستقبل القريب، ولذلك، عزم على أن يعده لها بتخليصه من بعض الضعفات التى لصقت به، والتى قد تعرقل إيمانه وتشل حركته، فى ساعة التجربة. سبق أن رأينا كيف أن الرب فضح ودان، إحدى هذه الضعفات - وهى تلك الاتفاقية السرية بينه وبين سارة - وهنا نرى مسألة أخرى، وهى علاقة إبراهيم بهاجر وابنها، وكيف يعالجها الرب الذى، إما أن يطهرنا بمادة خفيفة كالصابون، وإن لم تكف هذه، فبالنار.

نحن لا نستطيع أن ندرك تماما كيف كان وجود هاجر وإسماعيل معطلا لنمو حياة إبراهيم وإيمانه. هل كان قلبه لا يزال متعلقا بتلك الفتاة التى أنجبت له ابنه البكر؟ هل كان هنالك ارتياح خفى لذلك التدبير (أن يدخل على هاجر ليرزق منها نسلا)، الذى حقق غاية

[١] ذبح إسحق (تك ص ٢٢).

محبوبة على الأقل، ولو إن الله لم يكن راضيا عنه؟ هل كان يخشى من أنه إن دعى ليقدم إسحق ذبيحة، وجد ذلك أمرا هينا، إذ يستطيع أن يستعيض عنه بإسماعيل، كوارث له؟ إننا لا نستطيع أن ندرك كل ما كان يجول بخاطر إبراهيم، على أننا نستطيع أن نستنتج مثل هذه الأفكار من قراءة الكلمات المدونة فى الكتاب فى هذا الشأن عن تاريخ ذلك القلب المحطم، كأن أصناما محبوبة، قد انتزعت عنه الواحد بعد الآخر، وترك مجردا من كل شئ، ومن كل شخص، لكى يعتمد على قدرة الله الأزلى، الأبدى، القادر على كل شئ «فقبح الكلام جدا (أو فكان الأمر محزنا جدا) فى عينى إبراهيم لسبب ابنه» (ع١١).

قد يتلهف الكثيرون ممن يقرأون هذه السطور، للحصول على الإيمان القوى الذى كان لإبراهيم.. الإيمان الذى لا يتطرق إليه الشك والريبة.. الإيمان الذى لا يرتاب.. الإيمان الذى يفتح ويغلق السماء.. الإيمان الذى يستطيع كل شئ. ولكن؛ هل أنت مستعد أن تدفع النفقة؟ نفقة الآلام.. نفقة نزع كل شئ من قلبك يعطل الإيمان.. نفقة تحطيم كل الأصنام المحبوبة، الواحد بعد الآخر.. نفقة تجريدك – حتى إلى العرى – من كل شهواتك المحبوبة، التى يتلذذ بها الجسد؟

«أتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا. قالا له نستطيع» (مت ٢٠:٢٢، مر ١٠:٣٨ و٣٩). أنت لا تستطيع أن تدرك كل ما ينطوى تحت هذه الكلمات. ولكن، كل شئ سيعلن لك خطوة فخطوة، وسوف تجد أنه لا يوجد شئ يعسر عليك تحمله، وإن ذاك الذى يعرف ضعفنا ويذكر أننا تراب سيقيس كل شئ حسب طاقتك. يجب أن لا نجزع من السكين التى ينقى بها الكرام كرمه، فإن اليد التى تمسكها هى يد ذاك الذى يحبنا إلى المنتهى، وإنه إنما قد أمسك بهذه السكين، لكى يملأ قلوبنا حمدا أبديا ويملأ السماء سبحا سرمديا.

أما آخر تنقية لإبراهيم من كل الأدران التى كانت تعوق كمال إيمانه، فقد مهد لها الرب، بولادة ذلك الابن الموعود الذى طال انتظاره. وهذا ما نجده فى افتتاحية هذا الإصحاح (ص ٢١)، وهذا ما أدى إلى تلك الأزمة التى نحن بصددها.

«وافتقد الرب سارة كما قال، وفعل الرب لسارة كما تكلم» (ص ٢١:١) فلنلق على الله كل اتكالنا وكل ثقتنا ورجائنا. إن أقل كلمة من كلام الله، كافية بأن تشد أزرنا، ويليق بنا أن

تلقى عليها كل رجائنا، إلى أبد الدهور «أما مؤامرة (أو مشورة) الرب فإلى الأبد تثبت. أفكار قلبه إلى دور فدور» (مز ٣٣:١١).

(١) على أننا يجب أن نكون مستعدين لانتظار الوقت المعين من قبل الله:

«فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنا فى شيخوخته. فى الوقت الذى تكلم الله عنه» (ع ٢). إن لله أوقاتا معينة. ونحن ليس لنا أن نعرفها، والواقع أننا لا نستطيع أن نعرفها، فيجب أن ننتظرها. لو كان الله قد أخبر إبراهيم فى حاران أنه يجب أن ينتظر ثلاثين عاما حتى يعطيه ابن الموعد، لكان قد تثقل وخارت قواه. لهذا، فإنه من فرط محبة الله، أنه أخفيت عن عينيه هذه المدة الطويلة، وعند نهايتها فقط - حيث لم يبق عليه أن ينتظر سوى بضعة شهور - قال له الله «فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن» (تك ١٨:١٤). وأخيرا حل الوقت المعين، وامتلأ بيت إبراهيم غبطة وسرورا وضحكا، فنسى هو زوجته ثقل تلك الأيام الطويلة «ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته له سارة إسحق» (أى ضحك) (ع ٣). فتشجع يا من تنتظر من لا يخيب لك رجاء، ومن لا يتأخر عن الموعد المحدد دقيقة واحدة، وثق بأن «حزنكم يتحول إلى فرح سريعا» (يو ١٦:٢٠).

«والمرأة، وهى تلد، تحزن، لأن ساعتها قد جاءت، ولكن، متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح، لأنه قد ولد إنسان فى العالم» (يو ١٦:٢١). قد يعطينا هذا الفرح، مفتاح الغبطة غير الاعتيادية، التى طفحت على شفتى تلك الأم المتقدمة فى الأيام. وذلك الضحك الذى ملأ شفتيها، عند أول إعلان أعطى لها عن ولادة إسحق، والذى كان الباعث عليه شكها فى ذلك الوعد (تك ١٨:١٢)، قد تحول إلى ضحك بعثه إتمام الوعد، ثم انفتحت شفتاها، فنطقت بقول مأثور، أقرب إلى الشعر المنظوم، يحاكى تلك الأغنية، التى نطقت بها السيدة العذراء، عندما بشرت بولادة المخلص. «فقالت (سارة) قد صنع الله إلىّ ضحكا كل من يسمع يضحك لى» (ع ٦). وبعد ذلك بزمن طويل، تهللت واحدة من بناتها وقالت: «تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى لأن القدير صنع عظائم واسمه قدوس» (لو ١:٤٦-٤٩).

سعيدة أنت أيتها النفس، عندما يملأ الله قلبك غبطة، وشفتيك ضحكا. عندئذ، يتبدد الحزن والأنين إلى الأبد، كما يتبدد الظلام أمام الفجر.

ظل الظلام مالئا ربوع بيت إبراهيم فى بداية الأمر، ولو أنه كانت تبدو فيه قليل جدا من السحب القاتمة التى تنذر بانقشاع ذلك الظلام. فإن البغض الذى حملته سارة فى قلبها نحو هاجر منذ زمن طويل، كان لا يزال جاثما فى قلبها، منتظرا أقل حركة تهيجه، وتشعل لهيبه. ومن الناحية الأخرى، كانت هاجر لا تزال تذكر تلك المعاملة القاسية، التى بلا رحمة ولا شفقة. ولا شك فى أن إبراهيم كان كثيرا ما يبذل قصارى جهده لحفظ السلام بين الاثنتين. وأخيرا، نفذ الصبر، ولم يعد فى الإمكان أن تحتمل إحداهما الأخرى، فانفجر البركان.

(٢) أما السبب المباشر لهذا الانفجار فكان فطام إسحق الصغير:

«فكبر الولد وفطم، وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحق» (ع ٨) ولكن وسط الأفراح التى كانت تسود الجميع فى هذه المناسبة السعيدة، تسللت غيمة صغيرة قاتمة، وسودت نفس سارة. فإن عينها الحاسدة، أبصرت إسماعيل «يمزح» (ع ٩). وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب. فقد كان الولد لا يزال يذكر مرارة ذلك الطرد الشنيع مع أمه. وقد كان إلى عهد قريب، هو الوارث الوحيد لكل المحلة، وكان هو الوحيد المدلل من الجميع، لذلك، فلم يكن هينا على نفسه، أن يرى تلك الاستعدادات التى تعمل إكراما لذلك الطفل الذى سيغطى عليه. وتحت ستار الهزل والمزاح، هزأ بإسحق بطريقة كشفت مرارة نفسه التى لم يكن من السهل أن يخبئها. وهذا حرك كل غيرة سارة الكامنة فى نفسها التى لم تطق إخفاءها. لماذا وهى السيدة، وهى ربة البيت، وهى أم الوارث الشرعى، تحتمل الإهانة من عبد؟ لذلك، قالت لإبراهيم بتهكم، وبلهجة تنم عن أن حياتها قد تسممت بسم الغيرة القديمة «اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق» (ع ١٠).

(٣) وهنا، لا يسعنا إلا أن نتذكر الفوائد التى يستخلصها الرسول العظيم من هذه الحادثة:

ففى أيامه، كان اليهود يفتخرون بأنهم، دون غيرهم، هم سلالة إبراهيم، ورفضوا أن يصدقوا بأن أى شعب آخر، يمكن أن يكونوا أولاد الله، وورثة الموعد. بل ادعوا حق ملكية تلك الامتيازات وذلك المركز، دون غيرهم من سائر البشر. وعندما ولد عدد غفير من الأمم (الوثنيين) فى الكنيسة المسيحية بواسطة الكرازة الأولى بالإنجيل، وطالبوا – باعتبارهم نسل إبراهيم روحيا – بجميع الحقوق المترتبة على ذلك، قام من ولدوا حسب الجسد كإسماعيل (أى اليهود)، واضطهدوا من ولدوا حسب الروح كإسحق (أى الأمم) وفى كل مكان، أقام

اليهود أنفسهم لمقاومة التبشير بالإنجيل، الذى أنكر عليهم حق انفرادهم بالامتيازات الروحية، ولإزعاج كل الذين لا يريدون إتمام الطقوس اليهودية قبل الانضمام إلى الكنيسة. لهذا، فسرعان ما رفضت الأمة اليهودية، وطرحت خارجا. ولقد شهدت الأجيال المتعاقبة، بناء الكنيسة ممن كانوا سابقا مضطهدين، أما نسل إبراهيم، فقد تاهوا فى برية الضلال، يبحثون عن ماء الحياة الحقيقى (غل ٤:٢٩).

(٤) على أنه لا يزال هنالك معنى أعمق:

إن هاجر، الجارية، التى ربما تكون قد ولدت فى صحراء سيناء - لأنها دلت على أن لها خبرة ودراية بها - تمثل روح العبودية، وروح التمسك بحرفية الناموس وطقوسه، الذى يحاول أن يربح الحياة، بإتمام كل مطالب الناموس الذى أعطى من فوق الجبل. ترمز هاجر إلى عهد جبل سيناء فى بلاد العرب، «الوالد العبودية. فإنها مستعبدة مع بنيها» (غل ٤:٢٤ و٢٥). أما سارة، الحرة، فإنها ترمز إلى عهد النعمة المجانية، وأبناؤها هم الإيمان، والرجاء والمحبة، وهذه لا تتقيد بأى إلزام (كما يقول روح الناموس «يجب أن تفعل هذا فتحيا»)، بل هى عطية مجانية من الله، وموطنها؛ ليس بناره، ودخانه، وعبوسته.. بل أورشليم السماوية، التى هى حرة، والتى هى أمنا جميعا.

والآن، يقول بولس إن خيمة إبراهيم لم تكن تتسع لهاجر مع سارة وابنيهما. فإن كانت قد سعت إسماعيل، فذلك لأن إسحق لم يكن قد ولد بعد. ولكن، حالما ولد إسحق، كان يجب أن يخرج إسماعيل. كذلك، لا يمكن أن يسع القلب هذين المبدأين المتناقضين، روح الناموس، وروح الإيمان، روح الناموس؛ الذى يعلم بضرورة إتمام طقس الختان الظاهرى، وروح الإيمان؛ الذى يقبل عمل الخلاص الذى أتمه الفادى، لأن وجودهما فى قلب واحد، أمر مستحيل كاستحالة وجود النور مع الظلام، ووجود الحرية مع العبودية.

لذلك، نرى الرسول وهو يخاطب أهل غلاطية المتنصرين، الذين كانوا فى خطر خلط هذين المبدأين المتناقضين، بسبب تعليم المعلمين المتهودين، يأمرهم بالسلوك فى خطوات إبراهيم، ونزع روح العبودية الذى ينسب للنفس حالة الحزن والآلام التى لا تنقطع.

أيها القارى العزيز.. أنت تثق فى المسيح، ولكنك قد تكون عائشا فى عبودية دائمة للوساوس والخزعبلات، أو قد تكون محاولا أبدا، أن تتمم بعض الفرائض لكى تصل بذلك إلى

إتمام خلاصك. هذا خطأ جسيم. احذر من مرض وسوسة الضمير، وتشككه، الذى هو أخطر مرض تصاب به النفس البشرية. لا تتوهم بأن محبة الله، تتوقف على إتمام أعمال صغيرة كثيرة، لم ترد عنها فى الكتاب المقدس تعليمات معينة. ثق فى المسيح، واقبل خلاصه الكامل العجيب. لا تعمل لكى تصير ابنا، بل اعمل لأنك صرت ابنا «اطرد الجارية وابنها». عش حياة الحرية والسعادة، كإسحق الذى كان مركزه ثابتا، وأكيدا ومضمونا، ولا تعش حياة إسماعيل، الذى كان يتوقف مركزه على سلوكه الحسن «العبد لا يبقى فى البيت إلى الأبد، أما الابن فيبقى إلى الأبد».

أما بقية الرواية فيذكرها الكتاب بالإيجاز.

وهنا نرى إبراهيم، يودع هاجر وابنها الوداع الأخير، بحرارة وحرقة، ويطردهما من بيته. وفى الفجر، باكرا جدا، خرج الولد وأمه، هائمين على وجهيهما فى الصحراء. وكم كان مؤلما جدا لنفس إبراهيم، أن يضع الخبز فى يدى هاجر، وأن يعلق بنفسه قربة الماء فى كتفها، وأن يقبل إسماعيل للمرة الأخيرة. ومع ذلك، كان يجب أن لا يكشف لسارة، عما ملأ قلبه مرارة وحزنا. وكم من هموم ومتاعب فى داخلنا، لا يعرف عنها أحد شيئا، إلا الله وحده!

وحسنا كان كل ما صار. فقد دبر الله بعنايته لإعالة كل من الولد وأمه. فإنه إذ كاد حبل رجاء الأم المسكينة ينقطع، وكاد الولد يموت عطشا، فى حرارة الشمس المحرقة، تحت ظل إحدى الشجيرات الحقيرة، افتقدها ملاك الرب، وهدأ روعها، ووجه أنظارها إلى بئر ماء كانت قد عميت عن أن تراه، بسبب دموعها الغزيرة، ثم وعدها بأن ابنها سيصير أمة عظيمة. لم يكن ممكنا أن تنمو مواهب إسماعيل، ويصل إلى حال الرجولة الكاملة، لو كان قد ظل ينعم بالعيش الرغيد فى محلة إبراهيم. فقد كان ضروريا له - ولنا نحن جميعا - أن يستنشق جو الحرية فى الصحراء، وفيه يجاهد ويعيش بذراعه بسبب الفاقة والحاجة. إن ما نراه اليوم، يكسر قلوبنا، لابد أن تبرهن السنون التالية على أنه كان للخير، وكان بترتيب من الله. «فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها» (ص ٢١:١٢).

هو ذا ثقل آخر يرفع عن كاهل «خليل» الله، وخطوة أخرى تتحد لإعداده لانتصار إيمانه انتصارا باهرا، الأمر الذى كان يهيأ له فى كل حياته، والذى كان قريبا على الأبواب.

قد تزهو بعض الزهور بعد أن تظل فى النمو قرنا كاملا. وسوف يعتقد الكرام الإلهى أن سنوات التعب، والعناية الممتزجة بالصبر، والمحبة، قد عوضت عندما يرى أن النفس التى تعب فى العناية بها قد أزهرت، ولو فى حادثة واحدة، كتلك التى سوف نتأمل فيها قريبا. إن حوادث كهذه تبذر الأعمال النبيلة، وأعمال البطولة، لكل المستقبل.

الفصل العشرون

مكـان هـادئ للراحـــة

«وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع ودعا هناك باسم الرب الإله السـرمـدى وتـغـرب إبراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة»

(تك ٢١:٣٣ و٣٤)

كثيرا ما يسمح الرب بأن تمر فى حياتنا فترات راحة وسلام، لكى يعدنا لتجربة قادمة. على أن هذه ليست قاعدة ثابتة، فإننا إن كنا ننعم بإحدى البركات، فليس ذلك دليلا على أنها مقدمة لبعض المتاعب، أو التجارب. ولكن، يكاد يكون ثابتا – على الأقل – أنه إن كان كل جو صحو لا يحتم أن يعقبه الضباب؛ إلا أن أوقات الأحزان، والآلام، والتجارب، تكون فى كل الأحيان تقريبا، مسبوقة بساعات، أو أيام، أو سنوات الاختبارات الروحية الحلوة، التى تبقى كامنة فى الحياة، لتشد أزر النفس، وتبهجها، وتعزيها فى الوقت المناسب.

وهذا ماحدث مع إبراهيم؛ فقد سبق أن رأينا كيف أن صديقه الأبدى القدير، كان يهيئه لتجربته القادمة، بحكمة وبرقة ولطف، أولا؛ بتخليصه من شر تلك الاتفاقية السرية، السابق عقدها مع سارة، ثم بتخليصه من وجود هاجر وابنها معه. والآن، نرى الله يجرى فى روحه إعدادا آخر فى تلك الفترة، فترة الراحة، والهدوء بجوار بئر سبع، أو بئر القسم.

بعد أن ترك إبراهيم جرار، رحل هو وقطعانه إلى الوادى الخصب، الممتد من البحر إلى داخلية البلاد. وكانت المنطقة تكفى لرعاية قطعان عديدة. كان الوادى فى الشتاء يمتلئ ماء، ويتحول نهرا جاريا، وفى أى وقت، كان يمكن الحصول على الماء بمجرد حفر بئر، لعلها لا تزال باقية إلى اليوم، بلغ عمقها نحو أربعين قدما، وكانت مياها عذبة صافية.

وسرعان ما أتاه أبيمالك الملك، مع فيكول رئيس جيشه، وطلب منه قطع معاهدة لا يلتزمان بها وحدهما، بل يلتزم بها أيضا كل ذريتهما«احلف لى بالله ههنا أنك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى» (ع ٢٣). وقبل المصادقة نهائيا على هذه المعاهدة، بسط إبراهيم أمرا لا يزال

إلى الآن مصدر نزاع شديد فى الشرق. فإن رعاة أبيمالك، كانوا قد اغتصبوا البئر التى حفرها عبيد إبراهيم. أما الملك، فقد أنكر علمه بكل ما حصل، وقرر بأنه ليس له يد فى الأمر. وفى هذه المعاهدة التى قطعت بين الرئيسين، وضعت عبارة تتعلق بهذه البئر، لكى تكون هذه العبارة معلومة للأجيال القادمة.

لم تكن مواد الكتابة معروفة بعد، ولذا؛ فقد كانت السبع النعاج التى أعطاها إبراهيم لأبيمالك، هي العلامة الظاهرة الدائمة، على أن البئر ملك إبراهيم. وهكذا، إذ قطع العهد بجوار البئر، اقترن اسمها باسم المعاهدة إلى الأبد، فدعيت «بئر سبع» أى «بئر القسم» أو «بئر سبع» إشارة إلى السبع الهدايا التى اقترنت بها المعاهدة.

ولزيادة تثبيت المعاهدة، غرس إبراهيم شجرة أثل، كى تكون بخضرتها الدائمة تذكارا للمعاهدة. وهناك أيضا، بنى مذبحا، ودعا باسم الرب الإله السرمدى «وتغرب إبراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة». ويا لها من بهجة وغبطة وسعادة، تلك التى تمتع بها فى هذه الأيام الطويلة. فى كل تلك الأيام، لم يرقب شيئا إلا نمو ابنه إسحق، من الصبا إلى الشبوبية، ومن الشبوبية إلى فخر الرجولة، لأن إسحق كان موضع آماله، وفيه حصر كل محبته. إن لغة البشر تعجز عن أن تعبر عن مقدار فرح إبراهيم بابن شيخوخته المحبوب «ابنك، إسحق، وحيدك، الذى تحبه»، كان يبدو كأن فرحا وضحكا دائما قد أذن به الرب ليحل فى ذلك البيت، ويلبس أيام إبراهيم الأخيرة وزوجته تاج جمال وبهجة وحبور. ومن ذا الذى كان يخطر بباله أن أعظم تجربة فى حياته كانت تنتظره، وأن هذا الجو الصافى، سيتلبد يوما ما بالغيوم القاتمة مهددة سعادته بالفناء بضربة واحدة.

لا يستطيع أى واحد منا يعرف ما ينتظره. لكن الواضح على الأقل، هو أن نصيبنا فى الحياة، وهبه لنا القدير، بمحبته الأبدية، الذى لم يشفق على ابنه، وأخذ على عاتقه بأن يهبنا معه أيضا، كل شئ. وهنا، يتبادر إلى الذهن سؤال، لن نجد له جوابا فى الكتاب المقدس: أى شئ لا يعلمه الرب للذين يحبونه؟ إنه لا يمنع عنهم أية محبة، أو أية حكمة، أو أية نعمة يحتاجونها. ومع ذلك، فقد يضاف إلى كل هذا بعض الآلام التى يجب أن يتحملوها. إننا فى بعض الأحيان، ننسى أن ما يأخذه الرب منا، يأخذه كما بنار، وإنه لا توجد طريقة أخرى سوى طريقة الآلام، لتنزع عن طبيعتنا كل ما لصق بها من أقذار، وإن الطريق الوحيد لحياة القيامة من الأموات، والصعود إلى السموات، هو طريق جثسيمانى، والجلجثة،

والصليب، والقبر. لا يتجاسر على أن يوقع بنا الآلام الشديدة، إلا المحبة التى تريد لنا من ورائها سعادة الحياة، «الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله» (عب ١٢:٦). فلنستعد إذن لساعات التجربة القادمة، بأن نفعل كما فعل إبراهيم.

(١) لنعش بجانب البئر :

يوجد ميل شديد بين المسيحيين اليوم، ليعظموا أماكن معينة، ومناظر خاصة، اقترنت بها بعض البركات العظمى، وينالوا منها قوة يدخرونها، لتكون لهم عضدا فى الأيام القادمة. على أن الكثيرين من هؤلاء، يكونون فى خطر أن ينسوا، إنهم عوضا عن زيارة البئر مرة واحدة فى السنة، يجب أن يلبثوا بجوارها، ويعيشوا بجانبها.

إن مياه تلك البئر، تتحدث عن حياة الله فى المسيح يسوع ربنا، والمكنوزة لنا فى أعماق كلمة الله التى لا قرار لها. إن كانت البئر عميقة، إلا أن الدلو - دلو الإيمان - يستطيع أن يصل إلى مياهها الحلوة، ويقدمها إلى الشفاه الجافة، والقلوب المتعطشة.

من أعظم البركات التى يمكن للنفس الحصول عليها، هى أن تتعلم كيف تتعود على أن تغوص فى أعماق الآبار وتجذب منها المياه لترتوى. فإن معظم البشر يميلون إلى التعود على الشرب من المياه التى أخرجها الآخرون، وقلما يميلون إلى أن يتعلموا كيف يخرجون المياه لأنفسهم.

إن اعتقادى، الذى يزداد كل يوم رسوخا، هو أنه إن كان المسيحيون لا يكتفون بمجرد قراءة بعض إصحاحات كل يوم من الكتاب المقدس، بل يدرسون ما يقرأونه دراسة وافية، فيرجعون كثيرا إلى هامش الكتاب، ويرجعون إلى نص الكتاب فى لغاته الأصلية، ويقارنون الآيات بعضها بالبعض الآخر فى الأسفار المختلفة، ويحاولون أن يصلوا إلى فكرة كاملة أو أكثر، من أفكار الله، لكانت اختباراتهم الروحية الآن، أغزر بكثير، ولازدادت نفوسهم تشوقا لدراسة الكتاب، وقل اعتمادهم على البشر، وعلى الوسائط البشرية، ولازدادوا فرحا حقيقيا بكلمة الله الحى. ليهبنا الرب أن نتحقق باختبارنا العلمى ما قصده المسيح عندما قال «الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو ٤:١٤).

أيها القارى العزيز.. افتح قلبك لتعليم الروح القدس. لا تقنع إلا بالتعمق فى معرفة

الكتاب المقدس. إسأله أن تتكرر فى داخلك، تلك المعجزة التى تمت فى القديم «ومن هناك إلى بئر. وهى البئر حيث قال الرب لموسى اجمع الشعب فأعطيهم ماء. حينئذ ترنم إسرائيل بهذا النشيد. اصعدى أيتها البئر أجيبوا لها» (عد ٢١:١٦ و١٧)، «حينئذ يقفز الأعرج كالإيل ويترنم لسان الأخرس، لأنه قد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر لو يصير السراب اجما والمعطشة ينابيع ماء» (إش ٣٥:٦ و٧).

(٢) لنلتجئ تحت ظلال العهد :

إن المعاهدة التى قطعها إبراهيم مع أبيمالك، جعلته فى مأمن من الشر. فكم تكون نفس المؤمن فى سلام كامل، وأمن تام، وراحة عظمى، إذ تلتجئ تحت ظلال العهد الأبدى، الذى هو «متقن فى كل شئ ومحفوظ» (٢ صم ٢٣:٥). هنالك بعض المسيحيين، يشكون فى أمر خلاصهم الأبدى، ويخشون لئلا يسقطوا من بجانب بئر سبع (أو بئر القسم).

فى قديم الأزلية، قطع الله الآب السرمدى، عهدا مع الابن، وتلخص شروط ذلك العهد فيما يلى: من الناحية الأولى تعهد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، بالطاعة الكاملة، وموته الكفارى، عن جميع الذين يؤمنون. ومن الناحية الأخرى، وعد الآب أن كل من يؤمن به، ينجو من قصاص تعدى الناموس، وتغفر له خطاياه. ويقبل كابن، ويخلص خلاصا أبديا. هذا التعبير البشرى، لا يمكن أن يؤدى الحقيقة كاملة عن أسرار الله التى لا قرار لها، التى تشتهى أسمى الملائكة، عبثا، الإطلاع عليها. ومع ذلك، فهو يقدم لنا - حسبما تتسع لغة البشر - حقيقة جوهرية، يستطيع أصغر المؤمنين الاحتماء فيها.

إن السؤال الوحيد، الذى أقدمه إليك أيها القارئ الكريم هو هذا: هل تؤمن بيسوع المسيح؟ أو بعبارة أبسط: هل تريد أن يخلق فيك الروح القدس إيمانا حيا بمخلص البشر؟ هل تريد أن تؤمن؟ هل تضع إرادتك تحت تصرف الله فى هذا الأمر الجوهرى، وهو الإيمان؟ هل أنت مستعد أن تسلم أى شئ، أو كل شئ يعوقك، عن بساطة الإيمان فى المسيح؟ إن كان الأمر كذلك، فتقدم لكى تأخذ من يد الله بركات العهد، مؤيدة بمشورة الله، وقسمه. قد يكون إيمانك ضعيفا، ولكن؛ اعلم بأنه لابد أن ينمو، حتى يصل إلى الكمال. وكما كان فلك

نوح، واسطة فى خلاص أصغر الحيوانات، كأكبرها، كذلك لابد أن يظلل العهد أضعف المؤمنين، كأكبر القديسين.

هذا ما يحصل لنا تماما، إن كنا نؤمن، فإن خطايانا تغفر لنا، وتنقش أسماؤنا فى قائمة المخلصين، ونحسب ضمن أولاد الله، وتبدأ فى داخلنا الحياة الأبدية. «فإن الجبال تزول، والآكام تتزعزع، أما إحسانى فلا يزول عنك، وعهد سلامى لا يتزعزع، قال راحمك الرب» (إش ٥٤:٥). ألا يعزينا هذا وسط مصائب الحياة، وأحزانها التى تكسر القلب؟ لا شئ يستطيع أن يقطع ربط العهد التى ارتبطت بها نفوسنا بإلهنا الأبدى. «أليس هكذا بيتى عند الله» «أو (ولو يكن بيتى هكذا مع الله) لأنه وضع لى عهدا أبديا متقنا فى كل شئ ومحفوظا. أفلا يثبت كل خلاصى وكل مسرتى» (٢ صم ٢٣:٥).

افرح إذن بكل الخيرات التى يعطيها لك الرب إلهك. اغرس أشجارك، واستظل بظلها، وتنعم بأثمارها. واصغ إلى ضحك إسحق ابنك. لا ترهب المستقبل، بل ثق فى محبة الله العظمى. عش بجانب البئر، واحتم فى العهد. حتى إذا دنت التجربة، تكون مستعدا لملاقاتها بقلب ثابت، وعزم وطيد.

الفصل الحادى والعشرون

التجربـــة العظمـــى

«خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق اصعده هناك محرقة»

(تك ٢٢:٢)

طالما كان البشر فى هذه الحياة، فلا يمكن إلا أن يزدادوا إعجابا بهذه الحادثة التاريخية الفريدة، التى لا تفوقها فى كل تاريخ البشرية، إلا حادثة تقديم الآب السماوى ابنه للموت الذى لم يكن منه مفر. لقد اشترك كل من الله وإبراهيم فى الحزن إلى حد محدود،، ولو أن محبة الله اللانهائية، تدخلت، وأمسكت يد إبراهيم فى أحرج الأوقات، وأنقذته مما لم يشأ أن ينقذ نفسه منه.

(١) «إن الله امتحن إبراهيم» (ع ١) :

أو بمعنى أبسط، إن الله جرب إبراهيم، يجربنا الشيطان، لكى يظهر كل ما فى قلوبنا من شر، أما الله، فيجربنا، لكى يظهر كل ما فيها من خير. عند ما تحل بالمؤمن التجارب المحرقة التى يدعى لها ليجوزها، تتلاشى منه بقايا الشر التى قد تكون لا تزال عالقة به، والتى تعطل نموه وتقدمه فى الحياة الروحية، وفى نفس الوقت، تخرج إلى عالم الظهور تلك المواهب الكامنة التى تلقتها النعمة، ولكن لم تبرز بعد إلى الوجود، ومن ثم، تنمو وتتفتق، حتى تأخذ مكانتها اللائقة، الأمر الذى ما كان ممكنا أن يتم بغير تلك التجارب المحرقة. فى ساعة الحزن الشديد، ننطق ببعض الكلمات، ونتصرف بعض التصرفات التى لم نكن نحلم بها فى غير تلك الأوقات، والتى لا نستطيع أن نتراجع عنها ثانية، ونحن إذ نتطلع إلى الوراء، نعجب كيف تصرفنا، كما حصل. ومع ذلك، فإننا لا نحزن، لأن ذكريات الماضى فى تلك الساعة السامية، ميراث ثمين، وهضبة نستطيع منها أن نبصر منظرا أوسع، ونصعد إلى المراقى الأسمى التى تنتظرنا.

إن حوادث الحياة اليومية، وكذلك الأزمات النادرة، يقصد بها الله أن تقدم لنا الفرصة لتمرين مواهبنا الروحية وتقويتها. فطوبى لمن تعلموا كيف يكونون مستعدين دواما، لإظهار كل موهبة فى وقتها المناسب، ونحن إن استطعنا التطلع دواما، إلى الفرص التى فيها تظهر صفات المسيح الخاصة، التى تظهر بأجلى وضوح فى أوقات المحن، والشدائد، والتجارب. لوجدنا أنها هى ربوات مركبات الله [١] التى تنتظرنا لتحملنا إلى الأعالى، التى لا نستطيع الوصول إليها بأقدامنا.

(٢) لكن الله لا يرسل لنا تجربة – صغيرة كانت أم كبيرة – قبل أن يعدنا لها أولا :

إنه «يجعل مع التجربة أيضا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا» (١ كو ١٠:١٣). إذن، فالتجارب هى باعث الثقة فى الله، والاتكال الكلى على نعمته. وكم حادثة بسيطة، أرسلت إلينا لامتحاننا، قبل أن تدهمنا التجارب العظمى. والله يدعونا لتسلق قمم الجبال القليلة الإرتفاع، قبل الصعود إلى القمم العليا، يدعونا للسير فى المخاضة، قبل عبور المحيطات المتلاطمة الأمواج. لهذا، قيل عن إبراهيم «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم».

(٣) وفضلا عن ذلك، إن الله كثيرا ما يعدنا للتجربة القادمة بإعلان نفسه لنا فى رؤيا جديدة مجيدة :

فمما يلاحظ؛ أنه ذكر فى ختام الإصحاح السابق، أن إبراهيم «دعا باسم الرب الإله السرمدى». وهذه التسمية، لم نسمعها على شفتى إبراهيم من قبل. فإنه لم يعرف عن الله قبل الآن، سوى أنه الإله «القدير» (تك ١٧:١)، ولكن، لم يكن يعرف عنه بأنه هو «الإله السرمدى». لقد أشرق فى قلبه فجأة نور جديد فى ذلك الوقت، عن أزلية الله، وأبديته، وثباته ثبوت الجبال الرواسخ، وعدم قابليته للتغيير. من ذا الذى يستطيع أن ينسى التأثير الأول الذي انطبع فى نفسه – لدى رؤيته البحر لأول مرة – عن عظمته، واتساعه اللانهائى.

وإذ ذكر إبراهيم هذه التسمية الجديدة فى صلاته بجانب البئر، تحت ظل الشجرة التى غرسها، امتلأت نفسه بسلسلة من الأفكار السامية المقدسة، وكان هذا الاسم الجديد عاملا قويا مكنه – كما يمكننا نحن أيضا – من احتمال تلك التجربة القادمة.

---

[١] مز ٦٨: ١٧

(٤) ثم أتت التجربة فجاة :

رأينا كيف كانت حياة إبراهيم تمر بهدوء وسلام، فقد تصالح مع أبيمالك، وسكن آمنا بجوار آباره. مبتهجا بإسحق ومغتبطا بالإله السرمدى الذى قد اتخذه له خليلا. وكنا نتوقع أن نناديه هكذا: أيها الرجل السعيد. لقد دخلت أرض بعولة [١] إن شمسك سوف لا تغيب ثانية، ولا يغيب قمرك، وإن أمامك سنوات سعيدة تنتظرك، محملة بحلقة مفرغة من البركات. ولكن، هذا لم يكن نصيبه. ففى تلك اللحظة عينها،داهمته تلك التجربة التى كانت أعظم تجربة حلت به فى الحياة. ليس من الضرورى أن ترى النفس إعلانا أو إنذارا سابقا لكل تجربة، فكثيرا ما أتت التجارب دون إنذار سابق. لهذا، يليق بنا أن نكون دواما مستعدين، لأنه فى ساعة لا نعلمها، وفى وقت لا نتوقعه، يأتى ابن الإنسان.

(٥) ولقد مست التجربة إبراهيم فى أدق نقطة :

لأنها انصبت على رأس إسحق. ولم يكن ممكنا أن يجرب فى أى شئ فى حياته أثمن من وارث الموعد، ابن شيخوخته، موضوع مسرته، وبهجة حياته، وضحكه.

(١) فى هذه التجربة امتحن الله محبته:

لقد فعل كثيرا من أجل محبته لله، ومهما عزت التضحية، كان يضع الله أولا، لأنه كان يسره أن يضحى كل شئ فى سبيل محبته له. من أجل هذا، نزع نفسه من حاران.. من أجل هذا، ارتضى أن يكون متجولا بلا مأوى، إذ قنع بأن يكون نزيل بيت الله..من أجل هذا، ضحى الآمال التى بناها على إسماعيل، طاردا إياه ليهيم على وجهه فى الصحراء، بلا رجعة. ولكن؛ ربما لو سئل عما إذا كان يحس أنه قد أحب الله قبل كل شئ، لعجز عن الإجابة بالإيجاب. ذلك لأننا لن نستطيع أن نقيس محبتنا بمقياس إحساسنا، فإن دليل المحبة الوحيد الصادق، يقوم على مقدار استعدادنا لما نفعله من أجل من ندعى محبته «الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى» (يو ٢١:٥).

على أن الله عرف مقدار عمق وصدق محبة إبراهيم، وأنه قد أحبه فوق كل شئ. لهذا، وضعه تحت امتحان دقيق جدا، لكى يدرك كل البشر أن الإنسان البشرى، يستطيع أن يتفانى فى محبة الله، ولو وقف فى طريق المحبة أعز عزيز لديه. ألا تشتهى أن

[١] أى متزوجة (إش ٤:٦٢). وقد ذكر إشعياء هذه الكلمة ليظهر تمسك الأرض اليهودية بالله كتمسك المرأة ببعلها.

تحب الله كما أحبه إبراهيم؟ إذن؛ أخبره بأنك مستعد لدفع الثمن لو وضع فى قلبك هذه المحبة. ثم اذكر بأنه إن طلب منك فى بداية الأمر، أن تقدم إليه إسحق ذبيحة، فما ذلك إلا لكى تأخذ مكانك الحقيقى، وتظهر إلى العالم اختيارك. لأنه سيعيد إليك حبيبك من على المذبح الذى قدمته عليه. «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق وأصعده هناك محرقة» (تك ٢٢:٢).

(٢) وفيها أيضا امتحن إيمانه:

كان إسحق ابن الموعد. «بإسحق يدعى لك نسل». لقد أكد له الله تأكيدا لا يقبل الشك، ولا يحتمل التأويل، أن هذا الصبى سيكون حلقة الإتصال بينه وبين نسله العديد الموعود. والآن، يطلب من الوالد أن يقدمه محرقة. حقا؛ كان هذا امتحانا شديدا لإيمانه. فكيف يتسنى لله أن يحترم كلمته ويسمح بموت إسحق؟ هذا ما لم يكن ممكنا أن يدركه العقل البشرى على الإطلاق. ولو كان إسحق قد كبر، وصار له ابن يحافظ على النسل فى الأجيال القادمة، لزالت العقبة. ولكن، كيف يتفق أن يموت إسحق، الذى لم يكن له ابن بعد، وأن يتحقق الوعد الذى أعطى لإبراهيم الخاص بإعطائه نسلا - من إسحق - كرمل البحر وكنجوم السماء؟ كان الفكر الوحيد الذى ملأ قلب إبراهيم على أى حال، هو «أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضا» (عب ١١:١٩). فقد كان واثقا أن الله لابد أن يحترم كلمته، بأى حال من الأحوال. ولم يكن له أن يتساءل أو يتحاجج، ولكن؛ كان عليه فقط أن يطيع. لقد سبق أن رأى بأن قوة الله وهبت الحياة، حيث لم تكن ترجى الحياة، فلماذا لا يتكرر الأمر. لهذا، فيجب أن يتمم ما أمر به، مهما كانت الظروف، متكلا على غنى الله الذى لا يستقصى.

ليت الرب يهب الجميع إيمانا كهذا، يؤمن فقط بما يقوله الله، واثقا أن الله لابد أن يتمم ما وعد به، متخطيا كل الحواجز التى تقف فى وجه مواعيد الله، كأنها مستحيلة، وناظرا فقط إلى مجرد كلمة الله الأمين فى مواعيده. حقا، إن هذا أمر ليس عسير المنال. إذن؛ فلماذا لا نبدأه من الآن، متقدمين من خطوة إلى خطوة، حتى نتخلص من شكوك وضعفات البشرية، مستندين على الأذرع الأبدية.

(٣) وفيها أيضا امتحن طاعته:

لابد أن تكون كلمة الرب قد أتت لإبراهيم فى رؤى الليل. وفى الصباح التالى، باكرا جدا، قام على الفور، منفذا الأمر الذى صدر إليه. لم تكن لديه فى الليلة السابقة، أقل فكرة

عن تلك المأمورية، التى كان سيقوم بها فى فجر تلك الليلة، ولكنه قام على الفور. ربما نكون قد التمسنا له بعض العذر لو كان قد تردد فى القيام بهذه المأمورية وأجلها على قدر استطاعته. ولكن، هذه لم تكن عادة ذلك البطل العظيم، الذى تعود سرعة الطاعة، وهى أثمن الصفات لكل نفس فى القداسة. «فبكر إبراهيم صباحا» (ع ٣)، ولم يسمح لأى شخص آخر، بأن يفك الحمار، أو يجمع الحطب، أو يتدخل فى سرعة إتمام الأمر، ولكنا نراه قد «شد على حماره، وشقق حطبا للمحرقة، وذهب إلى الموضع الذى قال له الله». ولقد كان هذا التعجيل، خير كفيل لإتمام مأموريته. فبينما كان الرعاة قد بدأوا يتحركون ليأخذوا القطعان إلى مراعيها، كان إبراهيم فى طريقه. ولست أظن أنه كشف سره لأى إنسان، حتى لسارة. ولماذا يفعل ذلك، وقد كان واثقا من أنه سيرجع إلى المحلة هو والصبى، بعد انتهاء تلك الرحلة القصيرة الخطيرة؟ «أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما» (ع ٥).

(٦) وهذا الامتحان لم يحرك أية غريزة من غرائز نفسه الطبيعية :

لقد كان أول كل شئ، يعرف صوت الله حق المعرفة، بدرجة لا تدع مجالا للشك فيه. فقد سبق أن أصغى إليه مرارا عديدة، ولم يكن ممكنا أن يخطئ فى يقينه هذا الصوت، فى هذه الأزمنة الخطيرة. وقد كان واثقا من أن الله لابد أن يجد له طريقة للخلاص، ينجو بها إسحق، ولو لم يدرك ماهية هذه الطريقة. وفضلا عن ذلك، فإنه كان يعيش فى زمن، انتشرت فيه أمثال هذه الذبيحة التى أمر بأن يقدمها، وهو لم يكن قد تلقى أمرا صريحا من الله، خليله القدير، بأنه يكره أمثال هذه الذبائح. يجب عند قراءة الكتاب المقدس، أن نتذكر أن جميع عبيد الله، كانوا فى بداية الأمر متأثرين - كثيرا أو قليلا - بالآراء والمعتقدات الدينية، التى كانت منتشرة فى جيلهم. كما يجب أن لا نتوهم، أنهم كانوا خالين من بعض الأخطاء التى نشأت، لأنهم لم يعطوا إلا بعض إعلانات ضئيلة، وأن هذه الأخطاء، قد زالت تدريجيا، حتى انبثق نور الإنجيل الوضاح.

من أهم مبادئ ديانة الكنعانيين وقتذاك، أن كل امرئ يجب أن يقدم بِكْرَهُ عن معصيته، أن يقدم ثمرة جسده، عن خطية روحه، على مذابح موآب، وفينيقية، وقرطاجنة، بل فى تاريخ إسرائيل، قدمت المحرقات التى تبين فزع الإنسان من الخطية، رغبته فى إرضاء الله. وقد سقط البشر فى هذا النوع من الإجرام،لا لأن الآباء كانوا أقل إشفاقا على فلذات أكبادهم من آباء العصور الحاضرة، بل لأنهم كانوا ينظرون نظرةً أحدَّ إلى رعب الخطية التى

لم تغفر، وكانوا يعبدون آلهة يعرفونها، وينسبون إليها تعطشها إلى الدماء، والمحرقات، وكانوا لا يستكثرون أى ثمن لإرضاء تلك المطالب، التى فرضها عليهم الجهل، والخرافات، والشعور بالخطية.

لعل إبراهيم شهد أخيرا أمثال هذه الذبائح، وإذ ذاك، فكر فى إسحق، وفى تقديمه ذبيحة كالباقين، وتعجب من عدم طلب هذه الذبيحة منه إلى الآن. ولهذا، فلم يدهش عندما قال الله «خذ ابنك وأصعده محرقة»، كان يجب أن يتعلم، أنه إن كان الله يطلب أن يحبه البشر، كما يحب الأمم، آلهتهم الوهمية القاسية، إلا أن السماء لا تسمح بالذبائح البشرية، أو بتقديم الأبناء محرقات. فكان يجب أن تقدم ذبيحة أعظم للتكفير عن الخطية. لهذا، كان يجب أن تتمشى طاعة إبراهيم إلى حد محدود، ثم توقف نهائيا، لكى تعرف جميع الأحقاب التالية، أن الله لا يطلب، ولا يسمح، ولا يقبل دماء البشر، من أيدى البشر، ولا دماء الأبناء الأعزاء، وإنه لا يسر بأمثال هذه المحرقات.

وهنا؛ فلنسأل ذواتنا،عما إذا كان لنا روح إبراهيم، فنرضى بأن نسلم فى أعز شئ لدينا، ونحب الله قبل كل شئ، ونعطيه مهما كلفتنا الطاعة من نفقة، ونذبح أعز آمالنا، إن شاءت إرادة الله، واثقين من أنه لن يتنحى عنا، ولن يخدعنا. إن كان الجواب بالإيجاب، فليثبتنا الرب فى هذه الروح، وليثبتها لمجد اسمه، ولكمال إيماننا.

نحن لن نستطيع أن ندرك مقدار تأثير تلك الثلاثة الأيام، فى نفس إبراهيم – التى ارتحل فيها لإتمام مأموريته. إنه أيسر دواما، أن يعجل المؤمن فى إتمام ما يطلب منه، من أن ينتظر الأيام الطويلة، وربما السنوات. على أنه كثيرا ما ازدادت النفس يقينا وإقداما لها فى كل الأيام التالية. وبالرغم من انشغال عقل إبراهيم فى أحزانه القادمة، فقد رأى أن الضرورة موضوعة، عليه ليخفيها تحت ستار رباطة الجأش، بل تحت ستار الفرح، لكى لا يدرك ابنه، ولا عبداه شيئا من مرارة الآلام، والأحزان، التى كانت تقطع نياط قلبه.

وأخيرا.. فى اليوم الثالث، رأى نهاية المرحلة من بعد. سبق أن أعلمه الرب إنه سيخبره عن الجبل الذى يختاره، لتقديم المحرقة عليه، والآن، لعل اقتناعا مفاجئا ملأ قلبه بأن إحدى قمم الجبال التى تقع أمام بصره، هى التى قد عينها الرب، لكى تكون مسرحا، تتم عليها هذه الرواية التاريخية الخالدة، التى ستبرهن على أنه قد أحب الله قبل كل شئ.

يخبرنا التقليد، الذى يبدو أنه يستند على كل الحق، إن هذا الجبل «أرض المريا» هو بعينه بيدر ارونا اليبوسى، أى المكان الذى بنى عليه سليمان الهيكل فيما بعد. وهنالك ملاءمة عجيبة فى هذه الحقيقة، وهى؛ أن طاعة إبراهيم تمت فى ذلك المكان، الذى كانت ستسفك فيه أنهار، الدماء إشارة إلى الذبيحة العظمى، التى كانت تشير إليها ذبيحة اسحق.

وحالما ظهر الجبل أمام إبراهيم، قال لغلاميه: «اجلسا أنتما ههنا مع الحمار، وأما أنا والغلام، فنذهب إلى هناك، ونسجد ثم نرجع إليكما». ويا له من تعبير عجيب، ذاك الذى يحدد به مأموريته، «نسجد» (أو نعبد)، فإنه يعبر عما يخالج فكر إبراهيم. لقد كان عقله منشغلا بإلهه الذى بناء على أمره، قام بهذه المهمة الأليمة. لقد نظر إلى إلهه – فى اللحظة التى طلب منه فيها هذه التقدمة العظيمة – كإله يستحق السجود والعبادة. إن أسمى ما يمكن أن يملأ القلب من مشاعر قد ملكت عليه، فاعتبر بأن أثمن شئ لديه، وأعز ما عنده، لا يعظم على أن يقدمه لذلك الإله العظيم، المجد، الذى كان موضوع آماله الوحيد فى الحياة.

مما يستحق كل الاهتمام؛ أن نتأمل فى ثقة إبراهيم الكاملة، التى تظهر فى حديثه مع غلاميه «أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نعود إليكما». وفى هذا، لا نرى روح النبوة فحسب، بل نرى إيمانا وطيدا، لا يعتريه أقل شك، ولا يتطرق إليه أى تردد، بأن الله لابد أن يتدخل، بأية طريقة، لينجى ابنه أو على الأقل، ليقيمه من الأموات، إن اقتضى الأمر. وعلى أى حال؛ فقد كان إبراهيم واثقا من أنه سيعود إليهما قريبا، ومعه إسحق. هذا يجلو كل الغوامض، ويرفع كل الشكوك، التى قد تحوم حول هذا العمل الجليل، الذى سيبقى إلى أبد الدهر، برهانا قويا على إمكانية، وكيفية تعلق الإيمان بمواعيد الله، بقوة عظيمة. عندما تنال وعدا من الله تعلق به، كما يتعلق الغريق بعوامة النجاة، فإن الله أمين لكلمته، وصادق فى كل مواعيده. وحتى إذا طلب منك أمرا، يجعل النجاة شيئا مستحيلا، فإنك إن تجاسرت، وأتممت هذا الأمر، تجد بأنك لم تفز بالوعد فقط، بل نلت أيضا تاج مجد من محبته.

(٧) لقد أحس بتأثير تصرفات أبيه :

لقد عرف روح أبيه. نحن لا نعرف كم كان عمر إسحق إذ ذاك، ولكنه على الأقل، كان عمره يمكّنه من تحمل مشقة رحلة طويلة كهذه، سيرا على الأقدام، ويمكّنه من حمل الحطب، وهو صاعد إلى الجبل. على أنه أحنى قوة شبابه تحت عبء الحطب، بسرور، كما حمل من هو أعظم منه، صليبه فى طريق الجلجثة.

لعل هذه ليست أول مرة ذهب فيها إسحق وإبراهيم مأمورية كهذه. ولكن، كم هو جميل أن نلاحظ مقدار اهتمام الصبى، وسروره بهذه المأمورية، كما يتضح من هذه العبارة «فذهب كلاهما معا» (ع ٦).

كان إبراهيم يأخذ معه خروفا فى كل المرات السابقة. أما فى هذه المرة، فقد استرعى التفات اسحق وتعجبه، عدم وجود الخروف الذى لا غنى عنه للمحرقة. وبكل بساطة، سأل هذا السؤال الذى لابد أن يكون قد خلع قلب إبراهيم، «يا أبى.. هو ذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة؟». كانت هذه الكلمات سهما نافذا وصل إلى قلب إبراهيم، المثقل بالهموم والأحزان، ولم يتجاسر، حتى إلى ذلك الوقت، على كشف السر الذى يرزح تحته، كما أنه لم يتمالك تأجيل الجواب. وبشعاع من نور النبوة، مختلط بإيمان وطيد، فى ذلك الذى كان يكابد هذه المحنة من أجله، أجاب الوالد ابنه المحبوب «الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى»، «فذهبا كلاهما معا» (ع ٨).

(٨) هل يمكن أن نعجب لأن إبراهيم أحجم عن كشف كل الحقائق؟

كلنا لنا فلذات أكبادنا الذين نحبهم حبا جما. وأخشى ما نخشاه فى هذه الحياة، أن نفقدهم. وإن علت وجه الولد صفرة، أو دب دبيب المرض فى جسمه، تثقلت قلوبنا حزنا وهما. أما إبراهيم، فقد كان عليه أن يجوز امتحانا، أخطر وأشد من كل هذا. إن أعزاءنا يموتون بعد أن نكون قد أفرغنا كل جعبتنا فى سبيل علاجهم. أما فى حالة إبراهيم؛ فقد كان له هذا الألم المضاعف، إنه هو الذى كان سيمسك بيده السكين، ثم إن آخر صورة كان منتظرا أن ترتسم فى عقل اسحق من نحو أبيه، هى رؤيته أباه ممسكا بيده السكين. ورغما عن اعتقاد إبراهيم، بأن ابنه لابد راجع إليه حيا، فإنه لما يؤلم قلب ذلك الولد حقا، أن يرى أباه ينفذ فيه ذلك العمل العنيف.

(٩) على أنه قد حان الوقت أخيرا الذى يجب أن يكشف فيه الأمر :

«فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك المذبح ورتب الحطب» (ع ٩). ألست ترى ذلك الشيخ يجمع الحجارة بتؤدة، ويجلبها من أبعد مسافات ممكنة، ويرتبها بحرص وتدقيق، ويضع الحطب على المذبح، بأقصى ما يمكن من الإمهال. ولكن؛ هو ذا الآن قد تم كل شئ، فيلتفت الوالد الحنون نحو ابنه، ليكشف له ذلك السر الخطير. أما اسحق، فوقف

منذهلا لايبدى حراكا. لقد اسدل الوحى الستار على هذا المنظر الأخير الدقيق. فإنه لا يخبرنا شيئا عن كيفية تبليغ إبراهيم خبر هذه المأمورية لابنه، ولا عن التنهدات التى خلعت قلب كل من الوالد وابنه، ولا القبلات الممتزجة بالدموع، ولا عن إسراع الابن فى الخضوع، وكان يسمح له عمره وقوته، أن يتمرد، إن أراد. بعد ذلك؛ نرى الوالد يربط ابنه، الأمر الذى لم يقابل بأية مقاومة، لأن الولد قد تعلم سر الطاعة والتسليم. وأخيرا، نرى الوالد يرفع ابنه ويضعه فوق الحطب، على المذبح. وهنا؛ نرى منظرا لا شك قد استوقف اهتمام السماء. هنا نرى برهانا على مقدار ما يستطيع الإنسان البشرى أن يفعله من أجل محبة الله. هنا نرى دليلا على الإيمان الثابت، الذى لابد أن يكون قد شرح صدر الله، وحرك أعمق عواطفه.

هل تحب الله أيها العزيز.. وهل أحبه أنا بهذا المقدار؟ هل هو أعز من أعز عزيز لدينا؟ هب أن الله وقف فى ناحية، ووقف هؤلاء الأعزاء فى ناحية أخرى؛ فهل نتجه ناحيته، ولو كلفنا ذلك خسارة الجميع؟ لعلك تجيب بالإيجاب..هذا حسن جدا. اسمع قول الرب: «من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى، فلا يستحقنى» (مت ١٠:٣٧).

ارتفع السكين، ولمع فى أشعة شمس الصباح، ولكن، لم يسمح له بأن يمتد على اسحق. لقد جعل الله مع التجربة أيضا المنفذ. فناداه ملاك من السماء، وقال: «إبراهيم إبراهيم». ولا شك فى أن تلك النفس المثقلة كانت تتوقع بلهفة أن تبصر أو تسمع أية حركة تعطيها فرصة الانتظار، ولو قليلا. وإذ خفض يده بابتهاج، قال: «هأنذا». ليتنا نتعلم كيف نتعمق فى روح الطاعة والإصغاء لصوت الله، حتى إذا ما نادانا الله فى أى وقت، نكون مستعدين دواما لنجيبه «هأنذا». ثم طرق أذنى إبراهيم تلك الكلمات التى تبشره بالنجاة والخلاص «لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا، لأنى الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى» (ع١٢).

عندما نقدم لله أعز وأثمن شئ لينا، ونجيز تقدماتنا فى النار إتماما لإرادته، فإنه يردها إلينا مصفاة كالذهب، ومضاعفة كممتلكات أيوب. وهو لا يفعل إلا بعد أن نفقد كل رجاء، وكل أمل «فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يرأه (أى «الرب يرى» أو «الرب يهيئ»)، فصار ذلك مثلا، وأصبح الناس يخاطبون بعضهم بعضا قائلين «فى جبل الرب يرى» (أو فى جبل الرب يرى الخلاص). هذا قول حق. فإن الخلاص لا يرى إلا إذا أتينا إلى جبل

التضحية، والله لا يهيئ لنا خلاصا حتى نصل إلى القمة العليا من الحاجة. وملاك الله يتدخل للنجاة، عندما يكون استحقاقنا على المذبح، والسكين على وشك أن تمتد إليه.

كان بجوار المذبح غابة، وحالما رفع إبراهيم عينيه، وتلفت حوله، رأى كبشا ممسكا بقرنيه. وهل هناك أمر أكثر مناسبة! فقد وجد الخروف فى وقته تماما. وإذا أراد حالا أن يعبر عن شكره العميق، وعن إحساسات قلبه، ذهب فرحا وأخذ الكبش، وقدمه محرقة عوضا عن ابنه. هنا حقا، تتمثل عقيدة الكفارة، وهنا حقا، نرى كيف تحفظ الحياة إن قدمت عنها حياة.

إن تصرف إبراهيم فى هذه الحادثة، يزيدنا فهما للذبيحة التى قدمها الله لخلاصنا. فإن خضوع إسحق وهو موضوع على المذبح، ورقبته معرضة للسكين، يعطينا فكرة أعمق عن طاعة المسيح حتى الموت، وإعادة إسحق حيا، كمن قام من الأموات، بعد أن صار فى حكم المائت فى نظر والده ثلاثة أيام، يعطينا فكرة عن قيام المسيح من الأموات فى اليوم الثالث. لكن الحقيقة تفوق الرمز. فإن إسحق تألم وهو شاعر تماما بوجود أبيه معه. أما المسيح، فقد تصاعدت من جنبه تلك الصرخات الداوية «إلهى إلهى لماذا تركتنى» وإسحق بذل معه كل ما يمكن لتخفيف آلامه وأحزانه، أما المسيح؛ فقد قاسى الأمرين من جند الرومان،ثم من الكتبة والفريسيين. وإسحق نجا من الموت. أما المسيح، فقد شرب الكأس حتى الثمالة.

وقبل مغادرة الجبل، نادى ملاك الرب إبراهيم مرة أخرى. سبق أن أعطى الرب إبراهيم، عدة مواعيد، أما الآن؛ فإنه لأول مرة يقسم، ولأنه لا يمكن أن يقسم بقسم أعظم، فقد أقسم بذاته قائلا: «بذاتى أقسمت، يقول الرب، إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء، وكالرمل الذى على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولى».

لا تظن أيا الأخ الحبيب أن هذه البركات، كانت وقفا على إبراهيم، فإنها إنما هى عينة من هبات الله لكل النفوس المستعدة لطاعته، مهما عظمت التضحية. واعلم بأنك بعد أن

تتجمل بصبر ستنال المواعيد. وفى هذه اللحظة، التى تقدم فيها أعظم التضحيات، تنال أعظم البركات. ونهر الله الممتلئ ماء، سوف تفيض مياهه، يسكب عليك أغزر البركات. والواقع، إنه لا يوجد شئ لا يعمله الله لمن يجرؤ على طاعته، مهما كلفته من تضحية.

(١٠) كل الذين يؤمنون هم أولاد لإبراهيم المؤمن :

إذن؛ فنحن ولو كنا من الأمم، وانقطعت علاقتنا بإبراهيم بمرور الأحقاب والأجيال الطويلة، نستطيع أن نرث البركة التى نالها، طالما كنا نسير فى خطواته. هذه البركة معدة لنا، إن كنا نطلبها. فتكثير نسله يمكن أن يتحقق فى تكثير ثمار خدمتنا. وانتصاره على كل أعدائه، يمكن أن يتحقق فى انتصارنا على كل التجارب. وبركته لجميع أمم الأرض يمكن تحقيقها أيضا عندما نذهب إلى كل العالم، مبشرين بموت الرب.

على قمة الإيمان، وقف إبراهيم، وتطلع إلى وادى الدهور، فرأى يوم المسيح «فرأى وفرح» (يو ٨:٥٦).

وبنور جديد فى قلبه، والبشر يطفح على وجهه «رجع إبراهيم إلى غلاميه». وكان فى الطريق يتحدث كثيرا إلى ابنه عن الرؤيا المجيدة التى ملأت نفسه الكريمة. «فقاموا وذهبوا معا إلى بئر سبع، وسكن إبراهيم فى بئر سبع».

أما تلك الرؤيا المجيدة، فقد أضاءت كل حياته، كما تضئ حياتنا نحن أيضا، عندما تنزل من جبل التضحيات، إلى منخفض الحياة، بأعمالها اليومية.

الفصل الثاني والعشرون

مغـــارة المكفيلـة

«أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى»

(تك ٢٣:٤)

«وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته فى مغارة حقل المكفيلة أمام ممرا»

(تك ٢٣:١٩)

عندما نزل إبراهيم من منحدر جبل المريا ومعه إسحق، كانت أمامه خمسون عاما باقية له من عمره الطويل. من هذه الخمسين سنة، مرت خمس وعشرون قبل وقوع تلك الحادثة التى نحن بصددها فى هذا الفصل، وليست لدينا معلومات عما تم من الحوادث ذات بال فيها، إلى أن تمت هذه المأساة.

ولم يكن يشغل حياة القوم إذ ذاك، سوى مشاغل الحياة العادية، كرعاية القطعان والمواشى، وتكرار المواليد، والزواج، والوفيات، بين عبيد إبراهيم، تبادل الزيارات بينه وبين الرعاة المجاورين، تقديم الذبائح والمحرقات، والعبادة فى أيام معينة. ومع ذلك، فإننا إذا قارنا حياتنا اليوم بتلك الحياة البسيطة؛ هل نجد الكثير مما نفتخر به؟ صحيح إنهم لم يعرفوا شيئا عن السكك الحديدية، والرسائل البرقية، والجرائد، والسيارة، والراديو، وغيرها من الاختراعات.

ولكن؛ لعل الحياة فى أيامهم كانت أقرب للوصول إلى غاية الحياة مما هى اليوم، حيث تقضى فى الأمور التافهة العرضية.

قد لا يتاح لنا أن نتحقق من مقدار علاقة أفراد بيت واحد، كعائلة إبراهيم، الواحد بالآخر. ولكننا؛ نعلم أنهم كانوا على مر السنين، لا يجد الواحد فيهم تسليته إلا مع سائر أفراد عشيرته بحكم اتصاله بها طول الحياة. لأن حياة رعاية الغنم، التى كانت تشغل كل يومهم، كانت تترك لهم فراغا كافيا لتبادل الزيارات. كان محتما أن يعيش أفراد البيت

الواحد فى معيشة واحدة، ويمزجون معا امتزاجا تاما، كما تمتزج الأشجار فى الغابة الواحدة وتشتبك معا، فلا يتسنى فصل الواحدة عن الأخرى. لهذا، كان موت فرد واحد محبوب فى العائلة يعد خسارة لا تعوض، وينشئ فراغا لا يملأ، ويسبب وحشة لا تمحوها الأيام والسنون. إذن؛ فإننا لا نعجب إن كنا نجد الكتاب المقدس يذكر خبر موت سارة باهتمام زائد، خصوصا، وقد كان ذلك الخبر هو الحادثة الرئيسية فى الخمسين سنة الأخيرة من حياة إبراهيم. كذلك، يجب أن لا ندهش إن كان الكتاب يذكر الكثير من التفاصيل عن موتها ودفنها، لأن ذلك يساعدنا على تفهم حقيقة روح إبراهيم، ويعطينا فكرة عما إذا كان مجرى حياته قد تغير خلال ربع القرن الذى جازه.

(١) وأول ما يستوقف أنظارنا دموع إبراهيم:

وماتت فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان». يظهر أن إبراهيم كان متغيبا عن بيته – ربما فى بئر سبع– عندما لفظت سارة أنفاسها الأخيرة، ولكنه فى الحال «أتى ليندب سارة ويبكى عليها» (ع ٢). وهذه أول مرة نسمع فيها عن بكاء إبراهيم. فإننا لا نقرأ عنه أنه بكى عندما عبر نهر الفرات، وطلق الأهل والأصحاب، ولا نرى أثرا لدموعه عندما وصلته الأخبار السيئة بحمل لوط ابن أخيه أسيرا. ويظهر كذلك، أنه لم يبلل طريق جبل المريا بدموع قلبه. أما الآن، وقد ماتت سارة، فقد تفجرت ينابيع حزنه.

(١) وما الذى أحدث هذا التغيير؟

هناك فرق عظيم بين إتمام إرادة الله، وبين السماح لها بأن تتم. فإننا طالما كان أمامنا عمل نتممه ‹، سواء كان رحلة شاقة، أو حربا شعواء، أو تضحية ما، فإننا نستطيع أن نحبس دموعنا، ونتحمل كل شئ بالصبر. ولا شك فى أن كثرة مشاغلنا تلهينا عن التفكير فى أحزاننا. ولكن؛ عندما ينتهى كل شئ، وعندما لا يبقى هنالك عمل نتممه. عندما تأتى بنا الأيام بجوار جثة هامدة، لا تملك أيدينا أن تفعل لها شيئا. عندما يتم آخر عمل، وترتب آخر زهرة .. حينئذ، تنساب الدموع.

(٢) لم يكن عجيبا أن يبكى إبراهيم:

كانت سارة شريكته فى الحياة نحو سبعين، أو ثمانين عاما. وكانت هى الحلقة الوحيدة لبيت صباه. وكانت هى الوحيدة التى تستطيع أن تواسيه إن تكلم عن تارح وناحور،

أو ذكر حاران وأور الكلدانيين. كانت هى الباقية الوحيدة ممن تحملوا معه مشاق رحلته الخطيرة منذ ثلاثين عاما. وإذ ركع بجوارها، انهالت عليه ذكريات الماضى، بما فيه من تدابير وآمال، ومخاوف وأفراح، فتذكرها كعروس هيفاء فى بدء حياتهما الزوجية، وكشريكة له فى كل رحلاته، وكامرأة عاقر تضطهد هاجر. تذكرها، وقد سباها كل من فرعون وأبيمالك. وتذكرها كأم حنون لإسحق. وكان كلما خطرت فى مخيلته إحدى هذه الذكريات انسابت الدموع من عينيه من جديد.

يظن البعض أن الدموع لا تتفق مع الرجولة، ولا مع المسيحية، ولا مع حياة التسليم. وينادون بأننا يجب أن نقابل مصائب الحياة بجأش رابط، وثغور باشة، وعيون لا تدمع. لكن، هذه التعاليم تناقض روح الإنجيل، وروح الكتاب المقدس بعهديه، فليس مطلوبا أن نتجرد من الإحساسات. ولعل من لا يعرف أن يبكى، لا يعرف أن يحب؛ لأن الحزن محبة. وإن حل الحزن فى القلب، ظهر فى الدموع. والمسيحية لا تقصد أن تخرجنا عن حالتنا الطبيعية، أو عن طبيعتنا البشرية، وإنما تقصد أن تطهرنا وتسمو بكل عواطفنا البشرية، فالمسيح بكى، وبطرس بكى، أهل أفسس بكوا لمجرد سماعهم بأنهم لن يروا وجه بولس ثانية. إن المسيح يقف بجانب كل حزين، ليكفكف دموعه.

إن الدموع ترفه عن النفس، وتهون عليها أحزانها الثقيلة، ثم هى تخفف ضغط الأحزان عن القلب. هى المادة التى منها تنسج السماء قوس قزح. إنها تتحول إلى لآلئ نفيسة، كما تتحول الجروح فى المحارات إلى لآلئ. فطوبى لمن إذا بكى راحلا، لا يجد ما يدين نفسه من أجله، بسبب ألفاظ جارحة، سبق أن تفوه بها ضده، أو بسبب معاملته معاملة شاذة. نحن لا نستطيع أن نعرف تماما لماذا يبكى البشر إذا وقفنا معهم جانب القبر. ففى معظم الأحيان، يكون باعث الحزن خالص المحبة، ولكن، فى بعض الأحوال تكون الدموع ممتزجة بمرارة إضافية بسبب ما يملأ نفوسهم من عوامل الندامة والأسف، لأنهم قد عاملوا الراحل معاملة قاسية، أو تفوهوا فى حقه بكلمات جارحة. فلنحذر لئلا نشرب مثل هذه الكأس المرة.. كأس أحزان الحرمان.

إن كان هنالك أشخاص، ازدادت دموعهم حرارة لخلوهم من روح الخضوع والتسليم، فليذكروا بأنهم حيث لا يستطيعون الإذعان والخضوع، ينبغى أن يريدوا بأن يخضعوا، مسلمين مشيئتهم ‹، وطالبين منه أن يستلمها ويصوغها بحسب مشيئته. هذا هو كل ما يطلبه الله. ومتى تم لنا ذلك، أُخضِع كل فكر آخر، وملأ الحياة كلها بروح التسليم

الكامل المغتبط «إن أفعل مشيئتك يا الله سررت» (أو أننى أسر أن أفعل مشيئتك يا إلهى) (مز ٤٠:٨)، «هو ذا يقتلنى لا أنظر شيئا. فقط أزكى طريقى قدامه» (أو هو ذا يقتلنى، ومع ذلك، فإننى أثق فيه. فقط أزكى طريقى قدامه) (أى ١٣:١٥).

(٢) لاحظ اعتراف إبراهيم:

وقام إبراهيم من أمام ميته، وكلم بنى حث قائلا «أنا غريب ونزيل عندكم. أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى» (تك ٢٣:٣ و٤). انظر كيف أن الحزن يهون على القلب. فطالما كانت الأمور سائرة فى مجراها الطبيعى. وكانت الحياة سهلة مرضية، فنحن نحفظ أسرارنا داخل صدورنا. ولكن، إن مزقت الأحزان الحجاب، انكشفت الأسرار. فنحن عندما نتطلع لإبراهيم، كأب الآباء العظيم فى الحياة، وفى الثروة، وكرئيس لتلك القبيلة، لا نستطيع أن ندرك أسراره الخفية. لقد بقى فى الأرض اثنتين وستين سنة، لا شك فى أنه فى ذلك الوقت، قد نسى شعوره الأول بالوحدة والوحشة. ولعله كان قد استقر فى البلاد، كباقى الأمراء والملوك المجاورين. هذه هى الصورة التى نستطيع أن نصوره بها، حتى موت سارة. أما الآن؛ وقد حلت المصيبة، فإنك تستمع إلى الإنسان الباطن يتكلم ويعلن أسراره الخفية «أنا غريب ونزيل عندكم».

هذه كلمات خالدة، لم ينسها على الإطلاق نسله من بعده. فعندما تكلم الله لشعبه عن أرض الموعد، على لسان موسى، قال لهم: «الأرض لا تباع بتة.. أنتم غرباء ونزلاء عندى» (لا ٢٥:٢٣). وعندما أتم داود وشعبه استعدادات جبارة لبناء الهيكل، خاطب الله نيابة عن شعبه قائلا: «من أنا ومن هو شعبى حتى نستطيع أن ننتدب هكذا. لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك، لأننا نحن غرباء أمامك ونزلاء مثل آبائنا. أيامنا كالظل على الأرض وليس رجاء» (١ أى ٢٩:١٤ و١٥)، ثم نراه يتوسل إلى الله فى أحد مزاميره الجليلة قائلا: «استمع صلاتى يارب، لا تسكت عن دموعى، لأنى أنا غريب عندك، نزيل مثل جميع آبائى» (مز ٣٩:١٢). وهكذا؛ رسخت كلمات إبراهيم هذه فى أعماق جميع شعب الله فى كل الأجيال المتتابعة، حتى أن الرسول بولس، نقشها على المقبرة التى رقد فيها أبطال وعظماء اليهود. «فى الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد، بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١:١٣).

وإذا تساءلنا عما أبقى هذه الروح فى قلب إبراهيم هذه السنوات الطويلة، لا نجد سوى هذا الجواب: «إن الذين يقولون مثل هذا يظهرون إنهم يطلبون وطنا» (عب ١١: ١٤). هذا الوطن، لا تشرق عليه الشمس، ولا تسقيه أنهار هذه الأرض، ولا يبتل بقطرات الندى، هو وطن أفضل، وطن سماوى (عب ١١: ١٦)، هو المدينة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله (عب ١١: ١٠)، هو الأرض التى لا تحتاج إلى الشمس بالنهار، ولا إلى القمر بالليل، لأن الرب الإله، الخروف، هو نورها (رؤ ٢١: ٢٣).

إن إبراهيم إذ نزع من أرض ميلاده، لم يرض بأن يتخذ له وطنا أرضيا آخر، فكانت روحه تحلق دواما إلى السماء، حتى وصلت إلى مدينة الله، وهى الوطن الذى لن يستريح فى غيره كل نفس ملكية كريمة، مثله. وقد أبى أن يقنع بغير هذا الوطن، ولهذا، لم يستح به الله أن يدعى إلهه، لأنه قد أعد له مدينة (عب ١١: ١٦).

ألا تُخجل الكثيرين منا، هذه الروح السامية؟ قد تمر بنا بعض لحظات ندعى فيها بأننا أبناء السماء، ولكن سيرتنا – فى أعمالنا اليومية – ليست فى السماء. قد ندعى أننا نطلب الوطن الأفضل، ولكننا نحرص كل الحرص على أن نبنى لأنفسنا مراكز ثابتة، وطيدة، بين سكان الأرض. قد ندعى بأننا لا نقيم وزنا لأمور العالم، وبأننا نحسب كل شئ نفاية، ولكن مجهوداتنا المتواصلةالعنيفة التى نبذلها فى سبيل تكويم الثروة، تكذبنا.

(٣) لاحظ إيمان إبراهيم:

يميل البشر إلى دفن موتاهم بجوار أسلافهم، ويعتقدون أن قبور الآباء ميراث محبوب للأبناء.

ولعل إبراهيم، فكر فى بداية الأمر فى دفن سارة فى أرض حاران فى القبر الذى دفن فيه تارح وهاران، ولكنه عدل عن تلك الفكرة فى الحال وقال: كلا! ليس لى شأن بتلك البلاد الآن. إن الأرض الوحيدة التى أرتبط بها الآن هى هذه التى أقيم فيها غريبا. هنا سيعمر نسلى فى الأجيال القادمة. هنا ستنتشر ذريتى كرمل البحر، وكنجوم السماء. لهذا؛ فمن اللائق أن أقيم القبر الذى تدفن فيه سارة أمهم وأنا أبوهم فى وسط الأرض، يكون كنواة يتجمع حولها كل الأنسال فى الأجيال القادمة. ورغما عن مرور أربعمائة عام تقضيها ذريتى فى نيران البوتقة والآلام، كما أعلن لى الله، إلا أنهم لا شك عائدون إلى هنا ثانية. ولذا؛

فإننى سأبقى لهم هنا كرهينة فى الأرض، أنا وزوجتى حتى يعودوا، واثقا بأن كل شئ سيتم كما تكلم الرب.

إنه لجميل جدا أن نلاحظ هنا، كيف تصرف إيمان إبراهيم فى هذا الصدد، وكيف دفعه ليرفض قبول الأرض، هدية من أية يد بشرية، سوى يد الله. وعندما سمع رؤساء الأرض طلبته، أسرعوا فى الحال، وعرضوا عليه أن يختار أى قبر، مؤكدين له، بأنه لن يوجد فيهم من يعز قبره على رجل عظيم مثله. ثم لما التمس من عفرون بن صوحر أن يعطيه مغارة المكفيلة التى كانت فى نهاية حقله، وعرض عليه عفرون أن يهبها إياه أمام عيون بنى شعبه بلا ثمن، رفض إبراهيم ذلك العرض رفضا باتا. فقد كان يعتقد أنها، وكل الأرض ملك له، لأن الله قد وهبه إياها، وإنها ستؤول إليه فعلا، يوما من الأيام. ولهذا؛ فكر فى أن يشترى الانتفاع بهذه الأرض مؤقتا، لأنه أبى أن يقبلها هدية من أى شخص آخر سوى من إلهه وخله القدير.

وهكذا؛ بعد حديث طريف، ساده روح الأدب والكياسة والمجاملات الودية، التى لا زالت مرعية بين أبناء الشرق إلى اليوم «وجب حقل عفرون الذى فى المكفيلة. الحقل والمغارة التى فيه وجميع الشجر الذى فى الحقل الذى فى جميع حدوده حواليه لإبراهيم ملكا لدى عيون بنى حث بين جميع الداخلين باب مدينته» (تك ٢٣: ١٧ و١٨)، وكانت لشهادتهم فى تلك الأيام الغابرة، قوة الوثائق الرسمية فى أيامنا الحاضرة.

هنالك؛ دفن إبراهيم سارة.. وهنالك؛ دفن إسحق وإسماعيل، إبراهيم..هنالك؛ دفن إسحق ورفقة، زوجته.. هنالك؛ دفن يعقوب، ليئة.. وهنالك؛ دفن يوسف، إسرائيل أباه.

ولا شك فى أن بقية عظام هؤلاء الأبطال لا زالت رابضة هنالك – رغم فعل الطبيعة، وتغير الحدثان – تنتظر الوقت الذى يتم فيه وعد الله لإبراهيم، بشكل أتم ، ومدى أوسع.

الفصل الثالث والعشرون

جواب النفس للدعوة الإلهية

«فقالت اذهب»

(تك ٢٤:٥٨)

إرجع بذاكرتك إلى سبعة وثلاثين قرنا خلت، وتأمل فى تلك المراعى الخضراء التى يرويها نهر الفرات، ويرتادها رعاة الغنم والمواشى. فى هذه الأراضى الشاسعة، تبعثرت هنا وهنالك، أكواخ أولئك الرعاة، وقراهم المتواضعة وفى وسطها، قامت منتصبة مدينة حاران بألوانها الزاهية وثروتها الطائلة، التى أسسها قبل ذلك بمائة عام تارح، حيث استقر فيها – فى ارتحاله نحو الشمال – بعد أن غادر مدينة أور، ولم يشأ أن يتجاوزها. كان تارح لا يزال حزينا جدا بسبب موت أصغر أبنائه (هاران)، الذى دعيت حاران باسمه. وبمرور الوقت، بنيت البيوت، وسورت المدينة بسور مرتفع كالعادة. هنالك – فى حاران – مات تارح، ومن هنالك، خرج إبراهيم ومن معه، تلبية لأمر الله، ليعبروا الصحراء القاحلة المخيفة، ويأتوا إلى أرض الموعد التى لا يعلمون عنها شيئا. على أن فرعا من تلك العائلة، وهو ناحور وأسرته، ظل فى تلك المدينة. وكان ابنه بتوئيل، هو رأس تلك العائلة، وفى الوقت الذى نتحدث عنه الآن، كان فى تلك العائلة على الأقل، أم وأخ اسمه لابان، وابنة جميلة اسمها رفقة.

أما رفقة؛ فهى بطلة الرواية فى هذا الفصل، موضوع تأملنا الآن. لقد قضت كل أيام صباها فى تلك المدينة القديمة. ومع أنها كانت ابنة رجل عظيم، إلا أنها لم تعرف معنى للبلادة، التى تأبى على الأيدى أن تشتغل بأى عمل شريف، والتى طالما كانت سببا فى لعنة الكثيرات من بنات الأشراف اليوم. كانت رفقة، تعرف كيف تطهى طعاما شهيا، كما تعرف أن ترعى الغنم – كما كانت تفعل راحيل، ابنة أخيها من بعدها فى نفس المكان – ثم تحمل جرتها على كتفها عائدة إلى منزلها. كانت تعرف أهل تلك المدينة، كل واحد باسمه. كما كانت تسمع عن أقاربها الذين رحلوا فى تلك الصحراء الجرداء، قبل أن تولد. والذين لم تصلهم أخبارهم منذ زمن طويل. ولا شك، فى أنها لم تدرك شيئا عن عظمة العالم، ولا عن مركزها فيه. وفى بساطة حياتها، لم تكن تحلم بأكثر من أن تعيش، ثم تموت فى دائرتها الضيقة،

التى تعيش فيها. وفى أخلاقها الكريمة، وعواطفها النبيلة، وقلبها الطاهر، وشرف محتدها، وجمال وجهها، لم تكن تتصور أن العناية الإلهية، ستنتزعها سريعا من بيتها الهادئ، وتطوح بها إلى العالم الأعظم، فيما وراء الصحراء.

فى مساء أحد الأيام، جاء شخص غريب، واستراح بجانب البئر، خارج المدينة الصغيرة. وكانت معه قافلة فى غاية الفخامة، والعظمة، مكونة من عشرة جمال، محملة بأفخر النفائس، وتبدو عليها علامات القدوم من رحلة طويلة. هنالك؛ وقفت تلك الجماعة الصغيرة، كأنها لا تدرى ماذا تفعله بعد ذلك، والأرجح، أن قائدها هو العازر الدمشقى، ذلك الرجل الصالح، الذى وكله إبراهيم فى ذلك الوقت، قد قدم فى الأيام، وكان عمر إسحق نحو أربعين عاما، وكان أبوه الشيخ، يود أن يزوجه بامرأة فاضلة. ومع إيمانه، لم يتطرق إليه أقل شك، فى أن الله لابد متمم وعده، فيما يختص بنسله، إلا أنه كان يتشوق أن يلمس بيديه الذابلتين، الحلقة الثانية بينه وبين ذريته. لذلك ائتمن خادمه الأمين بعهدين: الأول: أن لا يأخذ لابنه زوجة من بنات الكنعانيين، الذين حولهم، بل من أهله وأقاربه فى حاران. والثانى: لا يسمح بأى حال من الأحوال برجوع إسحق إلى الأرض التى هجرها. وقد شجع ذلك الشيخ عبده، بأن أكد له أن الرب إله السماء، الذى أخذه من بيت أبيه، ومن أرض ميلاده، يرسل ملاكه أمامه، ويكلل مهمته بالنجاح.

وإذ وصل ذلك الرسول التقى إلى بئر المدينة نحو المساء، «وقت خروج المستقيات»، سأل من الرب القدير، إله إبراهيم، سيده، أن يهبه تيسيرا لمهمته، لأنه بذلك يصنع لطفا إلى سيده. (ع ١٢).

وما أجمل أن نلاحظ البساطة التامة، والثقة الكاملة، اللتين تظهران فى صلاته، واللتين تؤكدان كيف انعكست أشعة التقوى، والقداسة، على حياة كل فرد فى بيت إبراهيم، نتيجة التصاقه بالرب. ولا شك فى أن سيرة وأخلاق وصفات الخدم اليوم، كان يمكن أن تسمو عما هى عليه، لو أن أسيادهم عاملوهم معاملة أفضل، عاملوهم كأشخاص لهم نفوس غالية، كريمة، لا كأنهم آلات صماء، ولو أنهم شجعوهم ليقتدوا بأخلاقهم الفاضلة. على أنه للأسف الشديد، كثيرا ما وجد الخدم فى بيوت المسيحيين اليوم، ما ينفرهم من ديانة أسيادهم، التى لا تظهر إلا فى أفواههم، ولكن، لا أثر لها فى حياتهم العملية.

إنه امتياز عظيم لنا أن نتحدث مع الله، عن كل شئ فى الحياة.

منذهلا لايبدى حراكا. لقد اسدل الوحى الستار على هذا المنظر الأخير الدقيق. فإنه لا يخبرنا شيئا عن كيفية تبليغ إبراهيم خبر هذه المأمورية لابنه، ولا عن التنهدات التى خلعت قلب كل من الوالد وابنه، ولا القبلات الممتزجة بالدموع، ولا عن إسراع الابن فى الخضوع، وكان يسمح له عمره وقوته، أن يتمرد، إن أراد. بعد ذلك؛ نرى الوالد يربط ابنه، الأمر الذى لم يقابل بأية مقاومة، لأن الولد قد تعلم سر الطاعة والتسليم. وأخيرا، نرى الوالد يرفع ابنه ويضعه فوق الحطب، على المذبح. وهنا؛ نرى منظرا لا شك قد استوقف اهتمام السماء. هنا نرى برهانا على مقدار ما يستطيع الإنسان البشرى أن يفعله من أجل محبة الله. هنا نرى دليلا على الإيمان الثابت، الذى لابد أن يكون قد شرح صدر الله، وحرك أعمق عواطفه.

هل تحب الله أيها العزيز.. وهل أحبه أنا بهذا المقدار؟ هل هو أعز من أعز عزيز لدينا؟ هب أن الله وقف فى ناحية، ووقف هؤلاء الأعزاء فى ناحية أخرى؛ فهل نتجه ناحيته، ولو كلفنا ذلك خسارة الجميع؟ لعلك تجيب بالإيجاب..هذا حسن جدا. اسمع قول الرب: «من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى، فلا يستحقنى» (مت ١٠:٣٧).

ارتفع السكين، ولمع فى أشعة شمس الصباح، ولكن، لم يسمح له بأن يمتد على اسحق. لقد جعل الله مع التجربة أيضا المنفذ. فناداه ملاك من السماء، وقال: «إبراهيم إبراهيم». ولا شك فى أن تلك النفس المثقلة كانت تتوقع بلهفة أن تبصر أو تسمع أية حركة تعطيها فرصة الانتظار، ولو قليلا. وإذ خفض يده بابتهاج، قال: «هأنذا». ليتنا نتعلم كيف نتعمق فى روح الطاعة والإصغاء لصوت الله، حتى إذا ما نادانا الله فى أى وقت، نكون مستعدين دواما لنجيبه «هأنذا». ثم طرق أذنى إبراهيم تلك الكلمات التى تبشره بالنجاة والخلاص «لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا، لأنى الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى» (ع١٢).

عندما نقدم لله أعز وأثمن شئ لينا، ونجيز تقدماتنا فى النار إتماما لإرادته، فإنه يردها إلينا مصفاة كالذهب، ومضاعفة كممتلكات أيوب. وهو لا يفعل إلا بعد أن نفقد كل رجاء، وكل أمل «فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يرأه (أى «الرب يرى» أو «الرب يهيئ»)، فصار ذلك مثلا، وأصبح الناس يخاطبون بعضهم بعضا قائلين «فى جبل الرب يرى» (أو فى جبل الرب يرى الخلاص). هذا قول حق. فإن الخلاص لا يرى إلا إذا أتينا إلى جبل

إن أتفه الأشياء، لا تحتقر ممن يحصى حتى شعور رؤوسنا، فيجب أن لا يمر يوم واحد دون أن نسأله التيسير فى كل أمورنا. وكم يحسن بنا، إذ نقف بجوار البئر فى الصباح أو فى المساء، أن نستودع طريقنا بين يديه، واثقين أنه سينجحه. وإن صدق هذا فى أيامنا العادية، فكم يجب علينا أن نتممه فى الأيام الخطيرة التى تحدد مصيرنا،، والتى تؤثر على الحياة فى المستقبل.

وليس خطأ أن نطلب من الرب علامة، إن كنا نقصد بهذا أن يبين لنا الله إرادته فى ظروف الحياة اليومية، لتثبيت إيماننا، وتوطيد اعتقادنا. نعم؛ إنه ليس لنا الحق فى طلب الآيات، لمجرد إشباع رغبة سقيمة، ولكن، لنا الحق فى طلب إعلان إرادة الله لنا، فيما يحدث من أعمال عنايته.

لهذا، كان أمرا طبيعيا، بإرشاد إلهى، أن يطلب ذلك العبد الأمين، أن تكون الفتاة المعينة من الله زوجة لابن سيده، هى التى تجيب برقة وأدب لتسقيه، وتسقى الجمال أيضا. وقد حدث فعلا – كما يحدث لكل الذين تعلموا أن يتكلوا على الله اتكال الأطفال على والديهم – إنه «إذ كان لم يفرغ بعد من الكلام، كان الجواب ينتظره بجانبه» (ع ١٥).

ولا حاجة بنا لسرد كل ما حصل بعد ذلك بالتفصيل، عن الهدايا والمجوهرات الثمينة، التى كان يحملها ذلك الرسول الأمين معه، وعن اعترافه بصلاح الله، وجوده فى استجابة الصلاة، عندما «خر وسجد للرب» شاكرا ومسبحا، وعن تعجيله بالذهاب إلى بيت رفقة، وإعجاب الأم والأخ بالهدايا الثمينة، وعن روايته للتوفيق العجيب الذى حدث فى التقائه برفقة، وعن كرم لابان العظيم، الذى بعثه، ماراَه من ثروة طائلة، وشعوره بالغنم العظيم الذى سيربحه من وراء هذه المصاهرة، وتقديم تبن وعلف للجمال، وماء لغسل أرجل سائقيها، الذين قد أنهكهم التعب، وطعام لقائدهم، ورفضه تناول الطعام حتى يتأكد من إنجاح الرب طريقه، وإتمام مأموريته، وعن الرواية المطولة التى رواها عن عظمة إبراهيم، وكيف قاده الرب، حتى أرشده إلى رفقة، وعن طلبه الأخير، بأن يتصرف أهلها وذووها بحكمة فى الأمر، وعدم ترددهم فى إجابة الطلب توا، بكلمات حكيمة، رشيدة، كانت سببا فى أن يخر ذلك العبد إلى الأرض، شاكرا الرب. وقالوا «هو ذا رفقة قدامك، خذها واذهب، فلتكن زوجة لابن سيدك، كما تكلم الرب» (ع ٥١).

بعد ذلك، أخرج من جعبته، هدايا الفضة وهدايا الذهب، وثيابا، أهداها إلى رفقة، ثم أهدى أمها وأخاها لابان بعض الهدايا النفيسة أيضا. «فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا» (ع ٥٤). وفى الصباح، باكرا جدا، قام ليعود إلى سيده، ومعه رفقة ومرضعتها، ورفض رفضا باتا كل دعوة قدمت إليه ليؤخر الرحيل قليلا. وإذ جلست رفقة على جملها، وقلبها مملوء بالآمال والإعجاب، تقبلت من أهلها وداعا حارا، وتمنيات طيبات. «فباركوا رفقة، وقالوا لها، أنت أختنا، صيرى ألوف ربوات، وليرث نسلك باب مبغضيه» (ع ٦٠).

والآن، لنتجاوز عن باقى تفصيلات هذه الرواية، التى تحمل فى طياتها طابع الوحى والحق. ويكفى أن نقول، أنه لا يوجد فى هذا السفر ما يبرزها فى أسلوبها الفياض الرقيق العذب. ألا يكفى أن تكون ممتلئة بالإشارات التى تقرب كل البشرية من بعضها وتجعلهم كلهم إخوة. والآن؛ لنتأمل فى درسين آخرين، أو ثلاثة، توضح فيها دعوة الله، وجواب النفس على هذه الدعوة.

(١) درس لمن تصير إليهم دعوة الله:

(١) يجب أن ندعم عملنا بالصلاة: لم يشأ ذلك العبد الأمين أن يخطو خطوة واحدة إلا بالصلاة مثل سيده. ليس هذا معناه أنه كان يصلى دواما بصوت مرتفع، فإنه إذ وقف بجوار البئر، لم يدرك أحد أنه كان يصلى.

ثم إنه لم يمل إرادته على الله عندما صلى، ولكنه ألقى كل مسئولية مهمته على من ظهر نفسه دواما صديقا صادقا لسيده المحبوب. كانت أمامه مهمة شاقة جدا، تعترضها صعوبات مستعصية. فلم يكن معقولا أن يعثر على فتاة ترتضى بأن تترك وطنها وتعبر تلك الصحراء المترامية الأطراف، فى رفقة رجل غريب، لا تعرف عنه شيئا، وتتغرب لتصير زوجة لرجل لم تره. «ربما لا تشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض» (ع ٥). وحتى إذا قبلت، فربما يرفض ذووها، ولكنه صلى، وصلى، فكلل الرب مهمته بالتوفيق.

ونحن كذلك، قد نرسل فى بعض الأحيان فى مهمات تبدو فى نظرنا غير موفقة. عندما ننظر إليها بنظرة بشرية يبرز أمامنا «الفشل» مجسما. أما الذين يتكلون على الله، فإنهم لا يجدون أثرا لكلمة «الفشل» فى قاموسهم، إذ أن قلوبهم ينابيع تنبعث منها على الدوام رائحة

الصلاة السرية فى حضرة الله، ومهما ظهر الفشل أو قامت العثرات فى طريقهم، فلابد لهم من النجاح. أيها الخادم المسيحى! لا تبدأ مهمة ‹، سواء كنت ذهبا إلى نفس واحدة، أو إلى جماعة، دون أن تطلب من الله ما طلبه ذلك العبد، «يسر لى اليوم».

(٢) ثم يجب أن تنتظر إرشاد الله:

قد طلب العبد أن تكون الفتاة المعينة هى التى تسقى جماله. قد يبدو هذا أمرا تافها فى نظر البعض، ولكنه كان فى الواقع محكا حقيقيا لطبيعة الفتاة وأخلاقها، لأنه كان يدل على مقدار طيبة قلبها، التى كانت مستعدة أن تتعدى حدود الآداب المرعية والتقاليد، وكان يدل على أن طبيعتها لم يوجد فيها أثر للكبرياء الممقوت. أليس حقا أن أعمالا طفيفة عرضية كهذا العمل تكون مقياسا حقيقيا للأخلاق؟

كم من خدام الله يرتكبون أخطاء فاحشة، إذ يندفعون إلى بعض النفوس دون معرفة إرادة الله، ودون طلب معرفة ما إذا كان يأمرهم بالذهاب فى هذه المهمة، ودون الانتظار حتى تهيأ لهم الفرصة ويفتح لهم الباب للاقتراب من نفس جديدة. نحن لا نستطيع أن ندرك دواما كل الأسرار الغامضة التى تحيط بكل نفس بشرية، أو الأعماق التى وصل إليها الضمير، أو الغايات التى قد التفت حول إحساسات النفس بسبب الارتباكات والانشغالات العالمية. ولكن الله وحده هو الذى يدرك كل هذا. لذلك، فمن الحكمة أن ننتظر حتى يفتح لنا الله طريق الدخول إلى قلعة القلب. ولنثق بأننا فى هذه الناحية لا يمكن أن يخيب لنا الله رجاء، ولكنه لابد أن يستمع ويجيب، ونحن نتكلم.

(٣) ويجب أن نمدح سيدنا كثيرا:

كم هو جميل أن نلاحظ كيف يصف ذلك العبد سيده، ويمتدحه كثيرا. لم يلفظ كلمة واحدة عن نفسه. ألم يكن هذا أيضا ما امتاز به الرسل الذين لم يكرزوا بأنفسهم، بل بالمسيح يسوع ربا، والذين حصروا كل همهم فى إظهار مجده. إننا مع الأسف الشديد، كثيرا ما تطفلنا حتى يتحدث عنا الناس. فلننكر ذواتنا، وليكن موضوع رسالتنا، ونحن نظهر المجوهرات ونفائس الأخلاق المسيحية فى تصرفاتنا هو هذا: «الرب الإله قد بارك مولانا (سيدنا) المسيح جدا، وأعطاه اسما فوق كل اسم، وأقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه فى

السموات فوق كل رياسة، وسلطان وقوة وسيادة، وكل اسم يسمى، وإنه مستحق أن يأخذ القدرة، والغنى، والحكمة، والقوة، والكرامة، والمجد، والبركة» (ع ٢٥، فى ٢:٩، تك ١: ٢٠ و٢١، رؤ ٥:١٢). وعندما تصادف كلماتك نجاحا، فاعط كل المجد < الذى وهب النجاح.

(٢) أما الدعوة نفسها:

فقد وجهت إلى فتاة بسيطة، فقيرة، لكى تقبل أن تتزوج بشاب من أغنى أغنياء العالم، وأعظمهم جاها وشرفا. وهذه الدعوة لم توجه إليها بسبب استحقاقها أو ثروتها، أو جمالها، بل لأنه هكذا أراد إبراهيم. ولا زالت أمثال هذه الدعوة توجه لكل نفس تسمع الإنجيل. ففى الأعالى، يسكن الآب العظيم، الله القدير؛ وهو يريد أن يختار لابنه الوحيد المحبوب جماعة – ككنيسة واحدة – تكون عروسة إلى الأبد، وهو يوجه هذه الدعوة إليك، لا لأنك تستحقها، أو لثروتك وجمالك، بل لأنه هكذا أراد، وهو يريدك أن تتنحى عن كل شئ محبوب يعيقك عن تلبية هذه الدعوة، وهذه هى رسالته إليك: «اسمعى يابنتى، وانظرى، وأميلى أذنك، وانسى شعبك وبيت أبيك، فيشتهى الملك حسنك، لأنه هو سيدك، فاسجدى له» (مز ٤٥:١٠ و١١).

إن لبيت هذه الدعوة، غسلك من كل خطاياك، وزينك بجواهره الثمينة، وشاركته فى ثروته، وجلست معه على عرشه، وأصبح كل شئ لك. هل تذهب مع هذا الرجل؟ (ع ٥٨). هل تقبل أن تترك كل شئ لكى تكون للمسيح؟ هل تقبل أن تعطيه قلبك ليكون له إلى الأبد؟ تعال، وضع نفسك تحت تصرف الروح القدس، الذى يحمل إليك رسالة المسيح، كما حمل عبد إبراهيم رسالة إسحق، ودعه يرشدك حيث يوجد المسيح.

(٣) كيف نتصرف بإزاء هذه الدعوة:

(١) يجب أن نعد لها مكان:

«ادخل يا مبارك الرب، لماذا تقف خارجا وأنا قد هيأت البيت ومكانا» (ع ٣١)، «المعلم يقول أين المنزل» (مز ١٤:١٤). لم يكن للمسيح مكانا فى المنزل الذى ولد فيه، أما نحن، فيجب أن نعد له مكانا فى قلوبنا، أو على الأقل، يجب أن نقبل أن يتخذ هو لنفسه مكانا.

(٢) يجب أن نكون شهود:

«فركضت الفتاة، وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور» (ع ٢٨). حالما تسمع الدعوة، وتنال جواهر المواعيد التى هى عربون ميراثك، يجب أن تعود إلى أصدقائك، وتخبرهم بكم صنع الرب بك.

(٣) يجب أن لا نسوف أو نستشير لحما ودما:

يحاول البشر، وكذلك الظروف، أن يؤخرونا دواما عن تلبية الدعوة. وهذه هى طريقة الشيطان دواما لقطع الصلة إلى الأبد. فيجب أن لا يكون هنالك مجال للتسويف، أو التردد، أو الإبطاء. بل إذا سمعنا هذا السؤال: «هل تذهبين (أو هل تذهب) مع هذا الرجل، فيجب أن يكون الجواب على الفور «أذهب» (ع ٥٨).

كانت الرحلة طويلة ومضنية، لتلك الفتاة الغضة، ولكن ذلك العبد الأمين، كان يحاول أن ينسيها كل تعب، بما يقصه عليها من الأخبار السارة، عن الوطن الذى كانت راحلة إليه، وعن الشخص الذى كانت ستقترن حياتها به، والذى، وإن لم تره، قد أحبته، والذى، وإن كانت لا تراه، فتبتهج به «بفرح لا ينطق به ومجيد» (١ بط ١:٨)، فإنها قد أحبته، وتاقت نفسها لرؤيته.

وفى مساء أحد الأيام، تمت المقابلة. فى مساء ذلك اليوم، خرج إسحق ليقضى بعض الوقت فى تأملات هادئة، مفكرا فى الخسارة التى حلت به بفقد أمه، ومتشوقا لمجئ عروسه، وكانت تسوده فى كل هذه التأملات، روح طاهرة، مقدسة. وعندما رفع عينيه فى الحقل، رأى الجمال آتية، فتقابل مع عروسه. ويا له من لقاء سعيد، ذلك الذى أنسى رفقة كل متاعب الطريق، وحسرة البعد عن الأهل والأصدقاء. ألم يكن هذا اللقاء إشارة لتلك اللحظة التى فيها ينتهى بنا الروح القدس، قائدنا الأعظم، إلى حضرة المسيح، عريسنا الحقيقى، فنراه وجها لوجه، ونبقى معه إلى الأبد!.

ولم يمض وقت طويل، حتى عج ذلك البيت الهادئ، بأصوات الأطفال مرة أخرى. وظل إبراهيم متمتعا زمنا طويلا برؤية أحفاده الذين كان يسره أن يقص عليهم رواية الماضى، التى كان يتلذذ بذكرها. وأعظم ما كان يبهج هؤلاء الأحفاد، تلك الفترة التى كانوا يرون فيها كيف أن أباهم ارتفع فوق جبل المريا، لكى يقوم من بين الأموات.

الفصل الرابع والعشرون

وانضم إلـــي قومـــه

«وهذه أيام سنى حياة إبراهيم التى عـاشهـــا. مئة وخمس وسبعون سنة وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعان أياما. وانضم إلى قومه»

(تك ٢٥:٧ و٨)

لم يوجد إلى الآن بين البشر، من يفوق اسمه، اسم إبراهيم، فى الاحترام الذى ناله بين جميع الأجناس والشعوب فى جميع الأجيال. فاليهودى الصالح، كانت ولا زالت إلى الآن أقصى آماله، أن يستريح بعد الموت فى حضن إبراهيم. وكان مجرد الانتساب إليه، يحسب لدى الجميع ضمانا لدخول السماء. والرسل الذين اختلفت وجهات نظرهم، كبولس، ويعقوب، اتفقوا فى مدح إبراهيم، وتقديمه مثالا لمسيحيى العصور الأولى، الذين عاصروا المسيح نفسه. والكنيسة فى العصور الوسطى، اعتبرت إبراهيم ضمن أبطال العهد القديم، بإجماع الآراء، وكان هو الوحيد الذى حاز بإجماع الآراء. والمسلمون الأتقياء، يقدسون اسمه، ويعتبرونه وحده، فى المرتبة الثانية بعد نبيهم.

ما هو السر فى هذه الشهرة الواسعة؟ لم يكن لأنه قاد حركة إصلاحية فى البشرية، أو لأنه امتاز بمواهب عقلية فائقة، أو لأنه حاز ثروة طائلة، بل إن حياته الروحية القوية، هى التى جعلته موضوع احترام كل الأجيال.

كانت أخلاقه ترتكز على دعامة الإيمان القوى.

«فآمن إبراهيم بالله». فى هذا الإيمان، ترك أرضه، ورحل إلى أرض وُعد بها، ولكنه لا يعرف عنها شيئا. فى هذا الإيمان، ترك لوط يختار أفضل الأرض لنفسه، لأنه كان واثقا من أن المرء لا يستطيع أن يفعل لنفسه شيئا أفضل مما يهبه الله لكل الذين يتكلون عليه. فى هذا الإيمان، انتظر السنوات الطويلة، واثقا بأن الله لابد أن يهبه الابن الموعود. فى هذا الإيمان، عاش فى خيام حياة البدو، لا يبذل أقل مجهود للعودة إلى الوطن الثابت، الذى

غادره، لأنه نفسه كانت تنتظر حقا مدينة الله: وفى هذا الإيمان، كان مستعدا لذبح إسحق، و فيه دفن سارة.

ولا تظن بأن إيمانه بقى عقيما. كلا! فإنه قد أعطى ثمارا كثيرة. لأننا إذا اختبرناه بقائمة ثمار الإيمان التى يضمنها لنا العهد الجديد، وجدنا أنه قد أثمر كل هذه الثمار. خذ مثلا؛ سلسلة تلك النعم التى يصفها الرسول بطرس فى رسالته الثانية، والتى تعتبر سلما ذهبيا، انتصب بين الأرض والسماء (٢ بط ١:٥-٧).

(١) إنه في إيمانه قدم فضيلة أو رجولة وشجاعة:

وأية رجولة أعظم من ذلك النشاط الذى سلح عبيده به، وأية رجولة أعظم من تلك البطولة التى بها طاردت جماعة من الرعاة غير المدربين، صفوف أشوريا المدربة، واكتسحتهم أمامها، كما يكتسح الريح القش، ورجعت ظافرة منتظرة فى كل وادى الأردن.

(٢) و في الفضيلة، قدم معرفة:

لقد صرف كل حياته طالبا فى كلية لاهوت الله. فى كل سنة، كان يتلقى رؤى وإعلانات جديدة، عن صفات الله. وفى كل يوم، ينمو فى معرفة الله، وفى الطبيعة الإلهية التى كان يجهلها كل الجهل سابقا - فى بداية الأمر، كان يتطلع إلى وطن مجهول، ولكنه، على مر السنين؛ كان يزداد رؤية لطول ذلك الوطن، وعرضه، وعمقه، وارتفاعه، ومحيطاته، وجباله، وسهوله.

(٣) وفي المعرفة، قدم تعففا، أو ضابطا للنفس:

أما إنه كان قد تعلم ضبط النفس؛ فهذا ظاهر من طريقة رفضه تقدمة ملك سدوم، وطريقة كبح جماح نفسه، بإزاء إغاظة رعاة لوط إياه. إن أقوى الشخصيات، هى أقواها ضبطا للنفس، وهى التى تستطيع حينئذ، أن تأتى أعمالا، تعجز عنها النفوس الضعيفة. لن توجد أخلاق أسمى من أخلاق ذلك الإنسان، الذى يصبح سيدا لنفسه، لأنه عبد ‹، والذى يحسن حكم الآخرين، لأنه يحسن حكم نفسه.

(٤) وفي التعفف، صبرا:

عندما يتكلم عنه العهد الجديد، يؤكد أنه «تأنى» (أو احتمل بصبر) (عب ٦:١٥). لم يكن صبرا اعتياديا ذلك الذى انتظر السنوات الطويلة، لا يتذمر ولا يشتكى، بل مستعد أن

يقبل الوقت الذى عينه الله. لم يكن صبرا اعتياديا ذلك الذى رفض كل معونة، وكل تعزية بشرية، وهدأ نفسه على طريقة المرنم، الذى قال: «هدأت وسكت نفسى كفطيم نحو أمه نفسى نحوى كفطيم. ليرج إسرائيل الرب من الآن وإلى الدهر» (مز ١٣١: ٢ ، ٣)

(٥) وفي الصبر ، تقوى:

كانت التقوى إحدى مميزاته، إذ كان يشعر دواما بأنه ماثل فى حضرة الله، وكان قد أحبه من كل قلبه. إذا ما أقام خيمته فى أى مكان؛ أول ما يهتم به أن يقيم مذبحا. ففى شكيم، وحبرون، وبئر سبع، نرى آثار محبته ‹، وفى كل ضيقاته، كان لا يلجأ إلا ‹، كما يلجأ الطفل لأبيه. وكانت ترتفع نفسه نحو الله، ليناجيه، حتى غلب عليه ذلك الاسم فى كل الشرق «خليل الله».

(٦) «و في التقوى مودة أخوية»:

قد نرى بعض البشر، ممن يتقون الله تنقصهم محبتهم لأقاربهم وإخوتهم فى البشرية.أما إبراهيم، فلم يكن كذلك، بل كان قلبه عامرا بالمحبة الأخوية. أصغ إلى ذلك الصراخ المنبعث من قرارة نفسه «ليت إسماعيل يعيش أمامك». واذكر شهادة الله نفسه نحو محبته، التى لم تكن قاصرة على أولاده، بل قد أحب الجميع.

(٧) «و في المودة الأخوية محبة»:

كان فى كل معاملاته مع البشر كريما، سخيا، شفوقا، محبا. ارتضى أن يدفع ثمن مغارة المكفيلة الباهظ، الذى طلب منه، بلا مساومة ولا تذمر. كان متواضعا لا أثر لكبرياء فى قلبه، لطيفا، محتشما، مستقيما أمام الله، محبوبا فى نظر الناس.

كل هذه الصفات، توفرت فيه، بل كثرت، وجعلت حياته مثمرة، وجعلت دعوته واختياره ثابتين، وهيأته «للدخول» إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدى (٢ بط ١: ٨-١١). يدل النص اليونانى لكلمة «دخول» على معنى سام عجيب. فإنه يدل على الترحيب العظيم، والموسيقى العذبة، والتحيات الفرحة، التى تقدم للمنتصر الراجع إلى مدينته محملا بالغنائم. يدل على أن بعض النفوس – على الأقل – تستقبل استقبالا ملكيا محفوفا بكل مظاهر العظمة والجلال، والفرح، على عتبة العالم الآخر. إن كان الرب قد سمح بدخول كهذا، لأى نفس، فما أحراه أن يهب لإبراهيم ، الذى، بعد كفاح مائة وخمس وسبعين سنة، «أسلم روحه ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعان أياما وانضم إلى قومه» (ع ٨).

«أسلم روحه»، لم يكن هناك إحجام فى تسليم روحه، لأنه لم يتمسك بالحياة، بل كان مستعدا، ومغتبطا للرحيل. وعندما دعاه ملاك الموت، عادت الروح إلى الله، معطيها، بدون مقاومة، بل بكل سرور، وارتياح.

«وانضم إلى قومه». هذه، لايمكن أن تشير إلى جسده، لأنه لم يرقد بجانب آبائه وأجداده، بل بجانب سارة. لهذا، فإنها لابد أن تشير إلى روحه. كان الآباء الأولون لا يعرفون كثيرا عن المستقبل، ولكنهم كانوا يعتقدون أن هنالك مكانا تجتمع فيه أرواح القديسين، الواحد بعد الآخر، لينضم كل واحد إلى قومه الذين نشأ بينهم، والذين يحمل اسمهم، والذين قد اتصلت نفسه بهم.

ويا له من تعبير جميل، ذلك الذى كانوا يطلقونه على الموت. فالموت فى عرفهم، كان هو الانضمام مرة أخرى إلى قومنا، هو الاجتياز إلى عالم آخر، تجتمع فيه كل الجماعة، وإذ يعبر إليهم كل قادم جديد، يستقبلونه بأصوات التسبيح والترنيم.

أيها القارى العزيز.. من هم قومك؟ أرجو أن يكونوا هم جماعة الله. إن كان الأمر كذلك، فاعلم بأن الذين ينتظرونك فى العالم الآخر، أوفر عددا جدا من الجماعة القليلة التى تحيط بك هنا. كثيرون يعرفونك حق المعرفة، وإن كنت أنت لا تعرفهم. كثيرون لا تكتمل سعادتهم بدونك، لهذا، فإنهم يترقبون مجيئك إليهم بفارغ الصبر؛ فاحرص بأن لا تخيب رجاءهم، ثم اذكر إن كان قومك وشعبك هم شعب الله، فإنك لا يمكن أن تضم إليهم إلا إذا اتّحدت بالله أولا، بالإيمان والمحبة.

لم يشك إبراهيم مطلقا فى وجود أرواح القديسين فى العالم الآخر. ليست السماء سجنا، بل وطنا. وهل يمكن أن يخلو الوطن من المحبين؟ إننا طالما نقرأ عن داود، إنه ذاهب إلى ابنه، وعن بولس، عندما يعلن سروره بالتقائه ثانية مع بنيه بالروح، فإن ذلك يعيننا على أن نعتقد مع إبراهيم، أن الموت هو الاتحاد ثانية بمن قد اتصلت أرواحنا بأرواحهم. إن القرابة الروحية، تبقى إلى أبد الآبدين، وتمد أذرعها لكل أطراف العالم.

«ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه فى مغارة المك فيلة». كانت هنالك فوارق عظمى بين هذين الأخوين – فقد كان إسماعيل ابن الجارية، أما إسحق فكان ابن الزوجة الشرعية. كان إسماعيل ابن الظروف، أما إسحق فكان ابن الوعد. كان إسماعيل وحشيا، قوى العضلات، متكبرا، معتمدا على ذراعه وقوته البدنية، سريع الغضب، سريع الانتقام. أما إسحق، فكان هادئا، وديعا، متواضعا، مطيعا. فقد ارتضى أن يحمل الحطب، وأن يبقى فى الظلام، وأن

يوثق، وارتضى أن يسلم أباره، وأن يترك لزوجته إدارة منزله. ومع ذلك؛ زالت كل هذه الفوارق فى ساعة الح أن الشديد، وإذ عاد إسماعيل من البرارى والقفار، وبرفقته رجاله البواسل، وقف بجانب أخيه الذى انتزع منه الميراث، والذى كان أرفع منه قدرا، بدرجة لا تترك مجالا للمقارنة بينهما. لكن؛ كل هذه الخلافات، زالت فى تلك الساعة.

ولعل الكثيرون من العظماء قديما، قد اتحدوا فى المجئ معا إلى تلك المغارة، لكى يحنوا رؤوسهم احتراما لتلك الشخصية الفذة التى عاشت بينهم طويلا.

وسط عويل النساء، وبكاء الباكين، جئ بجثة ذلك الرجل الذى ألقى كل اتكاله على الله، مهما عزت التضحية، والذى ارتضى بأن يكون غريبا، ونزيلا، فارتحل المسافات الشاسعة، والرحلات الشاقة المضنية، ودفن سارة زوجته الأمينة - ولعلهما لا يزالان راقدين هنالك إلى الآن، على الأرجح جدا؛ ومن هنالك سيقومان، عند مجئ الملك العظيم.

☩ ☩ ☩

من هذا الإنسان الذى كان بلا شك إنسانا عاديا، استطاع الرب أن يخلق شخصية قوية، اتصل بها فى صلة متينة، وعاملها معاملة الصديق للصديق، والخل لخليله. استطاع أن يخلق شخصية تركت تأثيرها العميق فى كل الأجيال المتعاقبة. أليس ذلك دليلا على أنه يستطيع أن يقيم أى محصول يختاره مت سلمت تربة القلب والحياة، تسليما كاملا؟ فلماذا لا نسلم ذواتنا له بالتمام من الآن، لكى يتمم فينا مسرة صلاحه، ويعمل فينا عمل الإيمان بقوة. إن كان ما يتطلبه منا هو أن نثق فيه تماما، ونطيعه طاعة سريعة كاملة، وإذ تمر السنون مستشهد نتائج تعطى المجد < فى الأعالى وتملأ قلوبنا سبحا لا ينقطع.

انتهى والحمد لله

فهرست

الموضوع	صفحة

مقدمة المؤلف	٥
مقدمة المعرّب	٦
الفصل الأول : نقرة الجب	٩
الفصل الثانى : دعوة الله	١٥
الفصل الثالث : أطاع	٢١
الفصل الرابع : أول الآباء المتغربين	٢٧
الفصل الخامس : إبراهيم فى مصر	٣٣
الفصل السادس : الاعتزال عن لوط	٣٨
الفصل السابع : الطريقان	٤٤
الفصل الثامن : قوة بين الموقعتين	٥٠
الفصل التاسع : ملكى صادق	٥٥
الفصل العاشر : ثبات إيمان إبراهيم	٦٠
الفصل الحادى عشر : السهر مع الله	٦٧
الفصل الثانى عشر : هاجر الجارية المصرية	٧٢
الفصل الثالث عشر : كن كاملا	٧٩
الفصل الرابع عشر : علامة العهد	٨٦
الفصل الخامس عشر : الضيف الإلهى	٩٢
الفصل السادس عشر : يتشفع من أجل سدوم	٩٨

صفحة	الموضـــــــــــــــــــوع
١٠٥	الفـصل السـابـع عـشـر : عمل الملاك فى مدينة شريرة
١١٥	الفـصل الثـامن عـشـر : بقايا الطبيعة القديمة
١٢١	الفـصل التـاسع عـشـر : طرد هاجر وإسماعيل
١٢٨	الفـصل العـشـرون : مكان هادئ للراحة
١٣٣	الفصل الحادي والعشرون: التجربة العظمى
١٤٤	الفصل الثاني والعشرون: مغارة المكفيلة
١٥٠	الفصل الثالث والعشرون: جواب النفس للوعود الإلهية
١٥٧	الفصل الرابع والعشرون: وانضم إلى قومه

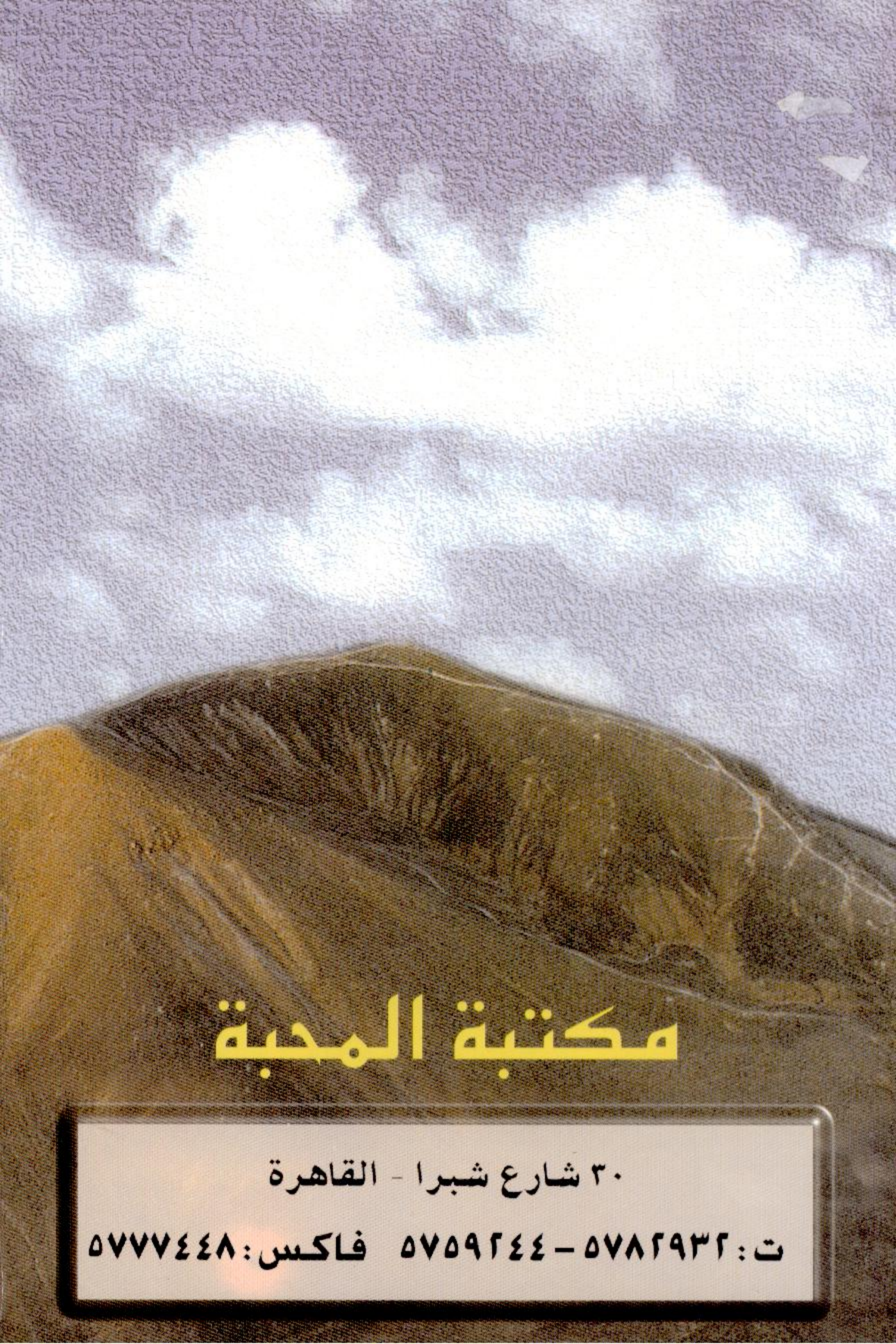

مكتبة المحبة

٣٠ شارع شبرا - القاهرة

ت: ٥٧٨٢٩٣٢ - ٥٧٥٩٢٤٤ فاكس: ٥٧٧٧٤٤٨